جنكيز آيتماتوف

عندما تتداعى الجبال

العروس الخالدة

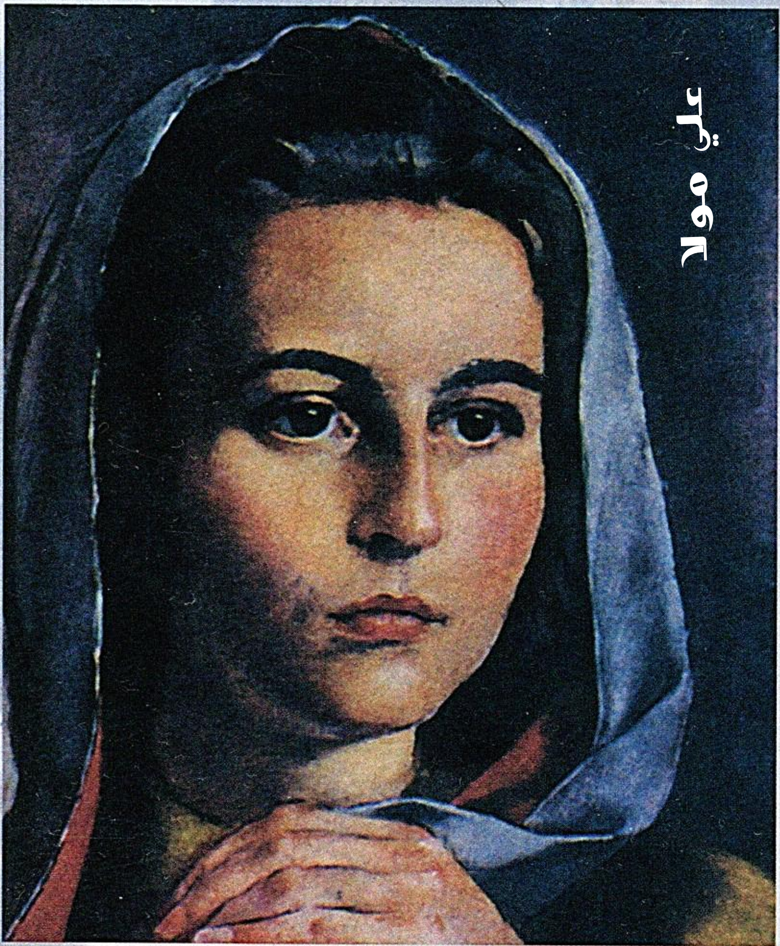

ترجمة: د. هاشم حمادي

١٥٤٩٠

عندما تتداعى الجبال

العروس الخالدة

ЧИНГИЗ АЙТМАТОВ

КОГДА ПАДАЮТ ГОРЫ

[вечная невеста]

دار الكلمـــة للنشـــر والتوزيـــع
سورية، دمشق - ص ب : ٢٢٢٩
ها : ٢١٣٤٦٩٢ فا : ٢١٢٦٣٦٢٦

دار الحصاد: طباعة - نشر - توزيع
سورية - دمشق
ص ب: ٤٤٩٠، ها ٢١٣٤٦٩٢
فاكس ٢١٢٦٣٢٦
E-mail: jameh@mail.sy
الطبعة الأولى : ٢٠٠٧
الحقوق محفوظة

جنكيز آيتماتوف

عندما تتداعى الجبال
العروس الخالدة

ترجمة: د. هاشم حمادي

تقديـــم

الموضوع: هو كيف على المرء أن يعيش، وكيف يجب أن يموت؟ كيف تحيا وكيف تموت

إن رواية جنكيز آيتماتوف الأخيرة حين تتداعى الجبال (العروس الخالدة) هي تراجيديا رفيعة، وعمل أدبي في غاية الكمال والإتقان، على غرار كاتبها الكامل بين جنسه من البشر ابن التاريخ والحضارة. إن طريقه ليثير الذهول، من حقبة ما قبل التاريخ إلى المعاصرة. جامعاً بدايات التكوين ونهاياته في رحلة الروح والجسد، وباثّاً الحياة في الكثير من المراحل والتجارب في حياة الإنسان والمجتمع، من خلال مؤلفاته الخالدة.

ولد آيتماتوف في عام ١٩٢٨، وعاش طفولته في الآيل القرغيزي شيكير، في جو من الحياة القبلية البدائية. ومن الشمال هبت الرياح، حاملة أفكار الاشتراكية، وأصبح أبوه أميناً لفرع الحزب الشيوعي البلشفي القرغيزي، لكنه أعدم رمياً بالرصاص في عام ١٩٣٨.

بدأ جنكيز العمل في مجال تربية الدواجن، لكنه كان يتطلع إلى الثقافة الواسعة، فراح يكتب في الصحف: الرسائل، التقارير، القصص

القصيرة والطويلة. ولم يلبث أن لفت الانتباه، وانتقل للدراسة في المعاهد العليا في موسكو.

وفي عام ١٩٦٣ فاز بجائزة لينين للآداب، وصنف بين عمالقة الثقافة العالمية. إن الطريق الذي قطعته روح هذا الإنسان طويلة جداً بدءاً من المعاناة الجمة، وانتهاء بالظفر، بدءاً من وضع المنبوذ إلى وضع «ابن الوطن البار» فكأن الحياة سامت عقله وروحه مثل هذا العذاب لكي تبدع هذا الوعاء الخلاق الذي يتسع للحالات المتنوعة، التي يمكن أن يمر بها الإنسان. ولقد تجلى هذا التعاطف الشامل في كوكبة الأبطال الذين أبدعهم الكاتب، والذين أحبهم القراء، وشعروا بوشائج القربى معهم في بلدان العالم المختلفة، إذ أن العديد من شعوب: أوروبا، آسيا، أفريقيا وأمريكا اللاتينية قطعت في القرن العشرين على عجل الطريق من النظام الأبوي إلى الحضارة المعاصرة من الميثالوجيا والفولكلور إلى الأدب والفلسفة. وآيتماتوف يزاوج بين طبقات الروح هذه فهو مبدع ميثولوجي ورومانسي واقعي وحداثي. وبعين الأزل يرصد ما يحدث عبر التاريخ للإنسان، لروحه ومفاهيمه في كل مرحلة، وفي إطار المجتمع.

يتجلى هذا في مرحلة الطفولة الذهبية (الغرانق المبكرة) ومرحلة الشباب والحب الفتي (جميلة) ومن ثم التحولات الثورية («المعلم الأول، وداعاً ياغولساري»)، والبحث عن مغزى الحياة في خطأ المفاهيم والقيم التي يرفض كل منها الآخر...

ويزداد وضوح معالم ما كان يميز روسّو وتولستوي: فتقدم الحضارة والتكنيك والكماليات لا يعني التقدم في الأخلاق. بل على العكس، يصبح الإنسان الباحث عن الروح وعن الحقيقة السامية، يصبح منبوذاً، وهو مدعو لاجتراح المآثر وأن يشق وسط الغوغاء وغباء

الغرائز الدنيا، مساره نحو الأعلى، نحو المطلق، فيدفع الثمن غالياً كما يظهر في أعماله: («السفينة البيضاء»، «ويطول اليوم أكثر من قرن»، «النطع»).

والآن، بعد كل هذه التطورات العاصفة، ومع صدور روايته هذه، قد يتساءل القارىء كيف أصبح آيتماتوف الكاتب والإنسان، وكيف هي المرحلة التاريخية، وما الذي يرويه، وما هو«الاستنتاج النهائي من الحكمة الأرضية»؟

هو ذا الشطر من مونولوج فاوست الختامي عند غوته، ثم إن آيتماتوف نفسه قد أصبح في عمر **غوته وتولستوي**، فقد بلغ «السلطة العليا» في الفن وإدراك العالم مرتبة المايسترو والأكساكال ــ الحكيم. ويصدق فيه قول الشاعر الروسي **تيوتشيف** في وصف **غوته**:

على شجرة البشرية الشامخة،

كنت ورقتها الأفضل،

من نسغها الأنقى تغذيت،

وبأصفى أشعة الشمس اغتسلت،

ولقد أصبح بوسعه أن يسمح لنفسه بما يشبه التجربة ــ فكرياً ــ بالخطوة الأخيرة، بآخر امتحان للإنسان في الحياة: كيف أنت؟ كيف أصبحت؟ على هذا النحو سوف تغادر. هذا ما يطلق عليه اسم«المغادرة» بالنسبة للعمالقة العظام: الحكماء والمهاتمات («الأرواح العظمى»).

في الرواية شخصيتان محوريتان ــ النمر الأرقط «جابارس» والكاتب **أرسين سامانتشيه**، أو بالأحرى **جنكيز آيتماتوف** نفسه وكلاهما، النمر والإنسان يواجهان تغيراً جذرياً في ظروف الحياة. فالجابارس الذي كان الآمر الناهي بين بني جلدته، يغادر القطيع وهو يتنهد بحسرة وألم، إذ يرى النمر الشاب يستولي على أنثاه، ويشعر بأنه على وشك الاختناق، فيقف عاجزاً عن اجتياز المرتفعات التي كان يجتازها في الماضي بكل سهولة ويسر.

والإنسان ــ أرسين ــ بدوره يصطدم بانكسار كارثي في التاريخ، فقد تداعت بيئته الطبيعية ــ فضاء الحضارة السوفيتية (مرحلة ما بعد الستالينية، المرحلة الذهبية في عمر الثقافة التي كان آيتماتوف واحداً من أركانها) أمام غزو تسونامي السوق وسلطة النقود.

وهاهي الفتاة، التي يكن لها كل الحب، مغنية الأوبرا الرفيعة، ترقص في مسارح المنوعات، بينما يطرد هو، ذاك الذي كان يحمل على الراحات من المطعم، باعتباره شخصاً غير مرغوب به.

يالها من ضربة قاضية، ويستبد به الغضب، وتتملكه رغبة عمياء في الانتقام: قتل «الشومان» الذي اختطف حبيبته، فوأد كل أحلامه وآماله.

وهنا يصطدم أرسين بكارثة أخرى في الآيل، بين أهله وأقاربه. يا إلهي إلى أي درك انحط الجبليون الأباة؟ إنهم يبيعون الجبال والوحوش، ولم يعودوا يكسبون قوتهم بعرق جبينهم، بل يدفعون ثمنه كرامتهم، ويريقون ماء وجههم، ويتلمظون أمام«الإكْراميّةْ»، أمام عطاءات السياح الأجانب، لقاء تنظيم حفلات الصيد.

لقد أصبح الشعب«قواداً»، يبيع أمه الطبيعة، بثمن بخس(دراهم معدودات)، على غرار جاره، الشعب الروسي، الذي يبيع النفط والغاز ــ دم الأرض الأم وروحها؛ ثم إن أبناء قريته الذين كلفوا بمطاردة الوحوش، ودفعها إلى الكمائن، يستقبلونه، هو الكاتب البارز، بالترحاب ويطلعه أحدهم ــ وهو ابن صفه سابقاً ــ على ما يدبرون: اختطاف الصيادين العربيين واحتجازهما إلى أن يدفعا فدية، قدرها عشرون مليوناً من الدولارات، وحين يرفض أرسين المشاركة في هذا التدبير قائلاً: «لست إرهابياً». يأتيه جواب تاشتان أفغان ابن صفه «نحن بدورنا لسنا إرهابيين، كل ما في الأمر أننا نأخذ حصتنا من رأس المال العالمي، لا أكثر».

وبكل مهارة يقود الكاتب التجريبي بطله إلى تلك الحالة التي تتلاقى فيها الأمور كلها: الاتفاق والواجب، الضمير والوجدان. وكل يطالب بنصيبه.

لقد وجد نفسه محشوراً، كما النمر الأرقط الثلجي، وبالفعل فإنه يتحول بدوره إلى طريدة، أما الصياد فهو الكاتب نفسه، ونحن القراء بدورنا.

وقبيل حدوث الفاجعة يبزغ في سماء أرسين نجم ساطع، حين يلتقي، على غير ميعاد، بإريس الحسناء، التي يقع في حبها، منذ النظرة الأولى، ويتحرر على يديها من معاناته وعذابه، بعد ضياع حبه السابق آيدانا التي تبين أنها غير جديرة بأن تكون قرينة للعروس الخالدة. أما إليس فقد جاءت تجسيداً حياً لهذه العروس، ومعها قرر أن يصبح أخيراً زوجاً وأباً، كما يريد ذووه وأصحابه.

لكن القدر يقف له بالمرصاد، كما يقف بالمرصاد للنمر الأرقط المنبوذ، ثمة الكثير من أوجه التشابه، إن لم نقل التطابق، بين قدر هذا وذاك؛ بين حياة كل منهما، فلا غرابة أن جمع بينهما الموت المشترك.

غيورغي غاتشيف

الفصل الأول

ثمة حقيقة مبرمة هي واحدة بالنسبة للجميع دائماً، وهي أن أحداً لا يعرف ما هو قدره، وما المكتوب على جبينه، وأن الحياة هي وحدها التي تبين ما كتب على كل منا؛ وإلا فلماذا يكون القدر قدراً.. هذا ما كان عليه الأمر منذ بدء الخليقة، منذ آدم وحواء، اللذين طردا من الجنة ــ إنه القدر أيضاً ــ ومنذ ذلك الحين وسر القدر يشكل لغزاً أبدياً، عصياً على الجميع، بلا استثناء، على مر القرون والأيام والساعات والدقائق.

وهذا ما حدث ويحدث الآن أيضاً. أجل إنه الشيء نفسه. من كان بوسعه أن يتنبأ بالحدث الذي يقع خارج حدود الإدراك البشري، لا بل وحتى خارج حدود الاختصاص الإلهي.

الشيء الوحيد الذي كان بالامكان تخمينه، في محاولة بلوغ المستحيل، هو نوع من الارتباط الأسترولوغي[١] بين الكائنين، اللذين سيشكلان موضوع روايتنا، وقرابتهما الكونية من حيث أنهما استطاعا أن يولدا بمشيئة الأقدار إياها، من برج واحد، ولربما هذا ما حدث.

---

(١) التنجيمي

من البديهي أن أي منهما لم يعرف، ولم يكن بوسعه أن يعرف، بوجود الآخر على سطح الأرض. لأن أحدهما كان يعيش في المدينة، مدينة عصرية مزدحمة تغص بالفائض السكاني. بالمتاجر والمطاعم التي تمور بدخان الشواء، بينما كان الآخر يعيش عالياً في الجبال، في الممرات الصخرية البرية، المكسوة بالنباتات الكثيفة، والمغطاة سفوحها بالثلوج الظليلية، على مدى نصف عام، ولهذا فقد أطلق عليه اسم النمر الأرقط الثلجي؛ أما في العلوم ــ هناك نوع من العلوم حول المرتفعات الشاهقة ــ فيعرف باسم تيان ــ شان الثلجي الأرقط، من فصيلة القطط، التي تنتسب إليها الفهود. أما عامة الناس، في الأماكن القريبة من موطنه فتسميه «جابارس» (أي النمر السهم) وهو اسم على مسمى، ويليق بطبيعته، فهو في لحظة الوثوب سريع فعلاً كما السهم، كما يطلقون عليه أيضاً اسم «كار كيشكين إيلبيرس»، ويعني «السائر حتى صدره في الثلج» وهذا أيضاً، يتطابق مع الحقيقة، فالمخلوقات الأخرى تبحث جاهدة عن المسالك، التي تجنبها الوقوع في أسر الكثبان الثلجية، أما هو فينطلق جباراً يحرث الأرض بخط مستقيم.

كان النمر الأرقط عادة ما يصطاد عند الظهيرة، ففي هذا الوقت يحل في الجبال موعد شرب آكلات العشب حيث تتوجه الماعز البرية والكباش من مختلف الأنحاء، قاصدة المسايل والأنهار الصغيرة، لإرواء عطشها، وغالباً ما تقضي أكثر من يوم في سيرها نحو المنهل بشكل منتظم، تقفز بخفة ومرونة، وتسير عبر الممرات، وكأنها لا تلامس الأرض، تسير في مجموعات صغيرة في صف واحد، وقد تحولت إلى عيون ساهرة، وآذان مرهفة، لكي تقلع في اللحظة اللازمة، كما النابض فوق الأرض، وتنطلق بعيدا عن الخطر المتربص بها.

لكن الجابارس يتقن عمله جيداً، فهو يتربص بفريسته، فيختبىء في المكان الملائم، لكي يقوم بالوثبة الخاطفة المباغتة من علٍ، من خلف إحدى الصخور (تلك هي الطريقة الأنسب)، أو لكي ينقض عليها فجأة من الجنب، من خلف الدغلة، فيطرح الفريسة أرضاً، ثم ينهش عنقها الذي يصطبغ بالدم الأحمر القرمزي الساخن، ومن ثم ـــ الأمر معروف...

أما إمساك الفريسة بالمطاردة، فالأفضل أن يتم بعد أن يروي القطيع غليله تماماً. ولهذا الغرض يجب أن تكمن في مكان قريب ــ بلا أي حركة، لا سمح الله ــ وتتحلى بالصبر على الرغم من أن الجسم الحي قريب جداً، على مرمى قفزة واحدة. يجب تفحص المكان بعين ثاقبة، والصبر، وبذل قصارى الجهد لضبط النفس، بينما تلقي الكباش برؤوسها ذات الأعناق الدقيقة، وتصفق بعيونها المتلألئة الحذرة، وهي تشرب وتشرب بجرعات غير مسموحة، وقد وقفت بقوائمها الأمامية حتى الرسغ في الماء، وكلما شربت من الماء أكثر ازدادت فرصة الجابارس في النجاح، وإذا كانت المطاردة بخط مستقيم فنادراً ما تتكلل بالنجاح، فهذه الكباش سريعة جداً، إنها تجري أسرع من الصوت ــ وفي هذا نجاتها ــ لا تزعق ولا تصرخ، ولا تتدافع من شدة الخوف على غرار بعض المخلوقات الأخرى، مثل الخنازير البرية، التي تصادف أحياناً في هذه الأحراج الصغيرة في فصل الجفاف. وحينما تروي الكباش غليلها جيداً، فإنها تصبح أقل حذراً، وعندها يجب العمل بأقصى سرعة حالما تتحرك لتبتعد عن المنهل.

وفي هذه المرة أيضا، لم يكد يقترب موعد الظهيرة، حتى شعر جابارس بالرغبة في الصيد بالقرب من النبع. وهكذا فقد مشى وضفة النهير الصاخب،عبر الأجمات بتؤدة، وهو ينظر يمنة ويسرة، ويلتفت إلى الوراء، فمن خلفه يمكن أن يظهر أحد أبناء جلدته، وهو أمر غير

مستحب،خاصة إذا ما خرجت الأسرة بكامل قطيعها للصيد فما الداعي إلى المنغصات الزائدة، وإلى تبادل الزئير الرهيب، الأفضل أن يصطاد بمفرده، وهكذا فقد تابع طريقه.

إنها بداية الخريف، وهو الوقت الأفضل في مرتفعات تان ـ شان، فلا يزال هبوب الزوابع الثلجية بعيداً، ولا تزال الممرات الجبلية سالكة، ولا تزال الطرائد تحتفظ باللذة في جسمها الطري، الذي شبع من النزهة صيفاً، والطيور ـ وهذه لا تزال تزقزق، تصفر، وتشدو على هواها ـ فالفراخ ترعرعت جيداً وشبت عن الطوق، وبحلول فصل الشتاء لن يبقى معشر الطيور هنا، بل ستختفي حتى الصيف القادم، فهي لا تستطيع تحمل الشتاء القاسي.

ودون أن يتوقف عن البحث عما إذا كانت هناك أكباش تتجه نحو المنهل، راح جابارس يتكيف مع المكان، فكان يسير بحيث لا تبدو للعيان معالم جلده المبقع وسط الأجمات والصخور.

كان جابارس مديد القامة، وافر النشاط، ذا عنق دائري قوي، ورأس ضخم ثقيل، وأذنين قطيتين، وعينين ثاقبتين تتألقان في العتمة وكأنهما ليزريتان، وكان بجسمه مرناً، طويلاً وقوياً، يتحلى بجلد مبقع أملس كالحرير، ناعم كالصوف على غرار ثياب الشامانات والخانات، كما تقول الأغاني. لو أنه يعرف وهو يضرب في الأرض غير هياب ولا وجل مدى شبهه بأخيه النمر الإفريقي، حتى أن ذيليهما متشابهان في الطول والإيحاء، صحيح أن أخاه الإفريقي يضطر إلى تسلق الأشجار، كما القط لكي يسهل عليه الانقضاض على الفريسة، أما النمور الثلجية فقدرها أن تتسلق ما هو أضخم، الصخور والجروف. ثم إن الأشجار العملاقة، كتلك التي في أفريقيا، غير موجودة على ارتفاع أربعة آلاف ـ خمسة آلاف متر، فالغابات في هذه الأماكن

تنمو في الأسفل، في الوديان، حيث لا يعيش إلا الأوشاق على الأغصان وقد يصدف أن تأتي النمور إلى تلك الأماكن الحراجية، فتروح الأوشاق تنخر عليها، وتفح وكأنها لا تعترف بأواصر القربى البعيدة معها. أما النمور الثلجية فعالمها مختلف، إنه العالم الشاهق، وليس لها من مسكن سوى الجبال، التي تناطح السماء، وبانتظارها صيد كبير في المعارك ومطاردة الكباش البعيدة المنال.

لم يلبث جابارس أن حسم أمره، فاختار الموقع المناسب، ورقد وسط الصخور الملساء على ضفة أحد الجداول. اختبأ، وهو يمني النفس بوجبة دسمة، فإلى هنا ستأتي الكباش لترد الماء، وعددها حوالي السبعة تسير في رتل واحد على طرف السفح، رافعة رؤوسها بفخر، مشوب بالخوف وكان البارحة قد رآها من بعيد، عبر فلق صخري، وهاهو الآن يتربص بها، دون أن يأتي بأدنى حركة.

كانت الشمس عالية، وتبسط ضوءها الساطع، وفي أثناء مرورها كانت الغيوم المشرقة النادرة تلامس قليلاً الذرى الجليدية لسلسلة تيان ــ شان. ولقد حدس الوحش المحنك أن كل شيء يجري على مايرام. كانت لحظة الصيد الحاسمة قد أصبحت وشيكة، الشيء الوحيد، الذي أثار هواجس جابارس، هو أنه سمع وهو مختبىء بين الصخور في وضعية الترقب، تنفسه بشكل واضح وجلي كأنه لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه، صحيح أن هذا يحدث أثناء الجري السريع والقفزات الحادة، أو أثناء العراك الشرس من أجل الأنثى، حين يختلط الزئير والبحة بالأنفاس الصاخبة والعاصفة وحين تتطاير النّدافة وحين يصبح، على استعداد لأن يخنق كل من حوله، لكن مثل هذا لا ينبغي أن يحدث في وضعية التربص، التي تتطلب التركيز والتماهي التام مع موقع الكمين، وحين يكون كل الاهتمام منصباً على الخارج. مع هذا كان يسمع شهيقه وزفيره. إن هذا يحدث له للمرة الأولى، ثم إن دقات قلبه

اليوم أكثر وضوحاً من الماضي فهي تتردد في أذنيه، وإجمالاً فلقد طرأ الكثير من التغير على حياة جابارس في الفترة الأخيرة. فمنذ الشتاء الماضي أصبح جابارس وحيداً، يعيش منبوذاً، بعيداً عن القطيع.

يحدث هذا حينما تنشب الشيخوخة أظفارها. ولقد بدأ يدب نحوها منذ عهد بعيد فلم يعد ثمة من يحتاج إليه، بعد أن أغوى نمر آخر، لا يزال في شرخ الشباب أنثاه. كانت المعركة رهيبة، ولكنه لم يتمكن من التغلب على خصمه. اشتبكا مرة أخرى، وتعاركا في قتال ضار، ومن جديد لم يتمكن من طرد الدخيل. ولقد تبين أن ذاك الأشرم (كانت إحدى أذنيه ممزقة في معارك سابقة على ما يبدو) وحش في منتهى الشراسة والعناد، لا يعرف التعب، فقد أغوى أنثاه، وراح يلتصق بها، يداعبها ويهدهدها، كل هذا على مرأى من جابارس. وأخيراً فإن أنثاه نفسها، التي عاش معها طويلاً، بعد أنثاه الأولى، التي قضت نحبها في الزلزال، وأنجب منها الذرية مرتين، ذهبت مع الذكر الجديد، الأشرم لا بل ذهبت بشكل استعراضي، تارة تهز ذيلها يميناً ــ يساراً وتارة تلفه، وأخرى تقذفه نحو الأعلى أو تقوسه وهي تلامس صاحبها الجديد بخاصرتيها وكتفيها، غادرته دون أن يرف لها جفن... حينها اندفع جابارس في إثرهما، ولحق بهما، ولم يكن اللحاق بهما بالأمر الصعب، فقد كانا يسيران عبر الوادي ببطء، لكنه عاد بخفي حنين، فقد ظلت الأمور على حالها. من جديد بدأ العراك الضاري وجاءت ثالثة الأثافي حين انقضت الأنثى عليه، وراحت تضربه، وتنهشه، فكانت تلك الضربة القاضية، ومنّيَ جابارس بالفشل الذريع في جهوده الرامية إلى الحفاظ على مكانته السالفة في القطيع، وتمديد دوره الطبيعي كذكر منتج في فصيلته. حتى حينها، لم يكد جابارس يتمالك نفسه قليلاً، حتى حاول اختطاف إحدى الإناث الشابات، من القطيع المجاور، إلى حيث دفعه غضبه. وهنا أيضاً كان

العراك ضارياً. إذ اشتبك معه ذكران. لكنه لم يجن إلا الفشل. فقد انطلق القطيع مع الأنثى والذكرين الشابين إلى أقرب الشعاب، أما هو فبقي وحيداً، وقد انفض عنه الجميع، وفقد دوره الرئيس، ففي الصراع من أجل الحفاظ على النسل تقف الطبيعة دائماً إلى جانب القوى الفتية الصاعدة.

وقبل أن يبتعد نهائياً أمضى بعض الوقت يضرب في الجوار، تارة يتسمر في مكانه، وأخرى يجري على غير هدى، تارة يستلقي، وأخرى ينهض، ويملأ الجبال بزئيره اليائس. كان يريد أن يعوي عواء الذئاب، لو أن الطبيعة وهبته ذلك وكان، وقد طاش صوابه، يقف مذهولاً، لا يعرف ماذا يفعل حتى أن غريزة الصيد بدأت تفارقه، ولم يعد يهتم بالفرائس، فها هو قطيع من الماعز البرية يمر بجواره بكل هدوء، كأنه يعرف أن هذا النمر الضاري، الذي لم يكن هرماً أبداً، والذي ما يزال صياداً صلباً ماهراً، مشغول عنه الآن. هذا ما كان عليه الأمر بالفعل وحينها، وفي لحظة غامضة من الزمن الذي فقد جوهره المألوف عنده، وقعت عيناه فجأة على ما كان يشكل ذروة عذابه وآلامه، فبينما كان يقف على قمة أحد المرتفعات الصخرية، مستنداً إلى جذع شجرة هرمة، ويلقي على ما حوله نظرات شاردة، رأى على حين غرة زوجاً من النمور الثلجية، يندفع في الأسفل على طول الوهدة. كان الزوجان الشابان، الذكر والأنثى، يلتقيان للمرة الأولى، وكانا مفعمين بالقوة والرغبة، فهما يرقصان في سيرهما، ولا يكفان يتبادلان العض الودي لكي تدب الحرارة أكثر في دمهما، قبل أن يغادرا قشرتهما الأرضية، ويحلقا فوق العالم، حتى على هذا البعد كان توهج عيونهما يبدو واضحاً جلياً.

وبشكل لا إرادي سقط جابارس، وراح يزحف على بطنه، وهو يئن، كأنه يريد أن يهرب من نفسه، لكن إلى أين المفر؟ في الزمن الغابر

ذاق حلاوة ذلك، ولعب بدوره مع الأنثى وهي تتلوى كما الأفعى أمامه، كما جرى له ذلك أيضاً مع تلك الأنثى الشابة، التي انتزعها من القطيع المجاور إذ حينها انطلقا معاً في رحلة القران هذه، بعيداً عن أعين بني جلدتهما، لأن الطبيعة خصتهما وحدهما بهذا السر، وكرسته له ولها فقط في عزلة تامة...على هذا النحو كانا يندفعان حينها، وهما يتعطشان ويغلي دمهما حينها تلهفاً، بانتظار اللحظة الساحرة. وتتوهج السماء فوق رأسيهما، وتتراقص متلألئة شرراً، ذرى المرتفعات من أمامهما. أوه، العالم كله من حولهما كان يرن ويتألق، أما هما ـ الزوج الجديد ـ فكانا يجريان على هذا النحو، جنباً إلى جنب، يكتسب كل منهما من الآخر طاقة سكرى، في مثل هذا اليوم، والخريف يطرق الأبواب، لكي تظهر في الجبال بحلول فصل الربيع القادم، ذرية جديدة، وتتابع فصيلة النمور الرقط الثلجية مسيرة الحياة. على هذا النحو، كانا يطيران وهما يكادان يلتصقان ببعضهما، وقد تطاول جذعاهما في الجري، كأنهما سمكتان تسبحان باندفاع، وتركا ذيليهما للريح تداعبهما. هي تسبقه قليلاً، بمسافة نصف رأس، كما ينبغي. فهنا تكمن أولوية الأنثى وهو بمسافة نصف رأس، لا أكثر ولا أقل يتخلف عنها، تسكره رائحة جسمها، ويرويه تنفسها الساخن، ويسمع دقات قلبها وهي تجري، وتملكه شعور غريب لا عهد به من قبل ففي تلك اللحظة سمع أصواتاً جديدة مديدة، ترن وتصفر، وتتردد على أجنحة الريح صدىً كانت تظهر في أشعة الضوء فوق رأسه، تتنامى وتتماوج مع حركة الهواء المرنة في تألق الشمس التي تميل إلى الغروب بسرعة، في ترجرج المرتفعات والغابات المحيطة.

أوه كان بمقدوره أن يعرف أن تلك كانت موسيقى الحياة الشاملة، المعزوفة الكبرى لسفادهما. لكن، وكما يحدث غالباً، فقد اتّضح أن ذلك كان مجرد سراب حلو، لم يلبث أن تحول إلى واقع قاسٍ. مرت

الأيام وتبدلت الفصول، ثم عادت وذاب السراب... نزوات القدر عصية على التكهن، هكذا كانت الأمور، وعلى هذا النحو ستبقى أبداً، وليس ثمة من يحاكم القدر على ذلك.

في ذلك اليوم الذي رزىء فيه جابارس بالطرد، وحين اندفعت أنثاه على مرأى الجميع مع غريمه الأشرم لكي ينصرفا إلى الفساد الذي من أجله دار الصراع بين الذكرين، اليوم بكامله، انطلق جابارس يهيم على وجهه في الجوار، كان يسير على غير هدى، وهو يحاول أن يكبت في داخله ذلك الغضب الجامح، وراح يضرب في الأرض بلا هدف، حتى أنه تخلى عن الصيد، وحينها، ويالها من مصادفة غريبة عثر عليهما في أحد الشعاب غير المطروقة، على أنثاه وعلى غريمه الأشرم. وكاد يصطدم بهما وهما يغازلان بعضهما. كانت تلك هي الفرصة السانحة، يكفيه أن يخطو خطوة واحدة لكي ينتقم من الاثنين معاً، لكنه في الجزء الأخير من الثانية توقف فجأة، وتسمّر بلا حراك. وهناك، في اللحظة التي كان فيها نظره الرهيب الغارق في الدم، مصوباً نحو هذا الزوج الكريه تدخلت قوة ما، صوت ما، مشيئة ما وكبحت جماحه، وكأن أحداً أهاب به وأوعز له من الداخل أن لا يلحق الضرر بهما،إذ انهما تلاقيا من أجل التكاثر، وهكذا فقد دار على عقبيه وابتعد، وهو يتعثر، وراح في ابتعاده يئن ويجأر، في زئير نحيبي.

وكلما طال فراق جابارس للقطعان من بني جلدته، تحول إلى وحش وحيد، طريد، منبوذ ضارٍ لا يرحم، على استعداد لأن يقاتل حتى الموت لأي سبب. أصبح يسكن المغاور ويضرب في الثلوج الجبلية يطارد الحيوانات، التي تحاول النجاة بجلدها منه. وغالباً ما كان يصطاد ما يزيد عن حاجته. كأنه يريد بهذا أن تتوافد كل هذه الحيوانات الطفيلية ـ الضباع ـ الثعالب والغريرات من كل حدب

وصوب لكي تأتي على بقاياها، وأن تتقاطر أيضاً، الطيور الجارحة، الصاخبة وهي تصرخ بأصوات مبحوحة مستاءة، وتضرب بأجنحتها وبراثنها. وكان جابارس ينظر إلى كل هذه الحُثالة بصمت واحتقار، وفي بعض الأحيان كان يندفع لطردها، ويزأر ويهر، كما لو أنها مذنبة في شيء. على هذا النحو كان ينفس عن غضبه وألمه وحنينه إلى الأيام الخوالي.

مرت الأيام، وظلت الجبال واقفة في أماكنها، وهي تتألق، كما كانت، بذراها المغطاة أبداً بالثلوج والجليد. الشيء الوحيد الذي تغير هو الطقس، فقد انصرمت الأشتية والأصياف، وظل ملك الجبال الشاهقة المبقع، شبيه النمر، محافظاً على وحدته، دون أن يتغير شيء في مظهره، لكن وبشكل غير ملحوظ، حلت الأيام، التي بدأ يشعر فيها بضيق التنفس.. في البداية كان يشعر به بين الفينة والأخرى، وبخاصة في أثناء الحركات الحادة والمتوترة. لكن لم يحدث حتى الآن أن شعر بالألم الحاد يمزق صدره وهو في حالة الهدوء. في هذه المرة شعر جابارس وهو يتربص بالماعز البري، بجوار المنهل، شعر للمرة الأولى بتسارع تنفسه حتى قبل بداية الصيد.

كان عليه أن يتصرف كما كان يتصرف دائماً، أن ينتظر في مكمنه، إلى أن ترتوي الماعز تماماً، وينقض عليها من ثم، دون أن يفوت الفرصة. كان هذا لا يزال مجرد نية، إذ كان لابد من أن يجري كل شيء على ما يرام وإذا ما صدف أن شعرت الماعز البرية بوجوده بطريقة ما، دارت في لمح البصر على أعقابها وانطلقت بسرعة خاطفة واختفت عن النظر وحينها يضطر لأن يقتفي أثرها ويندفع في مطاردتها، وهو وحظه.

في هذه المرة لم يضطر جابارس للتذمر من القدر، فها هي الكباش البرية ذات القرون، السريعة والمتسلقة للمرتفعات، التي تتغذى على الأعشاب والثمار، التي تنمو في القمم الشاهقة الوعرة، تسير مباشرة نحو منعطف المجرى الافعواني حيث كان جابارس يكمن لها. لم تلحظه من بعيد، ولم تشعر به عن قرب، وراحت تشرب بهدوء، وقد وقفت في صف واحد على طول الضفة.

ودون أن يأتي بأدنى حركة كان جابارس يراقبها من مكمنه. كل شيء كان يجري على ما يرام ــ فالحيوانات تشرب بكل متعة، تشرب وترتاح، وما عليه هو إلا أن ينتظر. الشيء الوحيد، غير المألوف، هو ضيق تنفسه. فقد تناهت إلى سمعه حشرجات صدره الخافتة، وعلى الرغم من أنها لم تكن تضايقه بعد في شيء، فإن صعوبة التنفس أقلقته إلى حد كبير.

لكن ها قد حلت اللحظة الحاسمة ليصل جابارس إلى فريسته بوثبتين خاطفتين، ويجندل الكبش الكبير قائد القطيع، الواقف جانبا، بضربة هائلة من يده على ظهره ــ وهنا شعر بالاختناق، وباءت المحاولة بالفشل. فأثناء تحليقه، في قفزته، رأى القطيع كيف اختلج فجأة، وقد ارتفعت رؤوسه بحدة، وبقي عليه توجيه الضربة القاضية بيده، ذات البراثن البارزة، وها هو يكاد يلامس الهدف، لكنه سقط على الأرض بجوار الكبش، الذي قفز جانباً ــ لم يكفه الهواء.

وفي ذروة الهياج الضاري اندفع الوحش من مكانه، وانقض على الكبش من جديد، لكن ذاك تمكن من النجاة بجلده، وانطلق هارباً، وقد حذا القطيع كله حذوه في الهرب من الوحش الرهيب.كان بالإمكان اللحاق بالكباش، ويجندل أول من يصادفه، فانطلق النمر يطاردها بكل ما أوتي من قوة، لكن الفشل أحاق به من جديد ــ لم يلحق بها،

لم يجندل أياً منها، ولم يطلق زئير النصر، بينما ابتعد القطيع شيئا فشيئاً. حاول من جديد وأرغم نفسه، وهو يكاد يختنق، لكن عبثا.

للمرة الأولى يُرزأُ جابارس بمثل هذا الفشل، لكن ما حز في نفسه أكثر، وجعله يشعر بالإهانة، أن قائد القطيع الهارب، الكبش، ذا القرنين المدورين، ذاك الذي وضعه الوحش نصب عينيه، التفت نحوه فجأة وهو يجري، وهز قرنيه متوعداً مهدداً، ثم فجر الأرض بحوافره، وهو يندفع مبتعداً. كان هذا إشارة إلى أنه لم يعد بوسع جابارس من الآن فصاعداً أن يعتبر النجاح مضموناً، وأنه سوف يضطر الآن للتسول، والتهام بقايا الفرائس من صيد غيره.

بالطبع لقد سبق أن صادفته بعض الأخطاء الصغيرة في الصيد، لكنه لم يعرف مثل هذه الهزيمة النكراء من قبل.

لم يتمكن من أن يثوب إلى رشده، فراح يتلفت كمن طاش صوابه، محاولا كبح جماح ضيق التنفس وسار يضرب في الأرض على غير هدى...

لقد أصبح العالم فارغاً، شعر بالرغبة في أن يسمع للمرة الأخيرة الأصوات الساحرة للجبال والشلالات والغابات. تلك الموسيقى العذبة التي سمعها في ماراتون التزاوج، كان بوده أن يطلق زئير النداء، لكن العالم ظل صامتاً...

انطلق جابارس ملك الجبال السابق، وحيداً، وهو يكاد لا يلتقط أنفاسه، يضرب في الجبال على غير هدى، كان عليه أن يعثر على ملاذ، على كهف، يقضي فيه مع وحدته، الأيام الأخيرة من ذبوله البطيء الذي لا عودة عنه، بانتظار منيته. لم يكن بمقدور هذا الوحش الضاري أن يحدس أن إنساناً سوف يشاطره اللحظات

الأخيرة من مصيره، إذ لم يكن يعرف عن هذا الكائن إلا بالسماع، والأصح من خلال صدى رشقات السلاح النادرة في الجبال، تلك التي كانت تصيبه بالرعشة، وتجعله يتسمر في مكانه، ثم يبتعد، لكن أن يرى الإنسان نفسه عن قرب ــ هذا ما لم يحدث له حتى الآن.

بيد أن مثل هذا اللقاء كان مسطراً على جبينه، إنه القدر من جديد.

الفصل الثاني

من الصعب تفسيرها. لكن مثل هذه المصادفات تحدث ـ إنْ من حيث المكان، وإن من حيث الزمان، والمهم من حيث تصرفات الأفراد ـ والتي تبدو وكأنها ترغم القدر على انعطافات مفاجئة. ولقد حدث شيء من هذا القبيل، هذه المرة أيضاً، على الرغم من أنه لم يعتقد أن الأحداث ستتخذ هذا المجرى. كان يعتقد، ويؤمن أن الغلبة ستكون إلى جانب الحقيقة في نهاية المطاف، فهي لا يمكن أن تموت وهذا يعني أن تعيش، وتحاول البرهان على الحقيقة في كل مرة ـ من أجل هذا الغرض وجدنا وتلك هي الأوامر من علٍ. لكن ما هي الحقيقة؟

كانت الحياة الليلية من الجمعة إلى السبت، تبدأ دائماً أبكر من أيام العمل. مع حلول المساء كان **أرسين سامانتشين** في مكانه جالساً إلى الطاولة في المطعم، وقد أوصى على الطعام، وامتنع عن التدخين. كان قد حاول تركه جاهداً، وكم من مرة تركه. كان يشعر برغبة لا تقاوم بالعودة إليه. ولم يمض من الوقت إلا القليل حتى تلألأت مصابيح الشارع في عتمة المساء، خلف النوافذ، وتراءت أضواء السيارات وهي تعبر الشارع العريض.

كان المطعم لا يزال نصف فارغ، لكن لن يمضي من الوقت إلا القليل حتى يزدحم إلى درجة يستحيل معها العثور على موطئ قدم. ليس ذلك بغريب: فالجمهور، الذي يستطيع تزجية الوقت بشكل رائع كان يقصد هذا المكان بالذات، على أطراف منتزه البلوط ويتوافد على المطعم الفاخر النخبوي، كما يقال الآن، وبالطبع المطعم الأغلى، الذي أنجبته التسعينات[1]، بعد أن كان فيما مضى نادياً للضباط ، ثم عُدِّل لاحقاً على النمط الأوروبي، وأصبح يحمل اسماً جيوبوليتيكيا في منتهى الصخب والموضة «يوروآسيا». وهكذا في هذا ال«يوروآسيا»جلس ينتظر ساعته. وكان من شأن من يراه أن يتساءل بدهشة: ما باله لا يكف يتردد إلى هنا، وهووحيد أبداً؟ لو أنه رجل أعمال أصابه الإفلاس، أومقامر فاشل، إذن لكان من الواضح انه جاء لينسى محنته. لكنه لم يكن هذا ولا ذاك أما الأسباب التي دفعته للجلوس إلى زجاجة نبيذ في «يوروآسيا»، وكأنه بانتظار الأصدقاء، فلم تكن واضحة تماماً، حتى له هو نفسه.

وليوحي أنه لا يمضي الوقت عبثاً، أخرج من محفظته التي لا تفارقه بعض الأوراق. وتفحصها، ثم راح يقرؤها بتمعن، وهو يشرب النبيذ، ويدرك في قرارة نفسه أنه يجازف في الواقع، لكنه لم يجد مخرجاً آخر. ولقد أدرك بناءً على الظروف أن حدود آماله وتوقعاته تكاد تنضب، وأن هذه هي فرصته الأخيرة. أجل ينبغي أن يتصرف، أن يدنو منها بطريقة تمكنه من فتح باب الحديث. لكن كيف ستكون ردة فعلها؟ البعض أصبح يسميها المغنية الأولى، أما هو فيعرف، وهي تعرف... المهم أن لا يفوت الفرصة. لسوف يقوم بمحاولة أخرى لإنقاذ الحقيقة.

---

[1] أي مرحلة تفكك الاتحاد السوفيتي

ها هو مع حقيقته مرة أخرى، فإلى متى؟ لكن ما الذي سيحدث في الواقع، وكيف ستكون ردة فعلها، هذا ما يصعب قوله. وكم ستتفهم معاناته وقناعا ته، التي لا يخامره الشك في نبلها، والتي لا يمكن أن يتبرأ منها، حتى ولو اضطر للموت من أجلها في الصحراء القاحلة، هذا ما يصعب التكهن به، وعلى هذا النحو تطورت الأمور. الرومانسية والأحلام تحطمت على خمرة الواقع. أما هو فقد تشبث بها، ووجد نفسه معها في الفخ. لكنه لا يتخلى عنها. وهكذا يبدو وكأن الجميع يمرون به عبر قطار المعاصرة بينما يقف هو، المغفل، على قارعة الطريق، يصرخ، لكن لا أحد يهتم به. وهاهو يقوم بمحاولة أخرى. ولذا فقد جاء في وقت مبكر، واختار المكان الأنسب، بحيث لا يحجب المنصة أي شيء عنه. كانت مثل هذه الوضعية ضرورية.

في هذا الوقت ظهر الموسيقيون على الخشبة، يأخذون أماكنهم باهتمام. إذ كان مقرر أن تنقل الحفلة تلفزيونياً على الهواء مباشرة، فمن المعروف أن المطاعم أصبحت على غرار المسارح، تفضل موسيقى «الروك» الحية بمشاركة النجوم المحلية والزائرة.

كان يَعْرف بالشكل بعض الموسيقيين، الذين كانوا يعزفون في السابق في أوركسترا مسرح الأوبرا كما كان يعرف بعضاً منهم شخصياً، مع أنه لم يبادلهم الحديث منذ عهد بعيد. كم من المياه تدفقت منذ ذلك الحين! هل يعقل أنه ما زال عندهم كما كان في السابق؟ لكن ما همه من ذلك؟

فلن تلبث الموسيقى أن تصدح، وتتخايل أمام كل شخص ستارة غير مرئية تقود إلى عالم آخر منشود، لا يدخله المرء إلا من خلال

الموسيقى، حيث يتراجع كل ما هو بهرج، وتبقى الروح المغردة وحدها.

فالموسيقى هي القوة الفطرية، القوة العصية على الإدراك، التي لا كابحِ لجماحها. لم تكن مجرد عشق، بل كانت شيئاً ما أكبر بكثير، شيئاً غير قابل للتفسير. وبهذا الخصوص جرت له في ذات مرة حادثة، غالباً ما يتذكرها، فيضحك من نفسه في سريرته، لا بل ويسخر منها، ويصف نفسه بالهاوي الغريب الأطوار، فبينما كان في **لندن** في سنوات **البيريسترويكا** المبكرة في مهمة صحفية استبدت به الدهشة، وتملكه الاستياء، من أن بيت الخلاء (التواليت) في أحد الفنادق اللندنية الفاخرة حيث عقد المؤتمر، الذي حضره، مزود بأروع اللوازم الضرورية، وكانت الموسيقى الساحرة تصدح من مكان ما في السقف فوق المقاعد، وكان القادمون لقضاء حاجتهم يدخلون ويخرجون من القمرات، بعد أن مسحوا مؤخراتهم وتبولوا وبصقوا وسعلوا، وفي النهاية جعلوا المياه تتدفق عبر المغاسل، فتكاد تختنق بفيضها، كل هذا على أنغام موسيقى شوبين، أو أحد العباقرة. أوه أية موسيقى كانت تسقط من الذرى الشاهقة لتحط الرحال في المجاري مباشرة. لم يستطع أن يفهم أبداً هذه الخدمة المتميزة للحضارة المدينية، فالموسيقى هي رحلة إلى الآلهة، هي مِجرّة الروح. أما هنا فانظر إلى أي درك أنزلوها. إيه لكم شعر بالأسف، لو كان في الفندق «سجل الشكاوى والاقتراحات» إذن لأراهم، هؤلاء الإداريين أصحاب الخمس نجوم... وحين صعد من شبه القبو إلى الصالة لمّح إلى ذلك، لكنه، وكما راح يسخر من نفسه لاحقاً، لم يتجاوز حدود التلميح، فقد حاول بلغته الإنكليزية، التي يمكن تحملها إلى حد ما، والتي أتقنها في سنوات الدراسة في موسكو، أن يحتج على هذا التحقير الرخيص للموسيقى، فكان أن تلقى الرد التالي: إن كان بيت الخلاء هذا لا يعجبك، فاذهب إلى غيره.

ولما كان مُهوّساً بالموسيقى فإنه لم بخجل أن يقول ذات مرة ــ فيما يشبه المزاح طبعاً ــ لو أنه انكب على دراسة الموسيقى منذ الطفولة، بدلا من رعي جياد الآيل في الجبال، إذن لكان ملحناً بكل تأكيد؛ إذ أنه يؤلف الموسيقى في دخيلته بالبديهة، لكنها موسيقى تخصه وحده.

وهكذا، لم يبق أمامه إلا أن يكتب في الصحف كموسيقِ هاو، أوكناقد مسرحي، ولقد كان يحب ذلك. ولكن حتى هنا كان يحدث أن يفضح نفسه، فقد دبت الحمية في سامانتشين، ربما بعد الشراب (كان النبيذ في «يورو آسيا» فاخراً، فرنسياً، وهذا يعني أن زيارته الحالية لهذا المطعم ستكلفه، كما هي العادة، غالياً)، وأراد أن يصب لنفسه بعض النبيذ، لكن أحد العاملين في المطعم اقترب من طاولته في هذا الوقت، لم يكن نادلاً، فمظهره رزين جداً، وثمة فراشة رمادية على رقبته الغليظة، كما هو دارج في الخدمة الأوربية، ويرتدي نظارة فخمة، ولقد تبين أنه مدير المطعم بالذات:

عفواً، هل أنت أرسين سامانتشين؟ ــ ووضع أمام سامانتشين بطاقة زيارته، التي تحمل شعار «يورو آسيا».

ــ أجل ــ رد أرسين بحيوية، على عادته ــ إنني أرسين سامانتشين، لقد أصبت، وأنت ألست مدير«يوروآسيا»؟ ــ ثم نهض قليلاً، وهو يمد يده لمصافحته، وأضاف مازحاً ــ هذا يعني مدير القارة اليوروآسيوية بكاملها؟.

ــ أوشوندوي ــ رد ذاك،وهي كلمة قرغيزية تعني التأكيد التام على ما قيل أي«هكذا بالضبط». أما أرسين سامانتشين ففي الحال أطلق عليه بينه وبين نفسه لقب «السيد أوشوندوي».

أما أوشوندوي فقد عمد، بعد المصافحة، إلى إبعاد الكرسي بثقة، وجلس، وهو يرغب، على ما يبدو في الحديث عن شيء ما بشكل جدي إذ راح يفرك نظارته، ذات الإطار الثقيل، وعلى الرغم من شعوره ببعض الدهشة من الظهور المفاجيء لأوشوندوي، مدير المطعم بالذات، فقد تابع أرسين سامانتشين بلهجته الودية:

ـ اسمح لي أيها المدير المحترم، سوف أزيح الحقيبة لكي لا تضايقك، كل شيء لديكم هنا في «يورو آسيا» رائع، ممتاز، فتراني أجلس وأمتع النظر، إنني آتي إلى هنا أحياناً، لكن...

ـ أعرف، أعرف ـ قال ذاك لكنه قبل أن يتمكن من تناول دفة الحديث استأنف سامانتشين كلامه مكرراً:

ـ ها أنا جالس، أمتع النظر وراح يتلفت من حوله بحيوية ـ انظر كم هنا من رواد! والنساء كم هن جميلات! وهنا تلجلج لسانه قليلاً، إذ بدأ تأثير النبيذ. والمطعم (غيستوغان)[1] بدون نساء، كما تعرف أنت نفسك، ليس مطعماً ـ قال سامانتشين باللكنة الفرنسية، لكن محدثه لم يكتشف السخرية.

أجل إن المطعم بدونهن ليس مطعماً، والمسرح ليس مسرحاً، والبازار ليس بازاراً. وهاهن أولاء يتوافدن. يا لهن من حسناوات. وعلى الشرفة لا تزال توجد أماكن شاغرة لمن يود الجلوس فوق. وهاهي الأوركسترا قد بدأت استعداداتها. أخيراً. إنني أنتظر، أنتظر الموسيقى. ومن أجل هذا أتيت. وأية ثريات! يقال إنها إيطالية، فهل هذا صحيح؟

---

[1] كلمة "غيستوغان"هي" ريستوران " لفظها الكاتب باللكنة الفرنسية ـ في لهجة مدينة باريس التي يلفظ فيها حرف R غيناً /المترجم.

وهز أوشوندوي رأسه، قائلاً:

ــ أجل إنها إيطالية ــ ورفع يده بحزم في إشارة تحذيرية، وفحواها: انتظر قليلاً، ينبغي علي أيضاً أن أقول شيئاً ــ لم آتك مصادفة، بل من أجل... وتلجلج عاجزاً عن إنهاء جملته.

ــ حسن، شيء رائع ــ انطلق لسان أرسين سامانتشين، وقد انشرح صدره فالنسيان لم يطوه تماماً، ولا يزال البعض يعرفه في الأماكن العامة، بمن فيهم كبار المدراء، كهذا ــ دعنا نشرب ــ عرض عليه بصدق، وهو ينظر بود في وجه محدثه الثقيل ــ الحق أن لديكم نبيذاً رائعاً ممتازاً! دعني أصب لك، وأطلب أيضاً.

ــ كلا، كلا ــ وأمسك أوشوندوي بيده التي تحمل الزجاجة ــ أنا لم آتك لهذا، إنما جئتك بدافع العمل، أجل إن الكثيرين يعرفونك، فأنت إنسان مشهور، لكن لندع الحديث عن ذلك لمناسبة أخرى. لقد جئتك لأمر آخر، لدينا اليوم مناسبة هامة: حفل عشاء للمانحين الأجانب، الشركة الكندية لاستخراج ذهب أكسو، إنها مسألة دولية، وأقرانهم المحليين في مجال الذهب أيضاً ــ فهم أصحاب الدعوة، أناس كبار، مع حراسهم، وزوجاتهم بالطبع، حفلة... لكن ليس هذا بيت القصيد، لن ألف وأدور، للتو اتصلوا هاتفياً، صدر الأمر بأن لا يتواجد أرسين سامانتشين في الصالة اليوم، ولقد قيل حرفياً «هذا مطلوب».

ــ توقف، توقف! من الذي يوليني هذا الاهتمام؟ ــ ثارت ثائرة أرسين سامانتشين ــ ولمن «هذا مطلوب» وبأي حق.

ــ إنني أقول ما أُمِرْتُ به ــ قاطعه أوشوندوي، دون أن يدخل في التفاصيل، وقد تضرج وجهه ــ أما من يهتم بماذا ــ فهذا ليس من شأني، قيل لي من فوق ــ ثم رفع رأسه باتجاه السقف، المتألق

بالثريات ــ وأنا أنفذ، وهذا يعني أن عليك أن تغادر المطعم بالتي هي أحسن، وبدون أحاديث زائدة، وكلما أسرعت كان ذلك أفضل. هيا انهض الآن على جناح السرعة، وينتهي الأمر وهو المطلوب.

ــ ما المقصود بــ: وهو المطلوب؟ ماذا يعني هذا؟ ــ لم يتلفظ سامانتشين إلا بهذا، ثم سكت، وضغط بقوة على شفتيه الشاحبتين، كان بوسعه بالطبع أن يثير فضيحة بحيث يجعل هذا الأوشوندوي السمج يقف جاحظ العينين، وأن يقلب الطاولة رأساً على عقب، وأن يدفعه من جبهته ويثير ضجة ويعرب عن احتجاجه على الإهانة التي لحقت بشرفه وكرامته، وأن يقوم بالكثير من الأشياء الأخرى للتصدي لمثل هذا التطاول المذل على حقوقه، لكن ليس هذا شغله الشاغل الآن، فبعد أن خطرت بباله فكرة خاطفة كَبَتَ في دخيلته انفجار العواطف، إنما ليس بفضل القدرة الزائدة على ضبط النفس، بل بسبب الإحساس بأنه تلقى الضربة القاضية، وكأن شجرة مقطوعة تداعت أمامه فجأة وزلزلت الأرض تحت قدميه بقرقعة حادة، لأنه أحس بحدسه أن كل ما يكمن في لا وعيه، وكل ما يجب أن يحلم به أحياناً قد تداعى في لحظة، كتلك الشجرة التي فقدت كل مغزى وجودها المستقل، ولقد أثارت فيه هذه الكارثة القاضية فكرة واحدة: «هل يعقل أنها هي؟ هل يعقل أنها لجأت إلى هذا؟» ــ ودون أن يصدق تخمينه الشخصي، ألقى نظرة على الخشبة ــ لكنها لم تكن موجودة هناك بعد؛ بيد أن الأوركسترا راحت، بانتظار ظهورها، تعزف بعض الألحان الخفيفة، وهنا انتشل الهاتف الجوال من جيبه، وبدأ يدق رقمها، كانت أصابعه ترتجف، وكان يخاف أن يرتجف صوته. لم يكن يريد أن يرى أوشوندوي هذا، لكن ليس لديه خيار آخر، ولقد تبين أن هاتفها مغلق، وهذا ما أعلنته هي نفسها، بصوتها المسجل، بعد عدة رنات: «أنا آيدانا ساماروفا، الهاتف مغلق مؤقتاً والاتصال غير ممكن» ــ ومن جديد تردد الرنين الفارغ.

ـــ لا يرد؟ ـــ سأل أوشوندوي، وقد رفع حاجبيه ساخراً.

لم يحر سامانتشين جواباً، ما الذي يقصده أوشوندوي تماماً؟ أهو مجرد افتراض؟ أم أنه مجرد تخمين؟ أم أنه يعرف حقاً؟ لم يحاول أن يخوض في هذا الموضوع، فلم يكن يريد أن يذل نفسه، وإجمالاً فليس هذا بيت القصيد: إن عليه أن يقرر كيف سيتصرف لاحقاً، هل يقف، ينصرف، وينهي الأمر، أم يطالب بالتفسيرات ممن صدر الأمر، ولماذا يبذل هو، مدير المطعم، قصارى جهده، إلى حد أنه تحول عملياً إلى مجرد خادم وضيع؟

ـــ ماذا قررت؟ ـــ جاء صوت أوشوندي اللجوج، هل ستقوم؟ بوسعي أن أرافقك حتى باب الخروج.

ـــ كلا، كلا هذا بالذات لا لزوم له أبداً ـــ رفض أرسين سامانتشين ـــ فأنا أعرف الطريق بنفسي، ثم أغلق الحقيبة بعصبية.

ـــ حسن ليكن! عين العقل. بالمناسبة لا داعي لأن تدفع ثمن العشاء. سنأخذ هذا على عاتقنا ـــ أضاف أوشوندي ـــ.

وهنا انفجر أرسين سامانتشين، كأن هذا ما كان ينتظره، لكي يصب جام غضبه:

ـــ ماذا تقول؟ صرخ في وجه أوشوندي بغضب، وهو ينتقل بشكل استعراضي من مخاطبته بضمير أنتم إلى ضمير أنت ـــ من تحسبني؟ هل جئت إليك من الشارع أطلب صدقة؟ ألا تباً لك! إنني أبصق على مطعمك وعليك أنت نفسك. هيا ناد النادل، ولسوف أدفع حسابي حتى آخر كوبيك، قبل أن أخرج من هنا، هيا انقلع، كفى.

ـ كما تريد، أنت وشأنك لسوف يأتي النادل الآن، ولكن لا تنس ما قيل لك ـ حذره أوشوندي ثم نهض ببطء، وابتعد دون أن يلتفت برقبته القرمزية التي تشبه رقبة الثور.

وهنا ارتكب أرسين سامانتشين خطأً لا يغتفر، حماقة، قللت من قدره مما زاد في الطين بلة، وجعل الفضيحة تتفاقم:

ـ هيه أنت، نادى أوشوندي، وحالما التفت هذا، صرخ في وجهه: لا يخطرن لك ببال أنك طردتني، وانتهى الأمر ! لن أسكت على هذا أبداً. إن لي بدوري ما أستند إليه، فأنا صحفي، صحفي مستقل. تذكر!!

وهنا ثارت ثائرة أوشوندي: وماذا أتذكر؟ ماشاء الله. إنني أبصق عليك. إن النساء بدأن يتجنبنك، وقد انفضضن عنك.

ـ وما شأنك أنت؟

ـ علي أن أقول لك كي تعرف مزبلتك. فالصحفيون الآن كما الخنازير في الزرائب: كما تطعمها، تقبع لك، سواء في الصحف أو التلفزيون. هذا ما كان ينقصني. إن لم تتقلع بعد خمس دقائق، فأنت الجاني على نفسك أيها النذل. إن لدينا القوة. كفى ولا كلمة.

هنا انتزع أوشوندي بكل حزم النظارة عن وجهه، الذي شوهه الغضب، وابتعد دون أن يلتفت على صيحات الصحفي «المستقل».

لو أن أرسين سامانتشين يعرف عواقب هذه الحادثة اللاحقة.

فقد جاء النادل:

ــ عفواً، أرجوك، هاهو ذا حسابك!

أبعد أرسين سامانتشين، الذي كان لا يزال في ذروة غضبه، الصحن مع الحساب جانباً:

ــ في البداية هات لي فودكا.

ــ فودكا؟

أجل فودكا. إن كنت لا تفهم باللغة الروسية، فهات العرق.

ــ سوف أجلبها الآن، وكم تريد؟

ــ كل ما تستطيع حمله، عجِّل.

ــ حاضر.

اندفع النادل صوب البوفيه على عجل، بينما راح أرسين سامانتشين الغاضب يتلفت من حوله. لم يكن ثمة من يوليه أي اهتمام؛ فقد كان المطعم منصرفاً إلى حياته الليلية: كان يغص بالرواد، والشرفة كادت تمتلىء أيضاً، ولا يسمع إلا الكلام والضحك ورنين الأقداح وصخب الازدحام. والموسيقى، المتناغمة مع جو الصالة، والمقترنة بالأشعة الضوئية، التي تجري عبر الجدران، كانت تبث الحيوية في النفوس وتحركها.

وحده كان في هذا الجمع الحاشد غريباً، كان رأسه يدور، وقلبه ينفطر في صدره من شدة التوتر ومن إدراكه أنه لن يتحقق الآن الأمل الذي كان يحدوه اليوم. لو كان بمقدوره أن يعرف بشكل قاطع من يقف وراء هذه المصيبة، هل هي نفسها، هل هي آيدانا، أم أنهم

حُماتُها الجدد؟ وإذا كانت هي، فكيف استطاعت أن تخونه، أن تسلمه للأعداء، أن تسمح لهم بالتدخل في أمورهما الشخصية، فمن تكون بعد هذا؟ يا لها من تافهة! لكن ما الداعي لذلك كله؟ ما الشيء الذي حدث لكي يطرد على هذا النحو؟ نعم هناك أمر ما؛ ولقد حدث ذلك منذ عهد قريب، حين طرأ على علاقتهما انقطاع هو الأطول من نوعه في الآونة الأخيرة، حين بدأت تتهرب من اللقاء به. حينها جاء إلى هنا، ووقف قرب الحلبة مباشرة، وحقيبته لا تفارق يديه، وأمضى السهرة كلها، وهو لا يرفع نظره عنها. كان بوده أن يصرخ بها: هيه، أيتها الآلهة الملفلفة بالورق المفضض هل يعقل أنك دفنت العروس الخالدة حتى قبل أن تولد على الخشبة في شخصك؟ أيعقل أنك بعتها لقاء الرقص في المطاعم؟ أم أنك جننت؟

كان يشعر أن لديه الكثير مما يجعل قلبه ينفطر. لكنه لم ينبس ببنت شفة واكتفى بالوقوف والنظر، وفي الحقيبة، أسيرة الصمت، كان يرقد المؤلف العظيم الشأن، وهذا ما كان على قناعة تامة به إنه المخطوط الذي ينتظر ساعته. لكن متى ستدق هذه الساعة؟ ومن يهتم بذلك؟ وحدها فقط... أما الموسيقى فكانت كما هو مفترض، تصخب على الحلبة، وتتماوج على قرع الطبل، وكانت المغنية تشدو بأغنيتها، وتقوم بالحركات الإباحية فتثير عاصفة من الهياج الجنسي الجماعي بين الجمهور، الذي يصفق لها ويزعق بحماسة، وهو يلتهمها بعيونه النهمة، بينما هو يتعذب، وهو يقف قرب الحلبة، ينظر إليها، وهي تعمل بصوتها وجسدها، تعمل جاهدة بالأجرة، على أنغام هذه الموسيقى، التي لا تساوي شروى نقير. ولمرات عدّة التقت نظراتهما، كما البرق في تلك العاصفة من الجنون فلقد كانت تدرك الأمور على حقيقتها. وهاهو ذا الآن من جديد؛ لقد بدأ الأمر نفسه، لكنهم هذه المرة يطردونه من القاعة هو وحقيبته إياها ومؤلفه العظيم إياه.. وما عليه إلا أن يرضخ.

عاد النادل، وقد جلب زجاجة الفودكا على صينية.

ـ تفضل. هل أصب لك؟ هل أصب في القدح، أم الكأس؟

ـ في الكأس.

ـ كم؟

ـ املأه.

وكمن يدلق في الهوة المتأججة دلق أرسين في داخله كأساً طافحاً بالفودكا. وراح يلهث، كان يريد أن يحرق نفسه.

ـ كم الحساب؟ ـ سأل بصرامة، وتفحص ورقة الحساب، وبالصرامة نفسها (قرشاً قرشاً) دفع الحساب، مما أثار دهشة النادل، ثم ابتعد بصمت، محاولاً أن لا يظهر كم كلفه هذا التماسك من جهد، بعد كأس الفودكا، فقد قوم كتفيه الصلبتين، وأبرز رقبته المعروقة.

ومن غرفة المشجب أخذ قبعته، وبالمظهر الصارم نفسه، وضعها على رأسه، كان يحب السير في القبعة صيفاً وشتاءً، وليس عبثاً أن آيدانا أطلقت عليه لقب «القبعجي»، ولدى خروجه سمع صوتها، صوت آيدانا سماروفا، يتردد من على الحلبة. وضج المطعم كله بالتصفيق، فقد تحقق المنشود، بعد طول انتظار، وظهرت الحورية. وترددت هتافات الفرح الأولى: «آيْ ـ دا ـ نا»! «آي ـ دا ـ نا» لكن أرسين سامانتشين لم يلتفت، بل اكتفى بإبطاء الخطو، واستطاع وهو الذي بصعوبة يتغلب على سكرته، أن يقول في سريرته: هاك تمتع، إنها وسيلة إيضاح حية ـ ذروة الإعلان والموضة؛ ومن أجل هذا التأثير تدور المرافق كلها ويجري السباق من أجل البقاء، أما

المجد والشهرة فكل هذا ضروري في خاتمة المطاف من أجل أن تتدفق النقود وتتساقط تَساقُطَ الورق في فصل الخريف، حتى أنه غمغم ساخراً:

«الحياة بلا نقود رديئة، لا جدوى منها، يا ليل، يا عين، يا ليل». كان يرغب في أن يضرب الأرض بقدمه ساخطاً، كان يريد أن يصرخ بملء حنجرته، أن يشرع في الرقص، لكنه تمالك نفسه، وهنا شعر برغبة في أن يبكي، ويندب فتسمع السماء وتختنق.

لقد أوشكت النهاية، وعليه أن يختفي في مكان ما لكي لا يقترف شيئاً ما رهيباً. يجب أن يبتعد على جناح السرعة، قبل أن يسبق السيف العذل، أن يختفي إلى الأبد.

«أن تحب وتقتل! هل هذا معقول؟ كل هذا لأنك سكران! كلا ليس لأنني سكران ـ رد على نفسه بنفسه، وقد اقشعر بدنه من الفكرة نفسها... أن تحب وتقتل...».

كان يبتعد وهو يقول بينه وبين نفسه: حتى في القبر لن أنسى، لن أسامح...

الفصل الثالث

لُكلٍّ ما كُتِبَ له. هكذا بالضبط لكل ما قُدِّرَ له وهذا ما كان دائماً، وليس بمقدور أحد أن يحيد عنه.. فبانتظار القدر تقبل الأيام وتدبر، لكن الانتظار يبقى حتى اليوم الأخير، حتى الساعة الأخيرة، ولسوف يبقى هذا أبداً.

لكن هاهي ذي الريح تهب من جديد، من جهة ما ــ إنه القدر قد تذكر في طوافه، فأسرع في تلك الساعة ليرى كل شيء في كل مكان. كل ما عليه أن يرى في العالم القائم، وفي سرائر الناس وأفكارهم وتصرفاتهم. ومن جديد انكب القدر على أموره العاجلة، وكما هي العادة فقد وضع نصب عينيه أهدافاً بعيدة، وهو يعد في الوقت نفسه المصادفات المفاجئة، التي حددت مسبقاً بشكل مفاجيء أيضاً، مصير وطريق أولئك الذين كتب عليهم أن يعرفوا عملياً سطوة القدر الغاشم، وأن لا يكفوا، وهم يتابعون حياتهم عن سؤال السماء بشكل لا إرادي، الأسئلة نفسها: ما الذي سيحدث؟ لماذا؟ وما العمل؟...

لكن السماء لا تسمع الهمس ولا الصراخ.

حتى الوحش الضاري في الجبال، حتى هذا بدوره يتوجه بزئيره إلى السماء، ويرهق القمر، فيختبئ القمر منه خلف السحب تارة، ووراء الذرى الثلجية تارة أخرى، لكن القدر الذي يجوس في كل مكان، لم

ينسه هو أيضاً. وقد أعد له، لهذا الوحش الجبلي شيئاً... بعد الهزيمة التي مني بها في المعركة من أجل الأنثى، بدأ النمر المنبوذ وقد فقد حق المشاركة في استمرار حياة بني جلدته، يعيش حياة قاسية، ومما زاد في الطين بلة أنه ظل يقاوم غريزياً، ولم يرضخ بعد نهائياً، وكان لا يزال يتعطش لاستعادة قواه السالفة، وغاضباً من كل شيء، وراغباً، كما في الأيام الخوالي، أن يتودد إلى إحدى الإناث، لكنهن كن جميعهن «ذوات أصحاب»، ولم تلق دوافعه أي استجابة، وكان يصدف أن ينقض على خصمه لكي يخنقه، أو فقط من أجل أن يثبت وجوده، لكن الاشتباك عادة ما كان ينتهي بالتعادل.

عبثية كانت أوهامه: ففي الواقع لم يعد يلحظه أحد من أفراد القبيلة، فكأنه غير موجود أبداً، واضطر للبقاء جانباً، على هامش تجمعات بني جلدته، الذين يتوافدون عندما تكون الفريسة كبيرة، ولم يكن ضبط النفس بالأمر السهل. بل كان لابد من التحلي بقدر كبير من الصبر، والحفاظ على الهدوء المتوتر إلى درجة التشنج، بانتظار بقايا الطريدة التي يلتهمها الآخرون، ذلكم هو نصيبه المحزن الآن، على الرغم من أنه كان يبدو ــ من حيث مظهره ــ لا يزال محافظاً على قوته ــ برأسه الضخم، ذي العينين، اللتين تتوهجان تحت جبينه، وبذيل غالباً ما يكون هادئاً، ملتوياً بلطف، مما يدل على أن جابارس لا يزال قادراً على السيطرة على نفسه عند اللزوم.

لكن القبيلة لم تكن تهتم بذلك أبداً. وحدها الأزواج الفصلية من الوحوش كانت تلقي عليه نظرات حانقة، ثم تتجنبه، وكأنه مذنب في شيء، أما أنثاه السابقة فقد أنكرته تماماً؛ حيث رفعت ذيلها بوقاحة متحدية، أثناء مرورها به، وهي ملتصقة بصاحبها الجديد، الذي لا يقل عنها وقاحة، كأن جابارس مجرد ظل. كانت مثل هذه الإهانة من نصيبه وهو الذي كان حتى عهد قريب قائد بني جلدته، سكان

مرتفعات وشعاب بريتان ــ شان المثلجة أبداً ولقد راح، بعد أن فارق حياة القطيع، يصطاد كل ما هب ودب من المخلوقات التافهة من الغريرات وفئران الحقول والأرانب أحياناً.

صحيح أنه لم يكن إجمالاً يعاني كثيراً من الجوع، وإن لم يكن بالطبع ينعم بالشبع، كما في الأيام الخوالي، من لحوم الكباش البرية، التي كان يصطادها يومياً تقريباً. هكذا بدأت الأمور تتراجع، حتى الحظ نفسه أدار له ظهره.

لكن إرادة المقاومة لم تنضب لديه، ولم يرضخ بعد أن أصبح عملياً، طريداً، مضطراً للعيش راكعاً، فعلى الرغم من كل شيء كان يصطخب في داخله التمرد العفوي على الواقع الكريه، وفي عمق أعماقه الوحشية كان يتفاقم الرفض، وتنضج ــ رغم أنف كل شيء ــ قوة داخلية لا تقهر، تأمره بأن يغادر على جناح السرعة هذه الأماكن، وهذه الجبال والشعاب، التي لم تعد تجر عليه إلا الشقاء وأن يختفي إلى الأبد، بلا عودة، أن يرحل إلى العالم الآخر، الذي لا يقع على مسافة قريبة، يمكن قطعها بسهولة، بل خلف السلسلة الجبلية، خلف السلسلة الكبرى، الملامسة للسماء، المغطاة قممها بالثلوج الأبدية.

إن عليه أن ينطلق إلى هناك، إلى الحدود غير المأهولة، إلى الذروة الشاهقة التي لا يمكن الوصول إليها إلا نادراً، فقط في فصل الصيف، ولأيام معدودة فقط، والواقعة بين قمم أوزينغيليش ــ ستريمياني، العصية حتى على الطيور، ذات التحليق العالي. إلى هنا كانت القوة تهيب بجابارس، تلك القوة التي كانت تدفع من الداخل بإصرار إلى هنا كانت تشده الحسرة الجامحة. لقد سبق له في الأزمنة الغابرة أن

وصل إلى هناك لقضاء فترة الصيف، لكن ها هنا بالذات تكمن مأساته ــ في عجزه عن بلوغ ما كان في السابق في متناول يديه..

كان الطريق إلى القمة، حاداً صخرياً، يمر عبر الثلوج العالية، التي لا تذوب أبداً، ويختفي وراء الغيوم والسحب، التي تزحف على القمة، وتتلاشى من خلفها، والتي تنحدر على السفوح، تدفعها الرياح عبر الجبال، كما قطعان الرعاة.. كل هذا كان قريباً..

كل هذا راح جابارس يراقبه، وهو يتوقف، ويتلفت، ويراوح في مكانه، ويقدر كم بقي عليه أن يتابع السير عبر الكثبان، كان يسير وهو يخوض في أكوام الثلج، ويغرق فيها حتى حنجرته، ثم يزحف من جديد، وهو يتثبت ببراثن قوائمه الأربع، كان يزحف وقد ألصق كل جسمه بالبساط الجليدي من الصخور، لكن تنفسه خانه هنا، كأنه يتابع بجنون مطاردة الفريسة، فكانت دقات قلبه الصاخبة تتردد قوية في أذنيه، والشيء الأفظع، ظهور نوبة الاختناق الثقيلة التي أسقطته أرضاً، وقذفت به إلى الوراء. فتداعى العالم المحيط به في رؤى متلألئة، ولم يعد لديه من القوة ما يكفي للتقدم، راح يهر، ويزأر مختنقاً، لكنه لم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة.. لو أنه كان لا يزال قوياً، كما في الزمن الغابر إذن لاستطاع في ساعة وأخرى أن يجتاز سلسلة أوزينغيليش ــ ستريمياني، والوصول أخيراً إلى ذاك العالم الآخر، للإقامة في الفردوس السماوي.. ولو استطاع ذلك إذن لجاء في هذه المرة على ألا يعود، لكي يبقى هنا دائماً، حتى النفس الأخير، حتى اللحظة الأخيرة من حياته.

هكذا على مشارف السلسلة الشاهقة، المزنرة بالقمم العالية، التي لا سبيل للوصول إليها، خانت جابارس قواه، وراح يهز رأسه يائساً، ويحفر التربة الصخرية المتجمدة بأظلافه؛ ولو أن الطبيعة وهبته

القدرة على البكاء، إذن لأجهش بالبكاء، بصوت يزلزل الجبال المحيطة. أكثر من مرة حاول جابارس التغلب على الجبل، لكن محاولاته باءت بالفشل.. وفي إحدى المرّات، وبينما كان يعاني من الاختناق، مر بجواره تماماً قرابةعشرة كباش جبلية، وهي تتقافز في سيرها، كأن الوحش الضاري لم يكن موجوداً أبداً، وكانت هي قد رأته، أما هو فقد تظاهر بأنه لا يهتم بها، وهي التي خصتها الطبيعة بأن تكون الفريسة الأولى لنمور الجبال الرقط.. إيه أيتها الجبال، هل يمكن لهذا أن يحدث؟ لكن الجبال صامتة. إيه أيتها السماء، هل يمكن لهذا أن يحدث؟ وبدورها كانت السماء العالية صامتة.

فراح جابارس يزأر من فرط السأم.

علماً أن كل شيء كان على ما يرام في الزمن الغابر، حين كان يقفز بلا توقف من فوق الشلال العالي، الذي كان من شأنه، أن يجرف أياً كان إلى الهوة، ويحطمه على الصخور أشلاء متناثرة، ولقد كان هو، جابارس، آنذاك من القوة والمهارة إلى حد لم يكن يخشى معه شيئاً ــ لا الهُوى ولا الأجراف، وكانت الزوابع تحتضنه بحنان الأم الرؤوم، ومن الجبال تهيب به الربة: «اقترب مني يا جابارس اقترب». فكان يندفع ملبياً نداءها، لكنها كانت تختفي، ويتناهى إليه صوتها من الجهة الأخرى: «اقترب مني يا جابارس اقترب» ومن جديد ينطلق، يطير بسرعة السهم.. ففي تلك الآونة، حين كان العالم كله ملكاً له، لم يكن يجد أية صعوبة في الفوز، في المطاردة واللحاق بفريسته، وكان النجاح من نصيبه دائماً، فالعالم من حوله كان عالمه.

والآن، وهو يتعذب، يتقلب، يتذلل أمام هذه العقبة الكأداء، راح يتذكر تلك الأيام الغابرة بشوق وألم. كان الوقت وقت الظهيرة،

والظهيرات تحل من يوم إلى يوم، لكن تلك كانت ظهيرة صيفية لا تنسى..

والصيف أيضاً لا ينسى..

إن الشمس على هذا الارتفاع، والنهار صاف، والسماء خالية من الغيوم، لا تحرق، ولا تلسع ولا تدفع للاحتماء في الظل، كما هو الحال في المنخفضات، بل ترسل أشعتها البديعة المطلقة، فتغمر العالم الجبلي بضوئها، وتتحول إلى طاقة حية، وتحنو على كل ما يعيش ويتنفس على الأرض ــ بدءاً من العشبة البسيطة وحتى أسراب الطيور، التي تدور فوق القمم الجبلية، والتي تأتي بدورها إلى هنا لقضاء فترة الصيف. وفي هذه الساعة يتمتع كل كائن حي بخيرات الوجود تحت الشمس..

ما أشبه هذه الظهيرة بتلك، حين كانا هو وهي ينطلقان حُرَّين عبر هضبة أوزينغيليش ــ ستريمياني وقد أثارتهما الشمس وعظمة الجبال، كانا ينطلقان عدْواً من أجل العدو، لكي يشبعا من بعضهما، وكانا قد وصلا إلى هنا البارحة. سارا النهار بطوله، يشقان طريقهما عبر الجبال، دون أن يبطئا في السير لحظة، لكي يصلا قبل هبوط الليل، ولكي لا تطمرهما الزوبعة. ولقد تمكن جابارس وصديقته النمرة الرقطاء من بلوغ الهدف المنشود قبل المغيب، وقبل أن يلملم النهار أذياله، ولقد كان الأمر يستحق هذا العناء.

في ذلك اليوم أسبغت عليهما الطبيعة، التي هبت للقائهما، تلبية لنداء الغريزة، كل أنعامها، فلم يكد الوحشان يلتقطان أنفاسهما، وينفضان غبار السفر، ويتفحصان ما حولهما بحثاً عن مكان المبيت، حتى رأيا على مسافة قريبة منهما، قطيعاً من الماعز الجبلي، حوالي العشرة

رؤوس، كانت هي الأخرى قد اجتازت السلسلة الجبلية ووصلت إلى المروج، إلى المراعي العشبية والينابيع التي تكاد تلامس قبة السماء. لكن عاقبة هذا الاجتياز، الذي ذاقت خلاله الأمرين هي الأخرى جاءت نقمة بالنسبة لها، ونعمة للوحشين، فللحال شن النمران الهجوم عليها، ولم يكن اللحاق بالفريسة أمراً بالغ الصعوبة: إذ في أعقاب الاجتياز كانت الماعز منهكة تماماً وهكذا فقد جندل الوحشان إحداها على الفور، بينما فرت الأخريات.. ولقد جاء الشبع الهادىء من اللحم الطري ليلاً، في مكانه تماماً، لذيذاً، كافياً ورحراحاً، حتى النجوم في السماء بدت وكأنها تعرف ذلك ـــ إذ كانت هي الأخرى تتلألأ بهدوء وحنان فوق رأسيهما وفوق الجبال.

في الصباح شرعت الشمس تسبح عبر قبة السماء الصافية والقمم الشاهقة الراسية والرشيقة، وهي تتألق كلما ازدادت معالمها وضوحاً.

كان جابارس وشريكته قد نهضا، ولم يكونا يبحثان، على عادتهما عن فريسة سهلة، بقدر ما كانا يتنزهان عبر الأجمات والأعشاب العذراء، وهما يتمتعان بالهواء الجبلي. ومع اقتراب الظهيرة، وحين توسطت الشمس كبد السماء، انطلقا على شكل قفزات في البداية، ومن ثم في جري طويل.. كأن قوة الشمس نفسها تقود وتلهم هذين الوحشين الجبليين، وتهبهما الجمال الفريد والقوة، لكي يدركا في تلك الساعة جوهر وجودهما المشترك، إنه الاحتفال بانسجامها.

كانا يجريان، لا يقيدهما شيء، جنباً إلى جنب، وفي تلك الساعة لم يعد يوجد في العالم من شيء بالنسبة لهما، باستثناء الشمس والجبال.. لم يكونا بحاجة إلى أية فريسة، حتى ولو التقيا بها في طريقهما.. كانا يتشبعان من الشمس، ويلتهمان في جريهما، ضوءها ودفئها، فيزدادان

قوة، دون أن يشعرا بالتعب، وهما في قمة التمتع بالحياة، هذا ما كان...

وراحت الأرض تدور في أرجوحة الكون، وكان كل ما عليها من كائنات في حالة دوران أبدي، لا تراه العين.

واندفع جابارس مع رفيقته وسط الأنساق الجبلية والوديان المشعشعة بالضوء، بينما الشمس تهدهدهما من سمت الظهيرة، وتدعوهما إليها، وتجذبهما نحو الطيور في السماء لأنهما شكلا في تلك الساعة زوجاً من الملائكة من قبيلة الوحوش الضارية..

حتى الوحوش يمكن أن تكون ملائكة. هذا ما كان...

لم تلبث أيام الصيف الرغيدة أن ولّت، وانتهى فصل الإقامة عند قبة السماء، وكشف العالم المحلي عن وجهه الآخر المختلف تماماً. فجأةً هبت من الذرى الشاهقة العواصف، التي اهتاجت في ساعة واحدة، واندفعت عبر السفوح محملة بالبرد القارس، والزوابع الخانقة، وتلبدت السماء بظلمة قاتمة. حينها اندفع النمران في طريق العودة يجريان بأقصى سرعة، بينما بقيت المخلوقات الأخرى هناك مطمورة تحت الانزلاقات الثلجية، حتى الطيور التي أصيبت بالعمى، وهي في السماء، راحت تتساقط من الأعالي، تساقط الأحجار المتجمدة، هذا ما كان..

إلى هناك، إلى أحضان السماء الجبلية، كان يحاول جابارس الوصول الآن، لكن عبثاً. كان يريد أن يمثل أمام الشمس الساحرة، وحيداً هذه المرة، ليبقى بانتظار ساعته الأخيرة، ليختفي إلى الأبد. هناك فقط على هذا النحو، وليس على نحو آخر أبداً، كان هذا الوحش الطريد، يريد أن يلقى منيته.

لكن الطريق غير سالك.. كان الطريق مغلقاً أمامه. في هذه الجبال، التي بدت عصية عليه، راح جابارس يزأر، يهر ويتسلق، وهو يكاد يختنق، هذه الأجراف الحادة، وكلما سقط، نهض على قوائمه المترنحة.

لكن لماذا ضنَّ القدر على النمر بمثل هذا النذر اليسير؟ فكل ماكان يصبو إليه هو اجتياز هذه القمة والضياع هناك، والبقاء إلى الأبد..

أيعقل أنه كان لدى القدر سبب خاص؟ وهل يعقل أن القدر كان بحاجة إليه؟ وهنا بالذات على مشارف قمة أوزينغيليش ـــ ستريمياني؟ تُرى ما الذي كان يدور في خلد القدر؟

الفصل الرابع

قبل يومين كان يدبج مقالة يرد فيها على أحد القراء، الذي أعلن بحماسة: «ما أهمية الروح؟ يمكن أن تنسب إليها كل ما يحلو لك.. لكن الإرادة والوعي هما الشيء المهم في الإنسان». لا خلاف على ذلك. لكن لايجوز أبداً استبعاد أهمية ما يجري في الروح، ولو كنا لا نحسب لهذه الأهمية أي حساب. فغالباً ما تصبح الدوافع الروحية عاملاً حاسماً حتى في الأحداث التاريخية. إن الروح هي منبع الخير والشر بشكلهما الجنيني والروح هي مصدر غذاء اللاوعي. كان يحب أن يتفلسف أحياناً على هذا النحو، كلما سنحت الفرصة. لكن الوقت الآن لم يكن مناسباً للتفلسف. حتى أن أرسين سامانتشين لم يلمس الكومبيوتر في تلك الأمسية، ولم يخطر بباله أنه لن يتمكن أبداً من إنجاز تلك المقالة الهامة، ذات المغزى العميق، ثم إنه لم يفتح الموسيقى، التي غالباً ما كان يستمع إليها مساءً، ولم يخطر بباله أيضاً أنه لن يتمكن من الاستماع إليها في أوقات فراغه بعد الآن أبداً.

فيما بعد، بعد ذلك الذي جرى له في المطعم الاستعراضي اللعين «يوروآسيا» تأجج في روحه حريق لا يبقي ولا يذر. لقد شعر بقلبه ينفطر، لا يعرف كيف يتمالك نفسه، وهو يغرق. ومن جديد يندفع في

لجة العذابات والغضب، التي غمرته، وكان قد دنا مرات عدة من النافذة اليتيمة في مسكنه، مسكن العذاب حيث لا يفهم شيئاً مما يجري، والغريب أنه راح يفكر الآن بنفسه بضمير الغائب، كأنما أصبح غريبا على ذاته.

كان يقف، وهو يطلق التنهدات، يهز رأسه ويشد ربطة عنقه، التي لم ينزعها بعد عودته من المطعم، ولا يكف يمعن النظر في الفضاء القاتم. ففي البناء المواجه، والشبيه بالبناء، الذي يقطن، من حيث كثرة الشقق وتعدد الطوابق وضخامته ولونه الرمادي، كانت كل النوافذ مطفأة، وحتى لو كانت منارة ــ فما الفائدة؟ من مِنَ جيرانه يمكن أن يهتم بهذا الشخص الذي يعيش في الطابق السابع من الجناح الثالث، والواقف الآن في النافذة، تحت وطأة أفكاره اليائسة.

ما جدوى الأنين والتذمر، عبثاً؟ على من بوسعه أن يصب اللوم، ومن يمكن أن يخيف؟ فالنقاط على الحروف قد وضعت. فحين أوصله سائق التاكسي إلى هنا، إلى ساحة الأبنية الكئيبة ذات الطوابق السبعة، توقفت بجواره سيارة أجنبية، ظلت تتعقب السيارة التي أقلته طوال الطريق، وهي ترسل أضواءها الباهرة التي آلمت عينيه، وجعلتهما عمياوين.

وبينما كان أرسين سامانتشين يخرج من السيارة، وهو لم يستعد قدرته التامة على الرؤية، نزل من السيارة الأجنبية رجلان مديدا القامة، واقتربا منه. وكان تصرفهما يدل على أنهما قد أرسلا لكي يخيفاه ويهيناه، أو حتى لكي يوسعاه ضرباً، لكن أول ما قاما به أنهما طردا سائق التاكسي بعيداً بقولهما: «اسمع، هيا انقلع من هنا».

أما أرسين سامانتشين فقد حصراه بالجدار:

ـ طيب، أيها البالغ الاحترام، هل وصلت إلى عرزالك؟ تنحشر في هذا المكان الحقير ومع هذا ترتدي القبعة!

وقبل أن يتمكن أرسين سامانتشين من أن يجاوب بشيء، عمد أحدهما بحركة حادة إلى شد قبعته نحو الأسفل، حتى كادت تغطي عينيه وهو يقول: ـ حاذر أن تدس أنفك في ما لا يعنيك، ولما كنت تدبج مقالاتك بالجملة فإنك ستدفع الثمن غالياً. إن ثمنك طلقة واحدة. هل فهمت أيها الحقير؟ فقط جرب أن تعود فتكتب ما لا يجوز، وإلا نسيت الأبجدية، آه منك أيها التافه إنك سكران، كمن شرب في البازار. انقلع من هنا وتذكر: إطوِ ذيلك، قبل أن يفوت الوقت.

بعد أن تركاه، انطلقت بهما السيارة بسرعة كبيرة تمنى حينها لو كان بمقدوره أن يرميهما بحجر... لكن من أين له.

كان الوضع لا يطاق، واضطر إلى السير صامتاً عبر الضوء الخافت نحو المدخل. الشيء الوحيد الذي استطاع القيام به هو تسوية القبعة.

أما الآن فهو يتعذب، كما الشاب الغر: ما العمل، ماذا يفعل؟ وكيف يعيش مستقبلاً، وإلى أين يذهب؟ ما الذي يجري له؟ وكم مر عليه...

فلقد كان متزوجاً وأقيم له في عرسه احتفالاً. لكن النسيان طوى كل شيء. وراح الأهل يلاحقونه: ما دام الأمر لم ينجح في المرة الأولى، فلما لا يتكرر ثانية؟ تصرف. أجل لم يعمر ذلك القران طويلاً. للأسف، من المستحيل التحول إلى إنسان آخر. وها قد افترقا، انفصلا، تحرر أحدهما من الآخر. لقد صدق من قال عن الحب: إن الفجر يتلألأ مرة واحدة، وما من فجر يتلألأ إلى الأبد، لكن أحداً لا يرضخ لذلك، ويطالب لنفسه بفجر أبدي لا يخبو... لكن ما لنا وله.

سواء أكان فجراً أم غير فجر، فقد افترقا، وكأنهما لم يعرفا بعضهما، وها هو للعام الثالث يعيش بعد أن انتقل إلى هذه الضاحية السكنية. بالطبع ليس بالأمر السهل أن تستطيع المرأة الطبيعية العيش مع شخص مثله، ولم تنجب له أحداً، إذ لم يكن الوقت كافياً، وراح الأهل يلومونه، لكن من المذنب في ذلك؟ كان همها الوحيد أن تكسب أكبر قدر من النقود.

ومن البديهي أنها لم تتمكن معه، وهو الملتزم، من كسب شيء، فهو حامل أفكار مجنون، إذا جاز القول. إن الفكرة عنده هي أسمى ما في الكون، وهو في منتهى المثالية، أضف إلى هذا أنه «خريج المنابر»، كما لقبته الصحفية الإنكليزية، التي جاءت إلى آسيا الوسطى لإعداد دراسة تحليلية عن المنطقة، وبعد أن تحدثا طويلاً عن كيت وكيت، قالت له الصحفية الإنكليزية:

ـ إنك يا سيد سامانتشين تشبه إلى حد ما المتحدرين من أصحاب المنابر، الواثقين جداً من استثنائية أفكارهم، وأنت بدورك عين ساهرة على فكرتك، تتشبث بها، ولا تتخلى عنها.

ـ شكراً. لا أنكر أنني سعيد بسماع هذا. لكن الأصح هو أنني «متحدر جبلي»، ففي الجبال ترعرعت، ولابد للمرء في الجبال من التحلي بالتركيز، وأن لا يغفل عن أي شيء، كي لا يتعثر على شفا الهاوية.

ـ إذن فالجبال هي منبرك، وإجمالاً ـ أضافت الإنكليزية، وهي تبتسم ـ فإن الجبال تتراءى في البعيد.

ـ هذا شيء طبيعي، فنحن بلد جبلي. لكن تلك الجبال، مسقط رأسي، هي الأبعد والأعلى، ولذا فهي تسمى أوزينغيليش ـ ستريمياني، أي قمم ـ الصهوات الشاهقة..

ـ جميل، تعجبني هذه الصورة كثيراً، وتعني بالإنكليزية (الركاب stirrup) وهكذا يمكن أن نطلق على جبالكم بالإنكليزية اسم جبال الركاب.

ـ شيء رائع، أما باللغة القرغيزية فهو، ستير أب (جبال الصهوات)، لسوف يشعر بنو جلدتي بالفخر، أما أنا فلا أعارض أن أكون متحدراً منبرياً، وليس جبلياً فقط، فالمنابر تدرس الأفكار الشاملة، العولمية.

ـ إذن فأنا لم أخطئ، شكراً، من الممتع جداً أن يشاطرك الحديث زميل يفهمك في الحال.

والآن تذكر أرسين سامانتشين، وهو يقف لدى النافذة، وينظر شارداً إلى الظلمة في الخارج، تذكر ذلك الحديث، وخطر له: وهكذا أيها «المتحدر المنبري» المحترم، لقد حصلت اليوم على درس «حلو» آخر من دروس الحياة، تذوقته بالعسل؟ مرحى. هل أدركت أخيراً. ليس بوسع أي منبر أن يصمد في وجه جبروت السوق، فها قد طردوك بقضيب السوق، وأهانوك، وهددوك بتحطيم وجهك، حتى الحب يعرضونه في السوق كسلعة. أما أنت فإنك لم تدرك ذلك إلا الآن، وهذا يعني أنك لست صالحاً لعصر(البيزنيس)، وتلك عاقبة شخصية على ما يسمى بـ الواقعية الاشتراكية. وما جدواك أيها المتحدر«الستير أبي»، كان ذووك يرفعون الرأس بك، خاصة في سنوات البيرسترويكا. أما الآن فسوف يهدأون، طيب وما العمل الآن،

وماذا ستفعل؟ إنسَ، إنسَ هذه«العروس الخالدة». من يحتاج إليها؟ إن عصر«البوب» يحطمها، نحن في عصر«البوب»، أما أنت فإما أن تخضع بخنوع وإما أن تختفي بلا وداع، ومع هذا فما العمل؟ السفر إلى موسكو، حيث يوجد الأصحاب، الذين يُركن إليهم. لكن هناك أيضاً بلغ «البوب» ذروته، وباختصار فإن أمامك نفقاً لا نهاية له.. هل خطر ببالك منذ عامين مضيا أن كل شيء سيظلم على هذا النحو؟ لسوف أكتب رسالة وداع لها ولأخيها..

لفترة طويلة استمرت هذه الأفكار تعذبه، وهو في النافذة، بعد ذلك ــ ودون أن يتذكر هو نفسه كيف حدث ذلك ــ غلبه سلطان الكرى، ونام في صمت مطبق، والغريب أنه لا جرس الهاتف الخليوي ولا الثابت ترددا في تلك الليلة، فعادة تظل الاتصالات الهاتفية تلاحقه حتى منتصف الليل، وهذا شيء طبيعي عند أرسين سامانتشين، الصحفي المستقل، المعروف بالمستقيم ــ تلك هي ضريبة حرية التعبير.

كانت الشكاوى تتوالى بأعداد لا تحصى، وقد استطاع حل بعضها من خلال الإعلام، لكنه فشل في حل بعضها الآخر، فهو ليس بالمحامي، بل مجرد فلاح من أسرة وسائل الإعلام الجماهيري. وأية حيل لم تلجأ إليها الشخصيات البارزة، لكي يمرروا مصالحهم عبر الإعلام، لكي «يتبروظو» أمام الجمهور، وهم يتعطشون للنصر والشهرة الذائعة الصيت، مطالبين بأن يرد على نباح خصومهم...

واليوم لم يتردد صوت واحد، شيء غير معقول، اللهم إلا إذا كانوا قد عرفوا بتحطمه.. اللهم إلا إذا كانوا قد أحسوا، بغريزتهم الوحشية، أن لا جدوى من الاستعانة به، بعد أن مُنِيَ بمثل هذا الفشل الذريع، لمجرد محاولته تذكير المغنية ــ المطربة، التي كانت في وقت من

الأوقات ربة المسرح الأوبرا لي، والتي هي الآن «يافطة منوعات» تطالعك على كل ناصية، تذكيرها ليس بنفسه، بقدر ما هو بالفكرة المشتركة، التي ظلت تراودهما حتى وقت قريب ـ حول الأوبرا، التي خططا لها سوية. وكما يتضح الآن فهي أوبرا طوباوية. فجأة قطعت اتصالاتها، كأن أحداً ما قد سحرها، وأصبح الوصول إليها بعيد المنال، وسط حراسها. وفي النهاية كان الله معها، لكن ما العمل الآن مع الملحن؟ هل ينهي الموضوع؟ إن الملحنين، أمثال هذا المايسترو الذي ألف هذه الأوبرا الكلاسيكية من أجلها، نادرون الآن.

كيف يفسر للملحن أبلايف، الإنسان الذي يتمتع بالاحترام الكبير في الوسط الموسيقي، والذي تبنى عن قناعة فكرة «العروس الخالدة»، وحرر العقد مع المتعهد، الذي لم يكن بالأمر السهل إقناعه بمثل هذه الرعاية النادرة للفن؟ كيف يفسر لهما حادثة المطعم الغريبة؟ يا للعار! فقد أخرجه الحراس إلى الزقاق، ودفعوه إلى داخل التاكسي، وهم يهددونه بقبضاتهم، أما السائق فقالوا له: «اسمع أيها العجوز، انقل هذا النموذج، فقد أفرط في الشراب... ولا تتوقف في أي مكان إلى ضاحية أورتوساي مباشرة..» ولم يكتفوا بهذا، بل دسوا له النقود.

على هذا النحو «رحّلوا» أرسين سامانتشين.

وكان أسوأ ما في الأمر حين رأى نفسه فجأة في أثناء الخروج من المطعم، بكامل قامته في المرآة المتلألئة، فكاد أن يصرخ من فرط الدهشة. كم بدا آنذاك محطماً، ذليلاً ومهاناً، ثم هذه القبعة الحمقاء الكلاسيكية، الدارجة كما يزعم. فجأةً أصبح طريداً محتقراً، يُطْرد عنوة من أحد الأماكن العامة. وبدلاً من أن يدافع عن كرامته، إذا به يبتعد بخنوع، تاركاً لهذه المرآة الفاخرة، أن تسجل هذه الواقعة على

صفحتها. أين اختفت أناقته، جاذبيته ووقاره؟ فليس من باب المصادفة أن كان يلقب بالمستقيم والمستقل، إذ، حقاً كان، إما لحسن حظه، أولسوئه، واحداً من الصحفيين، الذين يتمتعون بالاكتفاء الذاتي والاستقلال، وهؤلاء ندرة في وسائل الإعلام الجماهيري الآسيوية، أما هي، آيدانا، آيْداهُ، كما كان يناديها تحبباً، فكان يصدف أن تهمس في أذنه: «إيه يا مستقيمي» وأنا بدوري أريد أن أكون مستقيمة، وسوف نشكل أنا وأنت زوجاً من الاستقامة. لكن ما الذي حدث! لقد جرت الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد رفضته نخبة رجال الأعمال، وطردته، أما هي فقد انتقلت بكتفيها العاريتين إلى جنة« البيزنيس». ومن يرفض أن يدخل الجنة؟ صحيح لا تتسع الجنة للجميع، لكن الحظ حالفها هي.

لو كانت مفاتيح الجنة لديه، إذن لفتح لها الباب، لكن المفاتيح ليست لديه. والآن إلى أين يذهب مع الفكرة التي سيطرت عليه حول أوبرا«العروس الخالدة»، التي وضعت منذ البداية من أجلها، لصوتها الميتسوسوبرانو[1]، الذي يخلب الألباب؟ وفي أية حفرة يرمي مشكلة المسرح الأوبرالي المعاصر، الذي يسير نحو الانحطاط بسرعة، والذي تهجره المواهب إلى غير رجعة وليس ثمة ما يدفعها إلى البقاء؟ إن المسرح الريبورتواري الكلاسيكي على مفترق طرق، فإما أن يصمد، وإما أن يزول. هذه مشكلة قومية وعالمية. أجل لقد نال المضاربون بالثقافة الجماهيرية من أرسين، من هذا الناشط المتحمس، وجعلوه يتحطم ويسقط في عينيه هو نفسه، لكي لا يفكر لاحقاً بالأشياء السامية. وهذه ليست النهاية، بل سيستمرون في تحقير وإذلال المثالي ــ المستقيم، لكي يحطموه معنوياً، بشكل نهائي، إلى أن يبتعد بنفسه عن دربهم، ولا يقف حجر عثرة في طريقهم، ولسوف

---

[1] الصوت النسائي المتوسط الارتفاع والذي يقع بين السوبرانو والكونترالو

يقوم بذلك بكل تلذذ وقح أولئك الكناسون أنفسهم من «الشوبيزنيس»، المعروفون باسم «التوب ــ موديل» من «البوب ــ حداثة».

وفي هذا سيكون النجاح حليفهم، إذ يتوفر لديهم كل ما يلزم لذلك، كل الوسائل ــ بدأً من الإنترنت وحتى الفضاء. وتحت تصرفهم أيضاً كل الوسائل المساعدة: المنوعات، الصحافة..

آه مسكينة الصحافة، مسكينة، كم ناضلت وناضلت ضد عبودية التعبير في ظل النظام الشمولي، وإذا بها تصبح أَمَة للسوق، والأثير يخدم ذلك أيضاً، فالراديو في كل سيارة...

حتى الأقمار الاصطناعية تقوم الآن بدور المروج «للبيزنيس ــ شو» على المستوى العالمي، وكل هذا من أجل تهميش القيم الكلاسيكية، من أجل جني الثروات الطائلة، المتفاقمة كما تسونامي ملاعب كرة القدم، كل شيء في أيديهم.

وأنت، أنت أيها الناشط ــ الغريق، الضائع، الأصح أيها اليوطوبي[1]، المسكين الوحيد، لماذا تقف في طريقهم، وأنت تعرف ماذا وكيف؟ فهل يعقل انك ستكون كالضحية الخانعة، وتقدم نفسك بيدين ترتجفان، قرباناً على مذبح «الأورطة» الاستعراضية؟ حتى حبك تقدمه لهم على الطبق ــ هاكم، تفضلوا، المهم أن لا تقفوا حجر عثرة في طريقنا، ولسوف يكون هذا تنكراً قسرياً لما تسميه مغزى الحياة وجمالها، ونعمة الخلود، التي أغدقها الرب نفسه، ولهذا السبب يمكن اعتبار نشوة التلاقح لحظة الذروة في العلاقة بين الخلود والحياة الأرضية، ولهذا أيضاً فإن انتصار الشهوات العاصفة والأحاسيس

---

[1] هنا تلاعب لفظي بين كلمتي "غريق" ("أوتوبشيك") و"يوطــوبي" "أوتوبيــست" المترجم.

الغرامية يخفي في ذاته التراجيديا والدراما، إذ يحدد تعقيد العلاقات بين السماء والأرض وكل قصة حب تنتهي بالموت المحتوم، لكن نصيب الخلود، والحب الذي أنعم به الله، ينتقل إلى الأجيال اللاحقة، التي تستسلم بدورها للحب، وتنضم من خلال الحب إلى مجرى الخلود، أما القوى الهدامة فسوف تنقض على عالم الحب بغدرٍ في كل مرة لأن الكثير منها يكمن في الكهوف المظلمة للجوهر البشري، وتزداد دهاءً وغدراً، ولذا لا تخمد الصراعات الداخلية لدى الناس.

وها أنت قد هفوت، ومنيت، كما يقال في مثل هذه المناسبات، بهزيمة ساحقة، وأصبحت ذليلاً، والآن تغامر بحبك، علماً أنه جاءكما من علٍ، لك وقد أصبحت شخصاً ناضجاً، ولها أيضاً. لقد تجللت بالعار وهزمت أمام الشومان، الذي لا تريد أن تنطق باسمه حتى بينك وبين نفسك، لشدة ما يثير القرف والاشمئزاز، لكنه غير مهتم بذلك، فهو الغالب والمظفر، إذ استطاع في الواقع أن يجذب المرأة التي تعبد، ويسلبك إياها على رؤوس الأشهاد، والأصح أنه استطاع شراءها بنجاح باهر، ويتاجر بها الآن، ومما زاد في محنتك أنك فقدت دفعة واحدة موسيقى الروح، قرينة الحب، التي كانت تكمن فيك، كما المحيط غير المرئي، حتى ولو كانت موسيقى هواة، بنت اللحظة، وأي شيء آخر، لم تر، ولم تسمع به من قبل، لكنك عجزت عن أن تفارقها، ولم يبق لك الآن إلا أن تتعذب لأن سيمفونية لا وعيك، غير المرئية، تذهب خلسة لأنه لم يبق لها من وسط تقطنه.

وهنا حاول أرسين سامانتشين أن يهدأ ويفكر بتعقل: كل هذا مجرد عواطف، دعك منها، وحاول أن تفكر بعقلٍ راجحٍ. فلو أن أوبرا «العروس الخالدة» كتبت، وأصبحت نصاً، فإن بالإمكان العثور على من يؤدي الدور الرئيسي بشكل لائق في مدن أخرى وحتى في بلدان

أخرى. صحيح أن الكلفة ستكون أكبر، لكن المسائل التنظيمية ستجد الحل، كان يبدو أن ذلك منطقي..

وعلى الرغم من ذلك كله، فقد ازدادت روحه انغماراً في لجة الكراهية الطاغية والتعطش للانتقام. يستحيل التحلي بالصبر، وأنت تداس بأقدام أولئك الشطار، المعروفين الآن باسم الأوليغارشية[١] فليجنوا من الثروات ما يحلو لهم، لكن لماذا على الجميع أن يزحفوا أمامهم، ويكونوا رهن إشارتهم لارتكاب شتى الموبقات بدءاً من القتل وانتهاءً ببيع الضمير؟ كان يريد أن يرد على الضربة بمثيلتها بحيث تتساقط النجوم من السماء.

واقتحمت روح أرسين سامانتشين خطة مشؤومة، أن يرتكب جريمة قتل، ثم ينتحر على الفور! صفر ــ صفر، لا أنت ــ ولا أنا نقطة. وهو يبصق على ما سيكتب بهذا الصدد في الصحافة ووسائل الإعلام الجماهيري الأخرى وعلى ما سيدور على الألسن الحقيقية والمزيفة..

بأية ابتسامة استخفاف ساخرة كان ينظر في الماضي إلى مشاهد القتل في الأفلام التلفزيونية والسينمائية وهاهو الآن على استعداد للقيام بالشيء نفسه، كما في أفلام السينما ــ بكل برودة أعصاب، دون أن ترتجف له يد: يطلق النار ثلاث مرات عن كثب ومن ثم يطلق رصاصة التأكد في الرأس، وقبل إعدام الخصم يرمي بوجهه بحكمه لكي ينفجر دماغه، كما ينفجر بالصعقة الكهربائية ومن ثم يلصق فوهة المسدس بصدغه هو، ويسحب الزناد، وينتهي كل شئ، وسنلتقي في العالم الآخر..

---

[١] الطغمة الاقتصادية والسياسية الحاكمة. سيطرة حفنة من المستغلين البرجوازيين أو رجال المال وغيرهم على مقاليد الحكم. / المترجم

وهناك سوف نتحاسب.

الشيء الوحيد، الذي كان يهفو إليه أرسين سامانتشين كثيراً، هو أن يحمل معه إلى هناك الأمل والأفضل الثقة بأنها هي أيضاً، آيا، سوف تخصها القوى العليا بعذاب الضمير، وأن روحها ستظل تحترق بنار الندم على الحب، الذي خانته، على «العروس الخالدة»، التي دنستها. وأن تظل قصة الحب الهايدلبيرغية التي لا يعرفها أحد غيرهما، هما الاثنان، تعذب ذاكرتها إلى اللحظة الأخيرة من حياتها، وأن يسمع في العالم الآخر صوتها الذي ينزف ندماً. ففكرة «العروس الخالدة» إنما ولدت لديهما في قلعة هايدلبيرغ الجبلية في تلك الليالي المقمرة، التي لم تخص أحداً غيرهما، في ذلك المنتزه الرومانسي فوق المدينة الألمانية القروسطية، حيث كانا في رحلة مشتركة، هي لإقامة حفلة بدعوة من جمعية هايدلبيرغ الموسيقية، وهوكصحفي مرافق لها.

ومهما حاول كبح جماح نفسه ــ ما هذا، توقف يا لهذا الذي نويت من شيء بدائي، حقير، تافه هذا عداك عن أنه إجرامي ــ لم يُجْدِه ذلك فتيلاً فلم يتراجع التعطش للانتقام قيد أنملة، ولم تتضاءل الرغبة الغريزية في الرد على الشر بالشر، بل على العكس ازدادت تفاقماً، وهي تضرم النار في دمه. وعلى حين غرة تذكر ما كان يسمع في طفولته ــ نوع من الحكاية أوالدعوة، التي يرددها القرغيز حين يجدون أنفسهم في مأزق، لا سبيل إلى الخروج منه «إيه ليكن ما يكون، حطم رأسك بالحجر، إلسع نفسك بالسوط وإذا ما انقض عليك الأعداء، فلا ترضخ لهم، ولا ترحم العدو، ارمه عن صهوة حصانه واخرق صدره برمحك وإلا ــ اقتل نفسك، هذا يعني أن لا جدوى منك».

متى وبأية مناسبة، وفي أية لحظة يأس قيلت هذه الكلمات، من يعرف... لكن هاهو بدوره يجد نفسه أمام أحد أمرين: اقتل عدوك، أو اقتل نفسك، لم يكن ثمة من مخرج آخر وهنا شرع يصب اللوم على نفسه يالها من وحشية.

على هذا النحو كان هذا المسكين يتعذب، إلى أن ثاب إلى رشده فقال وهو يتلعثم، «ابتعد عن النافذة، يالك من تيس! بماذا تفكر؟ من أي شيء ستطلق النار؟ ليس من إصبعك! وبصعوبة تمالك نفسه من أن يبصق في وجهه إذ اقترب من المرآة، المعلقة على الجدار ـ ليس لديك حتى مسدس لعبة ! لقد جمح بك الخيال بعيداً».

لقد سمع الكثير عن القتلة، عن أساليب جرائم القتل وتكنولوجياتها. كم يكتبون عن ذلك في الصحف ويعرضون على شاشة التلفزيون، لكن، في الواقع الأمر ليس بمثل هذه البساطة، صحيح أن بالإمكان على الأرجح الحصول على المسدس، شراءه إذا ما لزم الأمر، لكن لابد أيضاً من أن يتقن الرمي.. يا سلام عليك..

أما الحسرة على «العروس الخالدة» .. فلا نهاية لها.

ومع اقتراب الصباح رأى في ما يرى النائم أنه يمسك هاتفه الخليوي بيديه، لكنه بدلاً من أن يتصل من خلاله إذا به يسدده إلى جهة ما، غير أنه لم يسمع صوت الطلقة.. وهنا تردد رنين الجرس.

اقترب أرسين سامانتشين من الهاتف، لكنه لم يرفع السماعة، بل لوح بيده بتوتر ـ ليس الوقت مناسباً للحديث ومن جديد عاد الهاتف إلى الرنين، لكن عبثاً، أجل لابد من الحصول على السلاح ـ مسدس مع مشط من الطلقات بالطبع. يالها من مهمة، لم تخطر بباله من قبل.. لكن إلى من يتوجه؟..

بدأ الليل يلملم أذياله وأصبحت الأصوات تسمع في الساحة، أما هو فكان لا يزال يجهل ماذا يفعل، فكان تارةً يرقد، وأخرى ينهض. يالها من مشكلة! كيف ومن أين يمكن الحصول على هذا الشيء الذي يكاد لا يقل انتشاراً عن فرشاة الأسنان، والبعيد المنال عملياً؟

يقال إن السلاح يباع في البازار، على حد زعمهم. لسوف يشتريه مهما كان الثمن لأنه لن يكون بحاجة إلى النقود مستقبلاً فنهاية حياته أصبحت وشيكة ـــ ووداعاً للمشاكل. ..

وإذا ما تمكن من الحصول على المسدس، فلابد من أن يحمله بشكل مستمر، في جيبه، الجانبي على الأرجح أما كل ما يعقب ذلك فلم يكن يثير لدى أرسين سامانتشين الشك. لن يتردد، ولسوف ينفذ ما خطط له بدقة، وتتلاحق الطلقات واحدة في إثر الأخرى وستكون الأخيرة في صدغه هو ولقد كان على ثقة بأن الفرصة سوف تسنح لأن اللقاء بغريمه كان ممكناً باستمرار فهما من وسط واحد ـــ إلى حد ما، ويعرفان بعضهما منذ عهد بعيد، صحيح أنهما نادراً ما التقيا في الآونة الأخيرة فالآن أصبح ذاك مخرج منوعات، يشار إليه بالبنان، يملك المنشآت الفخمة، ويكاد يكون « أوليغارشي بوس، شيف» إلى غير ذلك من الألقاب وفي الماضي كان مجرد ممثل حقير. وهذا يعني أنه شق طريقه من هنا. شق طريقه عبر «تايغا» السوق، وتابع طريقه من نجاح إلى نجاح عبر (الشوـــ بيزنيس). إننا جميعاً عن بكرة أبينا نسعى الآن في السوق لكن المحظوظين يعدون على الأصابع. إن الجوهر يكمن في أن الثروة أوهمته أنه جرافة، وإذا ما دعت الحاجة إلى قتل الفكرة، إلى دوس حياة أحد ما بالأقدام، إلى تحويل المرأة إلى (روبوت)، فليكن ذلك والآن كفى، المهم أن يتوفر السلاح ـــ والباقي سوف ينجز، فالأمر لم يعد يتوقف إلا على الإرادة والرجولة.

على هذا النحو راح يقنع نفسه، ومما أثار دهشته أنه كان يزداد ثقة بأنه على حق. صحيح أن فكرة: إلى أي شيء يمكن أن تقود هذه الرغبة العاصفة بالانتقام، كانت تخطر له بين الفينة والأخرى. هل هذا يعني الشر باسم الخير؟ أهذا ممكن؟ لكنه عاد إلى طرد هذه الفكرة: لقد عدت إلى الحكمة، لم تكد تنوي حتى استسلمت للندم.. تُرى هل جننت؟ الأفضل أن تفكر كيف تقترب منه فتقول له لي حديثاً معك، وهنا... وبالمناسبة فقد التقيا منذ عهد قريب، وكان بينهما حديث... ولم يكن صحيح أن إيرتاش لم يبد اهتماماً خاصاً، فبعد المؤتمر الصحفي بدا مستعجلاً في الذهاب إلى مكان ما، لا يكف النظر إلى الساعة وفي سريرته كان على الأرجح، يضحك منه، من المتعصب للفكرة، يا للأحمق، يحلق على أجنحة الخيال.

أجل في سنوات البيريسترويكا كان بالطبع أكثر شباباً وفي تلك الفترة كان أرسين سامانتشين نفسه يكتب المقالات المتنوعة، بما فيها ما يدور حول المواضيع المسرحية، لكن إيرتاش كورتشالوف الفنان العادي لم يكن يعني شيئاً، أما الآن... لكن ما كان كان. حينها، في زمن البيريسترويكا كان المسرح في القمة، فقد حل الفكر الجديد، وبدأ العصر يطالعك على الخشبات المسرحية. وحينها بدأ المسرح يرتفع بشكل جلي، وفي غاية السرعة والتأثير فقد تخلص الإنسان من شراك الشمولية، لكن أحداً لم بفكر آنذاك بهذا الإيرتاش، إيرتاش كورتشالوف، الممثل العادي في مسرح المدينة الدرامي، الذي لم يكن يتميز بأي شيء وهل كان ممكناً أن يخطر ببال أحد في ذلك الوقت أن هذا الممثل البسيط (صحيح أنه أطول قامة من الجميع، ولديه صوت جهوري، أما عدا ذلك، فهو في عداد الكثيرين، من أمثاله) سوف يصبح رجل أعمال، والآمر الناهي في سوق المنوعات وحتى الملاعب؟

وفي جو تلك الأيام ظهرت عبارة «إيرتاش كورتشال» واكتسبت شهرة واسعة، وخاصة بين الشباب، عبارة أصبحت شعار حفلات المنوعات العامة، مع كل ما يرافقها من المؤثرات المسرحية والإعلانات في الصناعة الاستعراضية الحديثة، التي تدر الأرباح بسرعة فائقة. ولقد قدمت حفلات ــ الكليب «الإيرتاش ــ كورتشالية» المؤثرة، في العديد من الأماكن، بما فيها الصين وموسكو. وباختصار فقد تبين أن إيرتاش كورتشالوف حاذق وماهر، وأصبح قوة مؤثرة في امتلاك فضاء المنوعات. وفي هذه التسونامي «الإيرتاش ــ كورتشالية» القاتلة، وَقَعَتْ آيدانا ساماروفا فابتلعتها بقوة غاشمة.

ولقد فات الوقت للتفكير بماذا حدث لآيا، لآيدانا ساماروفا المغنية الأولى في المسرح الأوبرالي، وكيف أصبحت فجأة أَمَةً لبيزنيس إيرتاش، وراحت تظهر على كل القنوات التلفزيونية، وتتحول بسرعة إلى نجمة منوعات، تزداد تألقاً، وقد أحاطت بها هالة شهرة البوب الكاسحة، والصوت، والوجه وقد اكتسبت الأسلوب المسرحي «أ ــ ليا ــ هوليود» وباختصار بعد أن أعادت تفصيل مجمل قدرها، كانت العبارة الدارجة «رحل القطار» مناسبة هنا تماماً. وبالفعل فكما لو أنه كان مسافراً مع آيدانا في قطار واحد من هايدلبيرغ إذ جمعهما القدر لعدة أيام في قلعة هايدلبيرغ، لكي يتلقيا الإلهام من علٍ، الالهام المعروف باسم الحب، وحيث خطرت لهما فكرة «العروس الخالدة». وفجأة، في إحدى المحطات انتقلت إلى القطار، الذاهب في الاتجاه المعاكس ورحلت. أما هو فكأنما اندفع يجري طويلاً على السكة، في أعقاب القطار، الذي ابتلعه الأفق يجري وحيداً في سهل مهجور، يصرخ ويزعق كالمجنون: «آي ــ آ ــ آ ــ آ. آي ــ أ أ» وماذا بشأن «عروستنا الخالدة»؟ توقفي، توقفي آي آ آي أ أ «لكنها رحلت... ومن الذي غرر بها، من الذي سحرها بالشيكات

المصرفية. الأمر واضح فالقطار يقوده من كان «نكرة» في الماضي، وأصبح الآن إيرتاش كورتشالوف الشهير فما الذي يدعوه ويااله من غريب الأطوار إلى الجري وراء هذا القطار اللامرئي، وقهقهة السموات، ترن في أذنيه رداً على توسلاته: «مجنون! ممسوس! مهووس!» أليس من الأفضل أن يتخلى عن كل شيء وينسى؟.. وعلى الرغم من أن أرسين سامانتشين كان يعي تماماً النزعة العقلية الجامحة، «للشو- بيزنيس»، فإنه لم يكن بمقدوره التخلص من أوهامه اللاإرادية لقد كان مشدوداً إلى فكرته الذاتية، بعد أن أصبح أسيرها طوعاً، وبعد أن وجد نفسه معها في طريق مسدود، وبالتدريج راحت الاهتمامات السابقة تذبل، وابتعدت إلى الجانب الآخر من الوجود ــ كل شيء باستثنائها هي و«العروس الخالدة».

وفي الوقت نفسه كانت الثقافة الجماهيرية، التي كان يتبنى منها غريزياً موقف الحذر، تتابع مسيرتها عبر العالم، وهي لا تكف تتدحرج نحوه، بأمواجها المحيطية التجارية، بقوة مضطردة.

وخطر له مصطلح جديد للتعبير عن الثقافة الجماهيرية، التي لا تفارق شفاه وسائل الأعلام الجماهيري العالمية ــ الثقافة بالجملة، على غرار البضائع بالجملة.

(طيب، فليكن. لكن الثقافة الجماهيرية لن يرف لهل جفن من أجل هذا)..

ومنذ عهد قريب اقتنع بدقة هذا المصطلح في الملعب، في أثناء حفلة استعراضية أقيمت بمناسبة الاحتفال بيوبيل المدينة ــ ذكرى مرور مئتين وخمسين عاماً على تأسيسها.

كان الملعب والسهرة في أوجها، يموج، وقد امتلأ بالجمهور الذي يعد بالآلاف، وهو يتلألأ بالأنوار الساطعة، ويزدان باليافطات المختلفة الألوان وبالإعلانات الإلكترونية، التي لا مثيل لها. وكانت الجموع التي أمت المكان، وهي في أغلبها من الشباب، تشعر بالفرح والبهجة، وفي مزاج رائقٍ تضفي عليه البرودة المسائية، التي تهب من الجبال، حيوية ونشاطاً.

كان الجميع يتوق إلى المرح، ويهفو للتمتع بالمناظر التي لا تنتهي.

وهذا ما حدث تماماً، فالموسيقى الصاخبة تتردد فوق الملعب كنداء الحب، وعلى خشبة المسرح تعاقبت الرقصات من شتى الأساليب، من الباليه إلى الدبكة، وتمشياً معها تعاقبت الأزياء والديكور، لكن الطعم الأدسم في كل هذه المشاهد المسرحية الديناميكية، كان بالطبع هو آيدانا ساماروفا. كل هذه الحفلة الصاخبة كانت تتمركز وتتمحور حولها، هي النجمة. وللحق فقد كان صوتها العميق الصافي، الذي رفعته المكبرات إلى السماء، فوق أرض الملعب المفتوح، وكانت قامتها الهيفاء الطويلة، ورشاقتها، الخالية من التعري الزائد، والشبان والشابات، الجميلين والجميلات، الذين يتلوون بجوارها بحركات جنسية، على إيقاع شدوها، وعلى أنغام الموسيقى ــ كان كل هذا هو ما ولّد في الجمهور إثارة كرنفالية آسرة. الجميع يريد أن يكون على الخشبة، بالقرب من آيدانا،الملعب كله يبتهج، وهو يتمايل، بحراً من الأيدي المرفوعة، وحده فقط كان يفكر: «لقد تحولت البطلة الأوبرالية إلى ملكة شلياغيرية(١)» لكن أحداً لم يكن يهتم بأفكاره؛ لا بل بلغت إثارة الجمهور ذروتها البركانية حين راحت آيدانا تؤدي في ثنائي

---

(١) Schlogen موسيقى أو أغنية تشتهر لفترة من الوقت على نطاق واسـع. / المترجم

مشترك أغنية «ليموزين» التي تبدوعادية جداً. كان المغني الآخر شلياغير من جيراننا الأوزبيك، وكانت الأغنية تُؤدّى باللغة الأصلية، فاللغة الأوزبكية مفهومة للجميع هنا، ولقد سحرت الموسيقى الشرقية ـــ المحدثة، الجمهور بالأنغام المعروفة، وراحت الكلمات الكليبية (نسبة إلى الفيديو كليب / المترجم) تتردد فوق الملعب على إيقاع أصوات المكبرات الهادرة ((سين ميني سيفيارسينمي؟ سين ميني سيفيارسينمي؟ «هل تحبني؟ هل تحبني؟»).

ليموزين بيرارسينمي؟ ليموزين بيرارسينمي؟ «هل ستهديني الليموزين؟ هل ستهديني الليموزين؟»

وعلى هذا كان يرد، ويرقص بمهارة:

ميني سين سيفيارمين ميني سين سيفيارمين «إنني أحبك. إنني أحبك»

ليموزين بيرارمين، ليموزين بيرارمين «لسوف أهديك الليموزين، سوف أهديك الليموزين»)).

ومالذي حدث عند ذلك؟ راح الجمهور، الذي يعد بالآلاف، يزعق بملء صوته، مردداً، ورافعاً الأيدي «لي ـــ موـــ زين! لي ـــ موـــ زين! لي ـــ موـــ زين! » وفي هذا الوقت وعلى شاشات بانورامية هائلة ـــ أربع شاشات، من جهات الملعب الأربع ـــ راحت تظهر بالتزامن اللقطات المطابقة للأغنية:

سيارة ليموزين فارهة مكشوفة تقل الحبيبين، آيدانا وشريكها الجميل كانا يتناوبان القيادة، وهما ينطلقان مارين بالمناظر الجذابة: بالقمم الثلجية تارة ، وعلى طول شاطيء البحيرة الزرقاء تارةً أخرى، مرة عبر الجسور، وأخرى عبر السهول، والطيور تندفع أسراباً في

أعقاب الليموزين، وفي مكان ما على أطراف المتنزه القائم في ضواحي المدينة، توقفت الليموزين، وخرج الحبيبان السعيدان، وسارا، كل منهما في أحضان الآخر، باتجاه المطعم، الغارق بالإعلان البراق، ولم يلبثا أن انطلقا من جديد في الليموزين، أما الموسيقى فظلت تصدح، وظل الملعب يردد: «لي ــ موــ زين! آي ــ دا ــ نا! آي ــ دا ــ نا!»

لم يعرف أرسين سامانتشين كيف يخفي وجهه من الخجل. من يكون هو بالمقارنة مع الجمهور المسرور؟ حتى أنه اكتشف هو نفسه يغمغم: «لي ــ موــ زين ــ آي ــ دا ــ نا، آي ــ دا ــ نا!» على غرار الجميع..

واختتم الحفل بمشهد مؤثر رائع، ومفاجىء تماماً ــ فقد أشرق الليل بفعل الشهب النارية التي انطلقت إلى السماء وملأت الجو كله، حتى الأفق، بالشرر المتعدد الألوان. (يا للروعة، مرحى لمحافظ المدينة. إنه وحده من يستطيع أخذ مثل هذا الأمر على عاتقه. لكن من يدفع له؟ من جديد ــ إنه إيرتاش) والشيء الأروع أن الشهب الاحتفالية لم تكن تنطلق من الجوار، من مكان قريب من موقع الاحتفال، كما درجت العادة بل من مكان بعيد، خارج المدينة. كانت الصواريخ القوية تنطلق من قمة التلة، الواقعة في الضواحي، وعلى ارتفاعات شاهقة تنفجر إلى حزم من الأنوار المتلألئة، حزمة في إثر أخرى. كان المشهد المؤثر غير مألوف، يخلب الألباب، ومن جديد خطر له: من بمقدوره أن يدبر هذا المنظر الأخاذ؟ إنه هوبالطبع إيرتاش رتشال، وعلى الرغم من أن كل شيء يتم في إطار الاحتفال بيوبيل المدينة فإن ما جرى في الواقع كان تمجيداً للنجمة المغنية آيدانا لأن الموسيقى استمرت تهدر، واستمرت الليموزين الفارهة، وهي تحمل الزوج السعيد، تندفع عبر الشاشات البانورامية، في الوقت الذي

استمرت فيه الشهب النارية ترتفع أعلى فأعلى، وتضيء سماء الليل بأنوارها الساطعة، فكان يبدو وكأن قبة السماء كلها تشع وتتلألأ بنفس النجوم..

وفي تلك الساعة حدث شيء لم يعرفه أحد، لم يعرفه إنسان واحد في الكون.. فقد ارتفعت شرارات الأضواء عالياً جداً، وأضاءت الأرض بشكل ساطع، مسافات بعيدة، فوصلت الجبال الشاهقة، واستيقظت الطيور في الجبال، وبدأت صخبها، واختلج جابارس ثم استيقظ. كان لا يزال مع عذابه عند أقدام القمة. ألقى نظرة نحو الأعلى، نحو النيران البعيدة، التي تبدو وكأن الجبال تنفثها. كلا ليست هذه بنجوم تطير في السماء، بل هي شيء آخر، غير مألوف، حاول الوحش أن يختبىء، لكنه لم يوفق، كما لم يوفق في تحقيق ما أتى من أجله إلى هنا يوماً بعد يوم ـ لم يوفق في اجتياز القمة، والاختفاء في العالم الآخر للجبال الشاهقة، كان القدر يحتفظ به هنا، عازفاً عن مد يد العون إليه.

إن القدر قادر على كل شيء، إذن ماحاجته إلى أن يبقى الجابارس المنبوذ هاهنا؟ من يعرف؟ فالقدر صامت أبداً..

الأضواء البعيدة للألعاب النارية الاحتفالية، التي لامست تلك الليلة نظر جابارس كانت إشارة من علٍ على ما يبدو..

أما الملعب فكان لا يزال يصطخب، مردداً في جوقة واحدة، وعلى إيقاع حفلة الروك: «لي ـ موـ زين ـ آي ـ دا ـ نا! «لي ـ موـ زين ـ آي ـ دا ـ نا!»

«هاهي قد رحلت في ليموزين ثقافة الجملة» ـ خطر لأرسين سامانتشين بمرارة ومن جديد عاد يسأل نفسه: وماذا بشأن «العروس

الخالدة» الآن؟ كما خطر له أيضاً، وهو في سيارته الـ «نيفا» التي أوقفها على بعد حيَّيْن من هنا، وسط مختلف أنواع الماركات الأجنبية: يا للتناقض السائد في الحياة الراهنة، السكرى بثقافة الجملة(*)، فالفقر يضرب أطنابه في البلاد، وكذا البطالة، فالشباب يجلسون على جوانب الطرق، لمسافة كيلومترات كاملة، يحملون اليافطات، التي كتب عليها «أعطونا عملاً» علماً أن أغلبهم جاء من القرى، شبه المهجورة، إن هذا تحد للمجتمع البشري، العاجز، إذن عن سد حاجات الأجيال الجديدة، كأن العالم المعاصر يقول لهم: المجتمع ليس بحاجة لك، فاختف عن الأعين بعيداً أما نحن، من لدينا العمل، فسننطلق إلى الأمام في ليموزيناتنا. على هذا النحو كان يفكر، وهو يعبر الشوارع الليلية في سيارته الـ«نيفا»، «السوفيتية» ولم يكن يرغب في سيارة أحسن منها، فقد اعتاد عليها زد على ذلك إنه ليس بقادر مادياً على شراء أخرى، ولا يمكن أن يحصل الجميع على ليموزينات. وإذا كانت هي، آيا، قد صارت من أصحاب الليموزينات فهذا شيء آخر، فهي الآن نجمة كبيرة لا يمكن الوصول إليها، محاطة بالحراس، ولا ترد على اتصالاته.. ومن المستبعد أن تعود إلى زوجها السابق، الذي يقال إنه أصبح مدمناً منذ سنوات عديدة.

لا داعي للحكم، ففي الحياة يمكن أن يحدث أي شيء، ولكل امرىء مشاكله... لكن إذا ما حاكمنا الأمور بشكل عملي، وإذا ما حاولنا فهم النقلة الحادة لآيدانا ساماروفا، مغنية الأوبرا، ذات الصفات الغنائية الممتازة ــ والجديرة بالمسرح الميلاني، فهناك مكانها ــ فإن من الصعب القبول بارتمائها السريع في أحضان الشهرة النجومية ودورانها في غيوم ثقافة البوب وأية نقود تتدفق من هذا كله.

(*) المقصود هنا بثقافة الجملة هو المفهوم التجاري لها لا اللغوي

توقف، هذا شأنها، حقها أما أنت فقد سقطت عن الصهوة، ولذا فأنت تعاني، تَحْرُق الأُرّم(*) غيظاً، وتقسوفي التعبير.. هلا اعترفت بنزاهة ــ راح أرسين سامانتشين يلوم نفسه ــ بأن منافسيك أقوى منك بكثير؟ من أنت؟ صحفي؟ حتى لوكنت مستقلاً، وحتى لوكنت مشهوراً، أما هو فواحد في فضاء الإعلام الجماهيري، بينما أنت نملة في الإعلام الجماهيري، ثم إن الحب معرض للامتحان باستمرار، وإلا لما كان محفوفا بالعذابات والأفراح، بالأحزان والكوارث..

نعم قد يحدث أن يقع الانهيار الثلجي في الجبال، وليس بوسع أي كان إيقافه. لكل حب قصته، وعذاباته، أما أنت فتريد أن تلقي بوزر محنتك الشخصية على كاهل العولمة والثقافة الجماهيرية. بأي الأساليب تتعارض الثقافة الجماهيرية مع «العروس الخالدة»، وترفضها؟ هلاّجرّبت أن تجيب على هذا وتقنع الآخرين؟ هلاّ أخبرتنا ما دخل «العروس الخالدة» هنا، وكيف ومن أين جاءتكما حين كنت مع آيدانا وحيدين، مشغولين ببعضكما فقط، حين غمرتكما موجة الحب، وأصبحتما كما لوأنكما أمضيتما حياتكما السابقة كلها بانتظار هذه اللحظة، وأخيراً؛ تمكنتما من معرفة طبيعة الحب الحقيقة، كإلهام أنعمت به الطبيعة عليكما.

قد يبدو الأمر مضحكاً: فأنتما لستما بالفَتيَّيْن، وكانت لكل منكما تجربته السابقة، لكن الطبيعة جنبتكما عقدة الماضي. كنتما في منتزه جبلي قديم، وثمة قلعة عريقة، والبدر يتأملكما من مكمنه العالي، بين الغيوم. لا شك أن القدر حدد مسبقاً هذا اليوم وتلك الساعة لعرض حبكما الأول، كما تسميان لقاءكما مازحين، على الرغم من أنها كانت قد تجاوزت الثلاثين، واقتربت أنت من الأربعين؛ لكن ليس هذا هو المهم هنا، إنه لا يكمن في نشوتكما الرومانسية، بل في الكيفية، التي

(*) يحرق الأرم: يحك أضراسه ببعضها .

ظهرت بها العروس الخالدة في ذلك اليوم أمامكما، وأنتما الحبيبان، كما لوفي اليقظة، وكيف راحت وقد ركعت على ركبتيها، تتوسل إليكما إن تنقذاها، وتعطياها صوتاً شادياً، لكي يسمعها جميع من في الكون، وتسكب في الغناء روحها، وتروي قصة الفراق، الذي حولها إلى عروس خالدة، لكي تعثر على ذلك، الذي تبحث عنه. وحينها، لدى لقاء تلك الصورة الخيالية ولدت الفكرة الإبداعية ـــ فكرة الأوبرا، وكل ما يتعلق بهذا المشروع. حسناً، جرب أن تقنع الآخرين أن لقاء العروس الخالدة كان واقعياً إلى حد أنكما أقسمتما على إنقاذها، وتقديمها إلى العالم من خلال الأوبرا، على خشبة المسرح، من خلال غناء آيا، وأن آيدانا نفسها، همست، ووعدت، بأنها سوف تظل تغني «العروس الخالدة» ما بقيت على قيد الحياة.

مهلاً، مهلاً، لقد جمحت، من يصدق مثل هذا الحادث الغريب المستحيل، هذه المعجزة؟ إن أي عاقل سيقول: جنون. هذا كله كلام فارغ، خرافة، أسطورة، حكاية. كل هذا أقاويل، لغو باطل، ومما لا شك فيه أنه لا يمكن أن تكون هناك ردة فعل أخرى. لكن الظاهرة غير الأرضية للعروس الخالدة ولَّدت في نفس أرسين سامانتشين الإدراك المجازي لصورتها (بالمناسبة، شاطرته آيدانا هذا الإدراك آنذاك، وحينها كان ذلك مصدر مشاعرهما المشتركة. لكن آيدانا ضلت طريقها لاحقاً، وتراجعت القهقرى ـــ «رحلت في الليموزين» والأصح أنهم جعلوها تضل طريقها، وتقع في أسر« البيزنيس»، لكن ليس هذا موضوعنا الآن). ولقد استقرت صورتها في روحه، اليتيمة، كرسالة من فوق، بعد أن تحولت إلى إيمان حقيقي ومعاناة لا تنتهي. ما من أحد رأى الله، لكن الناس يؤمنون به، يؤمنون بأن الله موجود. على هذا النحو على ما يبدو ـــ يأتي الإيمان ـــ عبر الإدراك الروحي للصورة المنشودة، ومن خلال الحب لها.

وفي هايدلبيرغ كان قد حدث لهما شيء من هذا القبيل، فقد كان على آيدانا ساماروفا أن تحيي حفلة غناء واحدة. لقد مضت الحفلة بنجاح باهر، وبالطبع فقد كانت تعرف أن الفضل في دعوتها إلى هايدلبيرغ يعود بالدرجة الأولى إليه هو، أرسين سامانتشين، ولقد ساعده في ذلك أصحابه المقربون ــ الصحفيون الموسيقيون والأصدقاء.

كانت آيدانا، التي تشدو الأغاني الكلاسيكية، لُقْيَةً مميزة عند المهوَّسين بالطرب المحليين.

وكما هي العادة في أوروبا عند إحياء مثل هذه الحفلات الخاصة، فقد ألصقت الإعلانات في كل مكان، وأعلن عنها في نشرات الأخبار، وبث التلفزيون غناءها، ونشرت الصحف التعليقات عنها. ولقد غنت آيدانا ساماروفا في المعبد (الكيركا[١]) الهايدلبيرغي العريق، فالبروتستانت الألمان يعتبرون تقديم أماكن العبادة لإحياء الأنشطة الدنيوية شرفاً كبيراً، وتحت القبة العالمية للكيركا تردد الغناء الحي بقوة بفضل الأكوستيكا[٢] الرائعة، التي تعمل منذ قرون عديدة في خدمة التراتيل السماوية. وبمرافقة البيانو والأورغن غنت آيدانا باللغات الإيطالية والروسية والألمانية، كما قدمت عدة أغاني باللغة الأم ــ القرغيزية.

استمر التصفيق طويلاً، وتلألأت بالسعادة الروحية عيون المستمعين، الذين غصت بهم أماكن الجوقة والنيف[٣] في الكيركا.

---

[١]كيركا أوكيرخا (ألمانية kirche) تعني المعبد اللوثري أو المعبد إجمالاً.

[٢]اكوستيكا (ألمانية akustik) علم الصوت وهي هنا بمعنى توزيع الصوت.

[٣]نيف من الفرنسية nef وتعني ذلك الجزء من المعبد الممتد طولانياً على شكل مستطيل.

ولقد صعَّدت نشوة النجاح والإلهام مشاعر الحب لديهما، وقربت بينهما، وجعلتهما يتمنيان أن يبقيا معاً باستمرار. وفي تلك النشوة بالذات تجلت العروس الخالدة لهما، فبعد الحفلة، والاستقبال القصير، الذي أحيي على شرفها في المطعم المجاور للكيركا، راحا يتنزهان معاً في المنتزه الجبلي، المحيط بقلعة هايدلبيرغ العريقة، حيث حلا كضيفي شرف، نزولاً عند رغبتهما في البقاء وحيدين.

كان مزاجهما عالياً جداً، وبعد أن جلسا قليلاً في البار، الواقع في ردهة القلعة، وتناول كل منهما جرعة من الويسكي، خرجا من جديد، يتنزهان عبر الممرات الشجرية، ويتفرجان من علٍ على هذه المدينة القروسطية؛ المشعشعة بالأنوار، في منتصف الليل.

وفي أثناء جلوسهما على المقعد راحا يتحدثان عن الموسيقى. وفجأة سألته آيدانا:

ــ ماذا تريد أن أغني لك يا أرسين؟

ــ الآن؟

ــ كلا، ليس الآن، بل في حفلة ما، برفقة الأوركسترا السمفونية. سوف تكون في الصالة، أما أنا فسوف أغني من على الخشبة لك أنت شخصياً. فما الذي تريده؟ هل تريد شيئاً ما إيطالياً؟

ــ الكثير من ريبوتوارك يا آيا، الإيطالي، الإسباني ــ طبعاً. لكن هل تعرفين حلمي المنشود؟ إنني غريب الأطوار يا آيا، فمنذ عهد

بعيد والحلم يراودني سراً ــ كما الراهب، المستسلم للأحلام المحرمة عن المرأة ــ بأن أسمع آريا[1] العروس الخالدة بأدائك.

ــ آريا العروس الخالدة؟ ــ قالت باستغراب ــ الواقع أنني سمعت هذه الأسطورة بطرف أذني، لكن الأوبرا تحتاج إلى موسيقى، ليبريتو[2]، وغير ذلك الكثير.. إنك فعلاً كما الراهب، الآثم، الذي يحلم بالمرأة.

أجل، لا شيء مخيف في الأحلام، لكن الطريق إنما ينعطف باتجاه الحلم..

هل أدركا في تلك اللحظة، أم لم يدركا، أن ذلك كان نقطة الانطلاق، وإن كان ذلك لا يزال في التأملات ــ للأوبرا القادمة ــ «العروس الخالدة؟».

بدا، وكأن أرسين سامانتشين كان ينتظر هذه اللحظة كي يحدثها للمرة الأولى عن الفكرة التي اختمرت لديه من زمان. ترى أليس لهذا الغرض جمعهما القدر في تلك الساعة وفي ذلك المكان؟

* * *

ولما كنا بصدد الحديث عن القدر، فهل كان بمقدور أرسين سامانتشين أن يعرف في تلك الساعة المصيرية بالنسبة له، أنه على

---

[1] آريا من الإيطالية aria مؤلّف غنائي يُؤدى بصوت واحد (عادة في الأوبرا والأوبريت).

[2] ليبريتو libretto، (إيطالية وتعني حرفياً الكتيب) وهي هنا بمعنى النص، الكلمات، أي كلمات المؤلف الموسيقي ــ الغنائي كالأوبرا والأوبريت.

هامش هذه القصة ستظهر نية رهيبة، ما كانت لتخطر له ببال من قبل ــ نية القتل. وأنه سوف يسير على شفا الهاوية، ولن يتراجع. وأن الأمر الذي سيقض مضجعه، هو عند الآخرين في منتهى البساطة، وعنده في منتهى التعقيد: كيف الحصول على السلاح لكي ينفذ ما نوى؟

* * *

وعن القدر مرة أخرى. في تلك اللحظة كان جابارس لايزال عند جبل أوزينغيليش ــ ستريمياني، ينتظر القدر، عساه يساعده فجأة في عبور الجبال، والانصراف أخيراً إلى حياة الزهد والتنسك.

ليس بوسع أحد ــ لا الإنسان ولا الوحش ــ أن يعرف ما الذي يخبئه لهما القدر. فعلى ما يبدو لم تكن تربط بين مصيريهما أية نغمات مشتركة، ولا مصادفات، لكن الظروف التي حالت دون معرفة أحدهما بالآخر، الإنسان والوحش، وجدت نفسها تحت العين الساهرة للقدر نفسه، ونضجت في أحضان مسيرة حياتهما، كل شيء يمكن أن يحدث في الكون.

فهل كان يمكن أن يحدث ــ لنفرض ــ تقمص العروس الخالدة الخرافية، حين تجلت في تلك الليلة في منتزه هايدليبرغ، حيث انفرد الحبيبان، وراحا يتحدثان، وهما يزدادان انجذاباً أحدهما تجاه الآخر، ويتعمق تفهم كل منهما للآخر؟ أكان ممكناً في غمرة الاعترافات الغرامية أن يحدث تقمص الذات الأسطورية التي تحولت تراجيديا الحب بالنسبة لها إلى الجوهر النهائي للوجود؟ الواقع أن أرسين سامانتشين لم يكن يستبعد إمكانية حدوث مثل هذا التقمص ــ فالكثير

يتوقف على المزاج، وعلى استعداد الحبيبين لمشاطرة العالم المحيط سعادتهما.

هذا ما ألهم أرسين سامانتشين، حين راح يروي لآيدانا أسطورة العروس الخالدة:

ـ منذ طفولتي كنت أعرف وأؤمن أن العروس الخالدة لا تزال حتى الآن تتجول في جبال أوزينغيليش ستريمياني فهل تصدقين؟

ـ أصدق، أصدق ـ ردت آيدانا، بابتسامة خفيفة، وهي تلامس عنقه براحة يدها ـ كم أحب أن أصغي إليك، كأنك تلاطفني. انظر يا أرسين إلى هذه الروعة من حولنا، الليل والقمر في غاية الجلاء والمصابيح تشعشع كما في الحكايات ونحن وحدنا، ولا أحد آخر، حتى الطيور في المنتزه لاذت بالصمت، تابع.

ـ حسن فلْتَلُذْ الطيور بالصمت، أما أنا فلن ألوذ بالصمت، حين يدور الحديث حول العروس الخالدة. بوسع كل امرىء أن يفكر كما يحلو له، هل هذه خرافة، أم شيء آخر، لكن يا آيا، رؤيتها أحياناً بعيداً في الجبال للحظة خاطفة ثم تختفي في الحال ليست عندي خرافة. إن قصتها تعيش في مناطقنا منذ عهد بعيد، والجميع يؤمن أنها تطوف الجبال، تبحث وتبحث عن العريس الضائع، والمطاردون في إثرها، أما حبيبها وهو صياد شاب محظوظ، فقد اختفى بلا أثر، إما أن الأعداء أخفوه في الكهف وإما أنهم أفقدوه موهبة الكلام ـ من يعرف؟ إنها كما هي دائماً، قصة الغرائز البشرية المكر والتعطش إلى السلطة هذا ما كان على مر العصور.

هل تعرفين أن المعزبين عندنا، في الجبال، اعتادوا في ليالي الصيف التي يصبح القمر فيها بدراً ان يجتمعوا على التلال العالية من أجل

العروس الخالدة، ويضرموا النار أملاً في أن تراها من بعيد، أما الشامانات فيقرعون الطبول ويرقصون، ويهتفون باسمها وباسم خطيبها الضائع ــ يدعونها للقدوم إلى النار، وتنادي النساء عند النار ويبكين ويقال إنها كانت تتجلى أحياناً في مكان ما في الظل، تنحني ثم تختفي. هل تريدين أن نطل على البار مرة أخرى؟ أترغبين ببعض الويسكي؟

ــ لقد سبق أن كنا هناك، وأنت شربت بما فيه الكفاية، لا داعي لذلك يا أرسين كم أشفق عليها، على العروس الخالدة كأننا أتينا إلى هنا لهذا الغرض.

ــ ربما يكون الأمر على هذا النحو، ولذا فإن بودي أن أروي لك هذه القصة. إن النيران، المكرسة لِعروس الخالدة تضرم في الجبال على الجانب الصيني أيضاً فالحدود تقع خلف جبال أوزينغيليش ستريمياني، وفي ذلك الجانب تعيش منذ عهد بعيد القبائل القرغيزية التي تَمّت لنا بصلة القربى، لكننا نكاد لا نتعامل مع بعض ــ فالطريق عبر الجبال سالك في الصيف فقط وقد لا يكون سالكاً وهكذا فمنذ عام مضى كنت هناك لأمور صحفية. قطعت أورغينتش بالطائرة ومن ثم بالسيارة. أجريت لقاءات مختلفة وجمعت مادة جيدة للصحيفة. وكان ما أثار دهشتي كثيراً هو أن القرغيز المحليين، على الجانب الصيني من الجبال يعرفون قصة العروس الخالدة، وأن لديهم العادات نفسها فهم يضرمون النار صيفاً، حين يكون القمر بدراً، ويدعون الأرواح لمساعدة العروس الخالدة. لكن لدى القرغيز الصينيين فرقاً واحداً طريفاً: فحسب عادتهم تقف قرب النار فتاتان جميلتان، تمسكان بحصان مسرج، جاهز لكي تقدماه للعروس الخالدة، عند اللزوم.

هنا قالت آيدانا مازحة:

ـ وماذا لو أضرمنا النار للعروس الخالدة هاهنا، على تلة هايديلبيرغ، دعنا نفعل ذلك يا أرسين.

ـ ولم لا؟ رد أرسين سامانتشين ضاحكاً، لكن كان لابد من التفكير بذلك قبل الآن فلابد من جمع الحطب، ثم من أين نأتي بالشامانات؟ آ... ما رأيك لو أكون أنا الشامان؟

رائع! يمكن أن تصبح شاماناً جيداً، لكن دعنا نؤجل ذلك إلى مرة قادمة فقد يؤدي إضرام النار على التلة، المطلة على شوارع المدينة، إلى فضيحة دولية.

ـ إنك على حق في هذا، يمكن أن نكسب الشهرة في كل أنحاء أوروبا ـ قال أرسين سامانتشين، وهو يهز رأسه ثم ضحك، واحتضنها من كتفيها ـ يا للروعة في هذا المتنزه ألم تتعبي بسببي يا آيا؟

أبداً، فأنا أرتاح، وأنا سعيدة لأن العروس الخالدة معنا.

شكراً. والآن اصغ: كان يسكن جبالنا صياد شاب، يتمتع بقوة هائلة وسرعة فائقة كان بوسعه أن يلحق بالعنزة البرية، ويصطاد الذئاب والنمور الرقط ويسلخها.. كان صيده يقوم بأود العديد من الأسر في القبيلة ولقد أحبه أبناء الشعب كثيراً وتنبأوا له بأن يصبح زعيماً. وفي ذات مرة ذهب مع أقاربه إلى الوادي المجاور، لحضور وليمة، وهناك رأى، فتاة حسناء، أحبها وأحبته، وراح يتردد على مضاربها ممتطياً صهوة جواده، عابراً الجبال كل يوم تقريباً ولم يمض من الوقت إلا أقله حتى كشفت إحدى قارئات البخت للفتاة أن ثمة في

السماء نجماً خاصاً نجم حبهما وأن هذا النجم سوف يتلألأ بشكل يخطف البصر في ليلة عرسهما، وسيكون الأسطع بين النجوم فوق الجبال، ولن يتحرك من مكانه حتى الصباح، هذا إن لم تغطه السحب. وحين حدثت الفتاة الصياد بذلك، اعترف لها هذا بأن قارئة بخت أخرى قد كشفت له عن سر وجوده:

«قد ولدت في هذه الدنيا لكي أتزوجِ بك» وهنا أكدت عروس المستقبل للصياد بأنها ستظل معه دائماً. وهكذا فقد جاء الصياد ــ العريس، برفقة جميع الأقارب تقريباً إلى ذوي العروس لرؤيتها، وطلب يدها. كان ذلك عيداً مشهوداً. وكم من الهدايا جلبوا لوالدي العروس وأقاربها، مواشي كثيرة ومختلفة وفرو السمور والسنار، والأهم من ذلك كله هو أن الصياد كان يحمل على كل من كتفيه جلداً مرقطاً لنوع من النمور التي لا يستطيع اصطيادها إلا من كان صياداً ماهراً، أهداهما كليهما لوالدي العروس. وفي جو من البهجة والمرح رافق الجميع العريس والعروس إلى ضفة النهر حيث جرت خطبتهما. ومنذ ذاك الحين أصبح النهر شاهداً على حبهما ووفاقهما. وحدد الزفاف بعد سبعة أيام، على أن يتم هذه المرة في قرية العريس، وراء الجبال.. وكما هي العادة فقد استمرت الوليمة والاحتفال بالخطبة حتى الفجر. لكن حتى هنا وُجِدَ الخصوم والحساد، كان هؤلاء يكرهون العريس ويحسدونه ليس فقط لأنه صياد محظوظ يشار إليه بالبنان؛ بل، لأن بعض الناس بدأوا يتنبأون أنه عما قريب سيصبح، وهو الفارس الذكي والجريء، الجميل والنشيط زعيم القبيلتين، المتصاهرتين ــ وحاكم المنطقة كلها. وهذا ما لم يستطع الحساد القبول به، فبدأوا يحوكون مكيدتهم الماكرة.. ألم يكن الأفضل أن يتبارزوا بشكل علني، واحداً لواحد، ليس من أجل الأرض، ولا من أجل الثروة، ولا حتى من أجل السلطة، بل من أجل الروح؟. لكن هل يعرف المكر البشري حدوداً؟

الفتنة تنضج في الخفاء، ولهذا فهي فتنة. فمن كان بمقدوره أن يعرف في تلك الوليمة عند النهر أن مصيراً آخر بدأ يتسلل خفية، حاملاً الشر والكراهية لسعادة الحبيبين ــ إنها الفتنة المشؤومة.

وكما أنشد الأقين[1] لاحقاً «لو عرفت الشمس بتلك الفتنة، إذن لغارت في السماء، وأخفت وجهها خجلاً. ولو عرفت السحب، إذن لهطلت مطراً مدراراً لكي تغسل وتحمل تلك المأدبة الاحتفالية بعيداً من هنا، إلى السهب المنبسط».

ــ يا للروعة، يا أرسين.

ــ كما غنى الأقين فيما بعد: «ولو عرف النهر بتلك الفتنة ــ إذ كان الحبيبان انحنيا احتراماً للنهر في ساعة خطبتهما، وأقسما على الإخلاص ــ لنكص على أعقابه».. حتى الطبيعة الرصينة كان من شأنها أن تتمرد ضد حقارة كهذه الحقارة. لكن من كان بوسعه أن يكتشف هذه النية الخفية الحقيرة ما دام التناغم سائداً العالم ــ فالشمس تشرق بكل سخاء فوق الجبال، والمطر يهطل على مقربة، وقد بسط برودته، وانبسطت المروج تحت الأقدام، بكل ارتياح، وكان الدخان فوق النار يدعو الضيوف برائحة الطعام الشهية، والطيور تحلق فوق الرؤوس أسراباً سعيدة. وعن هذا كله تتحدث أغاني الأقين.

كان حفل الخطوبة يجري في الوادي، عند النهر، على قدم وساق، فتمور الحياة أصواتاً وصخباً وكان الشباب الأكثر حماسة في ألعاب الفروسية، وكان الشامانات يبثون الروح في الرقصات والحركات المجنونة، وهم يدعون الأرواح من كل أنحاء العالم، لكن النشاط

---

[1] أقين: شاعر كازاخستاني.

الأبرز كان من نصيب الحبيبين ـ السباق على الجياد ومباراة «اللحاق بالعروس».

امتطى العريس والعروس صهوة أفضل حصانين، استعداداً لبدء لعبة السباق:

كان على العريس أن يلحق بالعروس، المنطلقة أمامه على مسافة معينة، وأن يقبلها والحصانان يجريان. وإذا ما تمكن من ذلك فهذا يعني أن السعادة بانتظارهما وأن القدر يرعاهما..

كان منظر العروس، وهي على صهوة الجواد في غاية الروعة والجمال، كأنها خلقت لهذا، بقامتها، بطولها، بوجهها وقيافتها ولباسها العذري. وبدوره لم يكن العريس يقل عنها روعة. كانت نظراتهما المتألقة، المتوترة بانتظار السباق، وابتساماتهما المرتبكة قليلاً، تضفي السعادة على جميع الحاضرين، الذين ينتظرون بفارغ الصبر مشهد السباق الساحر. وأطلقت صديقات العروس صيحات التشجيع العالية: «انطلقي بأقصى سرعة، لا تدعيه يلحق بك، فليعرف الرجال مدى براعتنا». وبدوره تلقى العريس كلمات النصح: «إياك والفشل في اللحاق بها، وإلا أصبحت أضحوكة»؛ أما الشامانات فكانوا لا يكفون عن صخبهم ـ يرقصون ويقرعون الطبول، مما يزيد الناس والحصانين حماسة..

وها قد أعطى الشيوخ الإشارة، وبدأ السباق. كانت العروس تجري في المقدمة، والعريس في أعقابها. كانا يجريان صوب النهر، الذي شهدت ضفته خطبتهما.

كان السباق مسموحاً حتى المخاضة فقط. وإذا ما فشل العريس في اللحاق بالعروس، فإن العروس تلتفت للقاء العريس وتقبله قبلة الظافرة على وقع قهقهات الجميع.

لكن في العادة يلحق العرسان بالعرائس بشكل دائم..

إلى الأبد سيستمر هذا السباق السحري حياً في ذاكرة العروس، وهي «تهرب» من العريس المحبوب، الذي تحلم بالبقاء معه، ولا تفارقه أبداً، وبدوره لن ينسى العريس كيف يلحق بعروسه على إيقاع همهمات أبناء قبيلته وصفيرهم.

وفي هذه المرة أيضاً انطلقت العروس، هرباً من العريس، كالطير، وهو الآخر انطلق في إثرها. كانت الريح المعاكسة تحتضنهما كليهما، وتقبلهما، وهما طائران، وتهمس لهما أن هذه المطاردة ستكون اللحظة الأسعد في حياتهما.

يا لها من لحظات فاتنة، مفعمة بالمرح والفرح والحماسة. وظهرت الضفة أمامها، وهما ما زالا مندفعين والجوادان قد احتدا بسبب الجري. وراحت العروس على أحر من الجمر تترقب في داخلها أن يلحق بها وهي مندفعة، ذاك الذي أرادت أن تربط به حياتها إلى الأبد، لكي تُحِبَّ وتُحَبَّ. وبشكلٍ لا إرادي راحت تكبح جماح جوادها قليلاً، وشدت العنان شيئاً فشيئاً، وزادت من الضغط على الركاب بجزمتها. فليلحق بها العريس بأسرع ما يمكن، وإلا فها هو النهر يبدو جلياً.. وها هو ذا وقع حوافر الجواد و لهاثه يزدادان قرباً، وها هما يجريان زوجاً واحداً، أحدهما بجوار الآخر، والركاب يلامس الركاب وتجلى أمام أعينهما عالم لا عهد لهما به من قبل. إنها ومضة ساحرة، لكن للأسف لا تدوم. وهاهو يحتضنها، وهما طائران، فتميل

نحوه، وهاهو يقبلها، فتقبله هي مرة وأخرى، بينما الجوادان مندفعان، والفارسان يدركان أنهما يتحدان إلى الأبد. ودوّم في أذنيها: «أحبك، أنت لي» فردت العروس: «لسوف أكون معك مدى الحياة».

ابتهج الناس، وصاحوا بصوت واحد، يمتدحون العريس: «مرحى لك. فارس حقيقي، افتحوا الطريق، افتحوا الطريق. ابتعدوا! هاهو يعود. إنه الآن لنا، وهو معنا ونحن معه». بمثل هذه الصيحات اختتم حفل الخطوبة.

لكن المكيدة الخفية لم تضعف، لم تتراجع، لا بل إن المتآمرين كزوا على أسنانهم بقوة أكبر، والفتنة تعثر دائماً على المسالك..

وفي هذا الوقت، وبعد الوداع، عاد الضيوف ــ الخطاب إلى ديارهم، لكي يستعدوا للعرس. بدأت التحضيرات على جناح السرعة. كل شيء كان يجري على ما يرام، كما تقتضي التقاليد والعادات ــ بدءاً من مكان نصب خيمة العروسين، التي سيمضيان فيها ليلتهما الأولى معاً، بحيث تكون في مكان بارز، بعيداً عن الخيام الأخرى. وكذلك توزيع خيام الضيوف من الخطاب والأقارب، وانتهاءً بتحضير الهدايا ومواد الضيافة. كما تم إعداد روايات الأقين وأغاني الشباب ورقصاتهم. هذا ما كانت تقتضيه تلك الأزمنة، فالعرس حفل مشترك لجميع أبناء القبيلة.

وها قد حل اليوم السابق لوصول الضيوف وبُدِئ حفل الزفاف. ومنذ الصباح كان الخطيب ــ الصياد قد انطلق للصيد برفقة اثنين من أخوته، للحصول على جلود الوحوش لتقديمها هدايا. كان الصيد وافراً.

ومع اقتراب الظهيرة ترددت فجأة صيحات بعيدة. كانت تلك صيحات أقارب الخطيب الصياد، جاؤوا في إثره، وراحوا ينادونه. كانوا كثرة، وكانوا مضطربين: «مصيبة! مصيبة! توقف. عد أدراجك» ــ راحوا يصرخون! ثم نقلوا إليه، وهم يدقون بأيديهم على صدورهم ــ النبأ الرهيب:

في الليلة الماضية هربت خطيبته مع حبيبها الأول، ويعتقد الكثيرون أنها نقلت إلى المدينة التجارية الكثيرة السكان.

ولا تسل عما حدث حينها! فجأة اكفهرت السماء دفعة واحدة، وهبت ريح عاصفة، وكما لو أن الوقت شتاء، دوّمت زوبعة ثلجية، والوقت صيف.

يا للعار ــ صاح الأقارب، وراحوا يرتمون على الأرض من فرط اليأس، ويتوسلون إلى السماء ــ لماذا، لماذا أرسلت لنا هذا العار؟ لابد من قتلها. لابد من العثور على قليلة الحياء تلك، وقتلها في مكانها. واستعدوا للانطلاق بحثاً عنها في الحال. لكن الخطيب ــ الصياد بقي في مكانه ساكنا لا يريم. زلزله النبأ. تسمر في مكانه، شاحب الوجه، كأنه قد تخدر.

يا للهول، يا للهول ! ــ همست آيدانا، بتألم صادق.

وهكذا فأنا أسألك ــ أردف أرسين سامانتشين ــ هل ستقدمين كل هذا على خشبة مسرح الأوبرا؟ فيالها من موسيقي، من حماسة، من أصوات ومن ميزانسي[1] ثم أعقبت يا آيدا أحداث أكثر هولاً.. فبينما

---

[1] ميزانسي (فرنسية misensee) وتعني التوزيع علـــى خـــشبة المـــسرح أي توزيع الممثلين على الخشبة

راح الأقارب وهم يستعدون للمطاردة على عجل يدفعون العريس الصياد ويستحثونه كي يهمز جواده، فتح هذا فمه أخيراً: إذا كانت هذه اللعنة قد وقعت على رأسي، فإنني ألعنها هي السافلة وألعن الجنس البشري برمته، الأفضل أن أكون وحشاً، على أن أكون إنساناً والآن اغربوا عني . من الآن فصاعداً لن أرى أي إنسان في العالم، ولن يراني أي إنسان، ألا تسمعون؟

اغربوا بعيداً عن عيني، ولا تبحثوا عني، وبعد أن نطق بهذه الكلمات ترجل عن جواده، وانطلق على قدميه عبر الجبل.

في البداية تسمر الأقارب الذين زلزلهم هذا الانعطاف للأحداث، في أماكنهم ومن ثم اندفعوا لكي يلحقوا به، لكنهم لم يعثروا له على أثر، ومنذ ذلك الحين لم يروه أبداً.

ومن جديد إليك هذا المشهد الدرامي الخاص بالمسرح حصراً.

في طريق العودة فوجيء أقارب العريس ـ الصياد بسماع صوت العروس، التي ظهرت بغتة، وها هي الآن تلف وتدور بحثاً عن خطيبها، وهي لا تكف تناديه، وحتى الآن لم يكن أي منهم يعرف أنها لم تهرب مطلقاً وأن ذلك كان مكيدة خبيثة قاتلة، وكان ما جرى في الواقع أنها اختطفت في تلك الليلة، قيدوا يديها وأجلسوها على جواد، ثم أخذوها بعيداً. وعند ضفة النهر، النهر إياه الذي شهد حفل خطبتها إلى عريسها ـ الصياد، فكوا وثاقها لكي يسندوها من الجانبين، أثناء عبور المخاضة، وهذا ما أنقذها، فقد أفلتت ورمت بنفسها في النهر، واندفع خاطفوها في إثرها، لكنها اختفت في المجرى السريع لقد أنقذها النهر الذي جرف خاطفيها عبر مجراه، ثم حطمهم على الصخور. ولقد اكتسبت العروس، التي نجت بأعجوبة، موهبة

الطيران، ولم تلبث أن ظهرت في تلك الأماكن، حيث كان الأقارب قد فارقوا للتو خطيبها، الذي اختفى، بلا أثر.

والآن راحوا يحاولون إيقافها، ومعرفة ما جرى لها، لكنها هي الأخرى اختفت و أضحت عصية عليهم. ومنذ ذلك الحين يعيش بين ظهرانينا سر العروس الخالدة، ويتردد في الجبال بكاؤها الأبدي، والذي يسمع بعيداً ــ بعيداً.

لسوف أنشدك يا آيا، بالأسلوب الذي أجيد، فاسمعي إليها، وهي تنادي:

ــ أين أنت؟! أين أنت؟! إليك أعدو.

لقد خُطِفْت، لكنني تمكنت من الهرب.

ما زلت عذراء، فأنا مخلصة لك.

أين أنت؟! أين أنت يا حبيبي؟

أنا عذراء، ألا اسمعني.

نهرنا، الذي أقسمنا عنده على الحب، أنقذني.

أين أنت؟ أين أنت؟ ألا اسمعني.

لكنهم يطاردونني، يريدون أن يختطفوني..

لقد اختفيت في الجبال يا صيادي

على ضفة النهر كانت خطبتنا

فأين أنت، أين أنت، و في أي الجبال؟

أين أنت؟ أين أنت؟ إنني إليك أجري

على ضفة النهر تمت خطبتنا

لقد اختفيت في الجبال يا صيادي..

أنا خطيبتك، فأين أنت، أين؟

أيعقل أننا لن نلتقي بعدُ أبداً؟

ولقد شربت وإياك الماء من نهر واحد.

وعلى ضفة النهر أقسمنا على الإخلاص.

أيعقل أننا لن نلتقي بعدُ أبداً؟

والنهر يجري، لكن أينَ أنتَ؟! أينْ؟

تذكر، رد علي يا صيادي.

على الحب أقسمنا، بالقمر، بالروحِ..بـــ..

فأين اختفيت يا صيادي؟

أيعقل أن الجبال لن تتحرك؟

أيعقل أن السحب لن تتفرق؟

أيعقل أن الشمس لن تنير الشعاب؟

أيعقل أن العنزة الجبلية لن تدلني على الطريق إليك؟

فأين أنت؟! أين أنت؟! في أي الجبال؟

أين أنت، أين أنت، إنني إليك أجري..

ألم نكن نحن من تسابق على الجياد؟

ألم نكن نحن من تبادل القبل على صهوات الخيل؟

لكي ترى الآلهة..

لكي يرى الناس..

أين أنت، أين أنت، في أي الجبال؟

أين أنت؟! أين أنت؟! إليك أجري..

بدونك ينطفىء القمر في عيني.

بدونك لن تبقى لي حياة.

أيعقل أن تكون السماء سعيدة بدوننا؟

من الذي لعننا؟! من الذي فرقنا؟

أيعقل أن تكون الجبال سعيدة بدوننا؟

من الذي لعننا، من الذي فرقنا؟

ألم تقدم القرابين للآلهة من الطرائد الجبلية؟

ألم تقدم الهدايا للخطاب من جلود النمور؟

فأية جريرة جنيت أمام القدر؟!

وأنت صياد محظوظ، ذو يد سخية؟

أيعقل أننا لن نرقص معاً حول النار؟

أين أنت؟ أين أنت؟ في أي الجبال؟

أين أنت؟ أين أنت؟ إليك أجري..

لكنهم يطاردونني، يريدون أن يختطفوني

كي لا ألتقي وإياك، بعد الآن إلى الأبد.

أين أنت؟! أين أنت؟! إليك أجري....

أوخْ، دعيني أرتاح قليلاً ــ قال أرسين سامانتشين، بِنَفَسٍ متقطع ــ دعيني ألتقط أنفاسي، يمكن أن تتلى هذه القصيدة طويلاً، مع تكرار بعض الأبيات مرة وأخرى، والتوسع فيها، فعذاب الروح ــ ألا تشعرين؟ ــ فهذا البكاء موجه إلى كل الأزمنة والأماكن. إن جوهره يكمن في المصير المأساوي الأزلي، الذي كتب على المحبين، الذين

أصابهم الفراق القاسي، والذين لن تنتهي مأساتهم إلا بعد أن يلتقي كل منهم بالآخر. لك أن تتصوري فقط أن أحداً لن يقف موقف اللامبالي، بل إن الجميع سوف يتعاطفون مع الحبيبين، فعلى هذا النحو جبلت النفوس البشرية. كم سيكون عرض هذا مؤثراً في المسرح! حتى النهر سوف يبكي في الأوبرا وهو يجري على أطراف الخشبة. لم يسبق للفن الأوبرالي أن عرف شيئاً من هذا القبيل ــ فالنهر، الذي أنقذ العروس، التي خطبت على ضفته، هذا النهر يشدو:

ــ أنا النهر، الجاري من الجبال إلى الوديان.

سوف أنقذك في جرياني.

وأحملك بعيداً عن الأعداء الماكرين.

لسوف أغيثك، فأنت معبودتي.

هيا ارم بنفسك عن الضفة بسرعة.

ارم بنفسك في الماء بسرعة.

ولسوف أنقذك في جرياني.

هكذا سوف تغني الجوقة وراء الكواليس، على وقع اصطخاب النهر، وفي ذلك رمز إلى أن الطبيعة نفسها تتوق إلى العدالة. وكل هذا مشبع بالموسيقى الأوركسترالية القوية، وعلى خلفيتها يشدو صوتٌ ساحر، صوتٌ محلق، إنه صوتك، وحده صوتك ــ حتى السماء تسمع العروس الخالدة، والقمر يردد... هل تتصورين هذا كله؟

ـ أجل، إن قلبي لينفطر، للمرة الأولى أسمع مثل هذا البكاء الكوني الشامل ـ ردت آيدانا ـ والنهر يشدو يا للروعة! النهر الشادي: وأنت تذكر هذا كله يا أرسين، كلمة، كلمة؟

ـ منذ نعومة أظفاري حضرت الكثير من النيران الليلية الخاصة بالعروس الخالدة، وكنت أسمع هذا كله في قصائد أقيننا. يا إلهي كم كانوا يستغرقون في هذه الليالي في التمثيل، وهم يؤلفون رواياتهم! كل أقْيَن يتعذب ـ بأسلوبه ـ من أجل العروس الخالدة، ويطلق روحه بين الجبال ـ تنادي العروس الخالدة! إن هذا عندهم كما الغناء عندك على الخشبة، وليس عبثاً أن يلقبوا بـ توكو. ـ أقين. وفي ذات مرة سألوني كيف نترجم إلى الروسية «توكوأقين«، إنها تعني الـ «بارْد[1] الشادي»، ولا يمكن أن نترجم إلا على هذا النحو. أما عندهم، عندي الأقين فإن الإلهام يكمن في أنه يوجد بالقرب منهم مستمعون يشاركونهم انفعالاتهم، وحينها ينغمر الأقين بكلمته في بئر الفكر العميقة، أو يندفع كما الريح عبر السهوب..

ـ أجل، أجل ـ وافقت آيدانا ـ ومع هذا، وكما يتساءل الناس، أين اختفى الخطيب ـ الصياد؟ بودي أن أعرف ـ هل هو حي يرزق، ولماذا هو صامت؟

ـ هذا بدوره سؤال أبدي، فلا أحد يعرف أين هو، وماذا جرى له، ومع هذا فالجميع ينتظر. عادة ما يقال إنه يختبيء في الأماكن المنيعة، ففي غضبه من العالم كله، وفي غضبه من قدره نبذ نفسه أيضاً. ويقال إنه أصبح راهباً ـ ناسكاً، يعيش في التيبيت نفسها، في

---

[1] بارد كلمة كلتية قديمة bard وهو لقب كان يطلق على الشعراء القدامى لـدى الكلتيين.

مغاور النساك منصرفاً إلى التأملات ليلاً ونهاراً، هذا ما يقال، لكن من يعرف إلى أين قادته ثورة غضبه؟ إن هذا من ناحيته تحد للجوهر الإنساني نفسه ــ فهو يرفض رفضاً قاطعاً الشر، الذي غالباً ما يقبل به البشر، يالها من خيبة أمل لا دواء لها. حتى الأباطرة، انظري في التاريخ، الذين فقدوا إمبراطورياتهم لا يصابون بمثل هذه السوداوية الفظيعة، لا ينبذون الحياة نفسها، لكن الحب عنده، عند هذا الخطيب، كان يشكل مغزى الحياة الأسمى. وإجمالاً فإن القصة تدور حول هذا بالذات، وهنا تكمن فلسفتها الملحمية. بيد أن الشخصية الرئيسة في هذه القصة إنما هي بالطبع، العروس الخالدة، في مأثرة عذابها التي لا تنتهي، في بحثها عن الحقيقة.. أيعقل أن تكون عاقبة الحب على هذا النحو دائماً؟ فالذي حصل هو ان الخطيب تبرأ من العالم إلى الأبد، وابتعد من تلقاء نفسه كتعبير عن رفضه للفظائع والآثام البشرية، أما هي فتعاني من الندم والحسرة الأبدية فداءً للجنس البشري، وفي هذا يكمن عمق وقوة حبها ومحنتها، وأقول أكثر من هذا ــ إنها أنين العذاب، عذاب البشرية بأسرها. ترى ما السبب في أن التراجيديات الحارقة هي في الحب دائماً أكثر مما هي في السعادة المزهرة؟

انتبهي إلى أنه في هذه الصورة السريعة ــ التبخر للعروس الخالدة، في هذه الحكاية الملحمية، يعيش الألم الأزلي للفراق والتكفير عن العدوانية الأزلية للجنس البشري، فلا مندوحة من أن يدفع الخير ثمن الشر، والعروس الخالدة لا تستطيع القبول بالشر الذي يتأجج بالكراهية والحسد، إنها تريد إنقاذ خطيبها الصياد، وإعادته من منسكه إلى الحياة، كما هي. وفي هذا الاندفاع الإنقاذي، في الطموح إلى الحقيقة، لا يوجد حد للروح الإنسانية لا في الزمان ولا في المكان، هذا ما كان دائماً، وهذا ما سيكون أبداً في الجنس البشري، ولهذا أصبحت العروس الخالدة، التي أنقذها النهر، صورة رمزية إلى الأبد،

وهي في هذه الساعة، هنا في المنتزه، معنا لأننا نفكر بها، ونتحدث عنها، وهي تشعر بذلك، ألا تميزين في هذا الاستطراد الفولكلوري نغم الحنين الكوني للحب؟

ـ كيف لا ! فلقد ألقيت علي عن ذلك محاضرة كاملة، كونية أيضاً ـ قالت آيدانا بإعجاب، لا يخلو من السخرية. ـ يدهشني جموح فكرك ـ هتفت، بعد أن حركت كتفيها العاريتين، كمن يشعر بالبرودة ـ ألا تذكر كيف أطلقت عليك إحدى الصحفيات لقب «العولمي الكوني»؟ شيء مضحك حقاً: عولمي وكوني في الوقت نفسه.

ـ حسن حتى ولو كنت غريب الأطوار، لكن أمامك مهمة مختلفة تماماً ـ تقمص العروس الخالدة على خشبة المسرح الأوبرالي، والصعود بسحر صوتك الرائع إلى الفضاء الكوني مباشرة.

ـ أُوْيْ، كفاك! عن هذا المقعد وإلى الفضاء مباشرة، إذن سوف أكون مغنية فضائية، مغنية فضاء؟ من يرافقك لا يعرف الملل.

ـ عفواً، لكنني أقول هذا جاداً، أولم تشعري أن العروس الخالدة معنا هاهنا، في المنتزه، هاهي هناك خلف الشجرة، القريبة من المصباح، وهل تعرفين ماذا تقول؟

ـ ماذا؟

ـ أصيخي السمع! إنها تقول: لقد انتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر، لكي أنحني لكما أيها الحبيبان، وأنتما تتذكرانني. مرت الأعوام والقرون، وأنا لا أزال عروساً مخطوبة، ولهذا يضرم الناس النيران في الجبال ليلاً من أجلي، لكي أتجلى لهم، أنا التائهة في الحسرة والفاجعة. تشدني النيران، الساطعة لكي نلتقي عند النيران، ولكي

يستدعي الشامانات الأرواح، ويسألوها إلى متى ستستمر العروس الخالدة تطوف الجبال وتنادي خطيبها الصياد، وإلى متى ستستمر في النداء وجر المطاردة على نفسها؟ أما الأرواح فترد بشيء واحد دائماً، اسمعي ـ اسمعي يا آيدانا، فهذا يتعلق بنا أيضاً، أنا وأنت ـ ترد الأرواح إن العالم سيسمع بالعروس الخالدة من خلال إنشاد أشعارها على مرأى الكثير من الناس وإنها تكشف في تلك الأشعار عن قدرها المفجع، وتخاطب جميع فتيات العالم بقولها: غنوا أغنيتي لعرسانكم، عربونا للحب الصادق والإخلاص، ألا فلتسمعنا الأرواح أنا وأنت في هذه الساعة يا آيا! إنها تنتظر غناء العروس الخالدة بأدائك أنت على مرأى الكثير من الناس، أي الجمهور، وتقول الأرواح إن التقمص كتب على جبينك من علٍ، وإنك ستصبحين رسول العروس الخالدة، وسترفع لك آيات الشكر، وسوف يحترمك الناس، ويعجبون بغنائك، ولسوف يتدفق صوتك من الفضاء الكوني..

ـ أوي، أوي، أوي، كم حلقت عالياً!

ـ قاطعته آيدانا ساخرة ـ كفاك تحليقاً في الفضاءات الكونية، يجب أن نفكر عقلانياً

ـ لا داعي للعجلة ـ لم يستسلم أرسين سامانتشين ـ إن التفكير العقلاني آت، أما الآن فهاك، انظري. أنت لا تصدقينني، إذن فانظري، إلى هناك تحت الشجرة عند المصباح، ألا ترين ظل العروس الخالدة؟ انظري إليها، وهي تنحني بكل امتنان وأمل. إنها شابة دائماً، وكم هي جميلة في هذا الفستان الحريري الشفاف، وفي هذه الطرحة الشبيهة بالجناحين.

أومأت آيدانا برأسها كنوع من إشارة الموافقة، ثم قالت:

ـ إنك يا أرسين لرومانسي قحٍ فعلاً، لكن حتى التحليق على أجنحة الأحلام يجب أن يكون واقعياً، فلكي تغني العروس الخالدة على الخشبة لابد من الموسيقى لابد من النوطة ومن البارتيتوار والأوركسترا ومن السينوغرافيا[1]، والأزياء ومن جوقة في مئة صوت.. أنت تقول إن النهر سوف يغني لكن أين الآلة المسرحية اللازمة لذلك؟ وفي خاتمة المطاف أين الملحن، المخرج، والأهم في عصرنا هذا من أين لنا بالمال اللازم لذلك؟ والمسرح الأوبرالي قد ذبل وذوى في كل مكان، وليس لدينا فقط، فلدى الدولة الآن ما هو أهم من الأوبرا.

وعلى الرغم من أن أرسين سامانتشين بدا وكأنه موافق فإنه لم يتراجع:

ـ أجل أعرف أن المسرح الأوبرالي اليوم، هو كما المعبد الخاوي. وعلى خشبات مسارح الأوبرا تسود الآن حفلات المنوعات والتهريج وغير ذلك من العروض المسلية. أعرف أن أفضل المغنيين والمغنيات فروا للغناء في مجاهل الأسواق. كل هذا صحيح ويندر العثور بين الملحنين المعاصرين على ملحن واحد يكتب الموسيقى الأوبرالية، ومع هذا فلا ينبغي للفن الرفيع أن ينقرض. كيف بمقدورنا أن ننظر إلى ذلك، وكأن شيئاً لم يكن؟

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

ـ إذا ما وافقت يا آيا على غناء العروس الخالدة، إذن فلسوف أشق الطريق كما البلدوزر. ولسوف أبلغ مرامي، ثم إن الاتفاق مع الملحن

---

[1] كلمة ألمانية تعني فن دوكرة خشبة المسرح

أبلايف أصبح جاهزاً، وهو ينتظر، أما الليبريتو فأنا من سيكتبه. بود الملحن أن نلتقي جميعاً معاً. بعد عودتنا سوف أتصل به...

ــ حسن سوف نرى سوف نرى... في البداية اكتب الليبريتو.

كان منتصف الليل قد بدأ يخيم على منتزه هايدلبيرغ العريق وفي الممرات، تحت المصابيح تسمرت الظلال في أماكنها، وستبقى على حالها حتى الصباح، وهنا تأبط أرسين سامانتشين ذراع آيدانا ساماروفا، وقادها إلى القلعة، وهناك تابعا الحديث عن الموضوع نفسه، وفي الفراش أيضاً تهامسا حول هذا الأمر. وكان من المقرر أن يطيرا في صباح اليوم التالي إلى موسكو، ومن هناك إلى الديار.

كان هذا اللقاء بينهما هو الأخير من نوعه، لكن فكرة العروس الخالدة، التي بدا وكأنها أرسلت لهما من علٍ لكي تبث الروح في لقائهما، سيطرت عليهما إلى درجة أنه خيّل إليهما وكأنهما بفضلها وجدا نفسيهما في الطرف الآخر من العالم، في مركز الرومانسية الألمانية، وغاصا في سحرها لكي يحلقا فوق الحياة العادية. وفي ذلك الجو الرفيع ــ رومانسياً. ربما لهذا السبب أُهمِلَت الحياة السابقة كلها بمصاعبها ونزاعاتها وفضائحها والدعاوى في المحاكم والكراهية والضغينة، وطواها النسيان تماماً... كل هذا لامَسَ حياته وحياتها هي أيضاً، فأيدانا سبق أن منيت بزواج فاشل، لكنها تطلقت بسرعة، كما يحدث غالباً للفنانين، لكن كل شيء طواه النسيان للحظة. فهنا في منتزه هايدلبيرغ المعمر، إلى حيث جلبهما قدرهما، كانا الكائنين الأطهر: هو إله وهي إلهة، وتجلت لهما العروس الخالدة بفاجعتها التي لا تندمل....

وفيما بعد أخذت الأمور مجرى آخر....

إنه القدر إذن، صحيح أنهما غالباً ما كان يلتقيان في البداية ويناقشان على عجل فكرة «العروس الخالدة» وإن تبين أنها طوباوية، ثم تبادلا المكالمات الهاتفية، وبعدها انقطع كل شيء. رحلت آيدانا في الليموزين، وراحت تعرض نفسها في البث المباشر أمام جميع مشاهدي التلفزيون في البلاد، وكم من المال يرقد في صندوق تلك الليموزين؟ لكن هل تستحق اللوم على هذا؟ فمن لا يتعطش لأن يملك ويكسب الكثير، ويحصل على الشهرة فوق ذلك. وإجمالاً كيف يمكن تفويت هذا النجاح الاستعراضي، علماً أن لديها الآن على الأرجح عقداً موقعاً معه، مع إيرتاش كورتشال وهو في كل الأحوال عقد القرن. إن له الحق، أجل إن له الحق، وأنت ماذا تقول أيها المناضل المسكين ضد الأوليغارشية؟ ماذا لديك عدا كتاباتك؟ لكن الإعلام نفسه الآن في أيدي الأوليغارشيين المحليين ـــ أوسع أرسين سامانتشين نفسه لوماً وكرهاً، لأنه وصل إلى هذا الدرك ـــ إلى الحسد، ووصف نفسه بالمتوحش.. واصطدم بالطريق المسدود. وهنا كان لا بد من وضع النقاط على الحروف. يقول أحدهم: القوة تغلب القوة، وهنا تكمن القوة. الثقافة الجماهيرية هصرته وهوالمثالي، بحيث لن يتمكن من الوقوف أبداً... أما إيرتاش كورتشال فقد أصبح الجبار المعترف به. فكم لديه من المطاعم ومسارح المنوعات والاستعدادات، وكم لديه من وكالات الإعلان والأقنية التلفزيونية. وكل هذا على رؤوس الأشهاد، فهو يملك هذا كله بشكل شرعي تماماً، وهو الذي جلب الموجة المحيطية للثقافة الجماهيرية، فجرفه هو، أرسين سامانتشين، ومعه «العروس الخالدة» إلى مجاهل المشاريع الفاشلة...

وفيما بعد أضيفت محنة قاسية غير منتظرة ـــ فقد وقعت روحه تحت الكابوس الرهيب لنية قتل إيرتاش كورتشال نفسه، لعنة الله عليه. ولم يكن بالإمكان الهرب الآن من الرغبة الجامحة في الانتقام. هذه الرغبة، التي تتوهج لظىً في أعماق روحه ـــ أن يقتله، ولا

شيء آخر. وهنا كانت تتلاقى أفكاره كلها. ترى ألا يعود غضبه هذا إلى عقدة الشعور بالنقص؟ إن الحسرة تضغط على حنجرته، وتمنعه من التنفس ــ إنه بكلمة واحدة قد سعى إلى حتفه بظلفه، القدر؟ من كان يخطر له أن هذه الفكرة الرومانسية ــ المثالية، التي ولدت نشوة الحب، ستحل بهذه الصورة الرهيبة ــ الاستعداد العنيد، عناد الثور، للقتل. لكن حتى في الأيام اللعينة الزاحفة كانت الروح بين الحين والآخر تستعيد صفاءها، فتعاوده الفكرة الأروع في إقناع آيدانا ساماروفا بإعلان الندم معه أمام العروس الخالدة، فيسافرا لهذا الغرض إلى الجبال ليضرما النار، ويطلبا الصفح عن الأوهام الهايد لبيرغية، التي لم يكتب لها النجاح، ويسكبا الدموع..

بيد أنه لم يتمكن من الاتصال بها أبداً. ولعل هذا أفضل ــ يمكن أن نتصور كيف كانت ستسخر منه: لقد جن الرجل تماماً.

ومع هذا ظل يحلم: إذا ما وجدنا أنفسنا في الجبال فجأة، لكي نؤدي التوبة أمام روح العروس الخالدة، إذن لركعت على ركبتي، ولدعوت السماء نفسها شاهداً ــ ليس لدى الحب، ولا ينبغي أن تكون لديه، أية أسباب ليتخلى عن نعمة الخلود (ها قد عاد إلى التفلسف). لأن الحب هو طريق الحبيبين المشترك إلى الخلود، وليس التهديم المقصود لعاطفة الحب سوى تطاول على الخلود، فالحب هو الطموح إلى الخلود، وكل يسلك الدرب، الذي قدره الله له مسبقاً.. (لكن المهم هو كيف يسلك هذا الدرب كل شخص ــ تلكم هي المسألة).

ــ ومن جديد، كم كانت ستتهكم منه، فمن يحتاج إلى هذا كله! فهل يمكن لها، وهي النجمة، التي تحلم بــ «الهوليودية» (يقال إن إيرتاش كورتشال هذا ينوي إنتاج فلم لها)، هل يمكن لها أن تهدر وقتها،

المكرس كله لعالم البزنس، بانتظار الأرواح في مجاهل الجبال، بانتظار العروس الخالدة؟ شيء مضحك.

وهكذا لم يكن ثمة بصيص أمل يلوح في الأفق. وبكل وضوح، لا يقبل التأويل، جعله القدر يفهم ذلك في مطعم «يوروآسيا». كانت تلك (شقلبة) الختام... وهنا لم يبق أمامه من أسلوب آخر للرد، عدا الحصول على السلاح... لكن من أين، وكيف؟ يا لها من مشكلة عويصة. ترى لما تقودنا الحياة بكل هذه الوقاحة إلى مثل هذه المآزق، التي لا مخرج منها؟ وإذا كان الأمر كذلك. فما الداعي إلى تهديم الحياة الدنيا إلى غير رجعة، وتقطيع أوصال الغابة يميناً ويساراً؟ ما الفائدة؟ لم يبق إلا أن تقول كلمتك الأخيرة، وأنت تهلك.

يا لها من ليلة ليلاء مرت على أرسين سامانتشين، ليلة مفعمة بالتأملات والصراع الداخلي، بلا خاتمة. كان يقف في وحدة مطلقة، لدى النافذة الوحيدة المضاءة، والمطلة على ساحة المساكن، المؤلفة من خمسة[1] طوابق، والنائمة عن بكرة أبيها، يتعذب، يحزن، ويحاكم نفسه، محاولاً إقناعها بعدم اللجوء إلى القتل، والانتحار الحتمي، والإقلاع عن ارتكاب الجريمة الأفظع في الدنيا، لكنه لم يتمكن من كبح جماح الانتقام في نفسه. وهكذا فقد كان يتعذب.

وبدوره كان النمر الأرقط يتعذب تلك الليلة في الجبال، تحت القمة الشاهقة. لم يتمكن الوحش الوحيد من النوم، وكان هو الآخر يتعذب ويتحسر في بؤسه التام. فكان يزأر بغضب، ناظراً إلى النجوم الكثيرة العدد، وهي تتلألأ بوئام. لو كان بالإمكان الابتعاد إلى هناك، فالنجوم لا ينبذ بعضها البعض. تعيش معاً صيفاً وشتاءً..

---

[1] يبدو وأن الكاتب قد أخطأ هنا، فالبيوت من سبعة طوابق كما سبق أن وردت.

إلى هذه النجوم نفسها كان ينظر أرسين سامانتشين في تلك اللحظة. هو، أيضاً تملكته الرغبة في أن يجد نفسه بينها، وألاّ يفكر بأي شيء..

لكنه لم يتمكن من الإقلاع عن التفكير ـ فمن مكان ما في الأعماق طفت فكرة اللجوء إلى أخيه **أرداك سامانتشين**؟ فلدى أرداك من المعارف والعلاقات مع التجار أكثر مما لديه هو بكثير. فأرداك طبيب الداخلية السابق، يعمل في ميدان تربية الكلاب، فيربي كلاب الرعاة، المعروفة في آسيا الوسطى، ومن ثم يبيعها في أوروبا، في ألمانيا على الأغلب. والطلب على كلاب الرعاة هذه كبير جداً، وعدد الراغبين في شرائها لا يحصى. وأرداك ماهر في إنجاز المعاملات الرسمية، التي تسمح بإخراج الكلاب، بشكل مهني وفي الوقت المناسب، وإجمالاً فهو يعيش من هذا، لديه في الأسرة ثلاثة أولاد ـ تلاميذ ـ بنت وصبيان. أما زوجته، جُلّنار، فهي ممرضة سابقة. ولقد استطاعا أن يتكيفا مع السوق. «سوف أتكيف بفضل الكلاب» ـ يقول أرداك بين المزح والجد. ولديهما بيت على أطراف المدينة، وحوش وأقفاص للكلاب... كما إن لديهما «جيغولي[1]».

وأرداك شخص جيد، يكد في العمل، ولقد قرأ الكثير. لكن الأقارب في مسقط رأسه، **تويوك ـ جار** غير راضين، ويدينون «بيزنيسه» الكلبي، إنهم يشعرون بالخجل من أجله. درس، ودرس، وحصل على دبلوم طب، وهو الآن ـ ويا للعار ـ يتاجر بالكلاب على نطاق العالم كله. وحين يدور الحديث عن (بيزنيس) أرداك، تشعر **كاديشا**، أختهما الكبرى، التي تعيش في الآيل، بجرح كرامتها، حيث يحمر وجهها خجلاً، وتنزعج كثيراً. وفي الآيل يشعر الكثيرون بالحرج من واقعة تجارة الكلاب نفسها: شيء غير معقول، فهي موجودة بأعداد

---

[1] نوع من السيارات الروسية القديمة.

كبيرة في الساحات والحواكير، وما عليك إلا أن تمسك بها أو تأخذ منها الكمية التي تريد. ومن يدري فعما قريب سوف نتاجر بالقطط، وربما حتى بالجرذان. أما أرداك فصامد، صحيح أنه لا يأتي إلى الآيل ــ فما الداعي إلى سماع هذا؟ لكنه بالمقابل، وبصفته الأخ الأكبر، فإنه يقول لأرسين معاتباً: إلى متى ستبقى تضرب في الأرض عازباً؟ لماذا تؤجل الأمر فالنساء المناسبات موجودات بأعداد لا تحصى في المدينة والآيلات. طيب، فشلت في الزواج، وطلقت، لكن لا يمكن البقاء بلا زوجة مدى الحياة. أجل إن لديك تفكيرا آخر. تعرف اللغات، وأنت صحفي مشهور، مستقل ــ هذا هو الدارج اليوم ــ وتدعى إلى المؤتمرات في كل مكان... وباختصار فإنك مكتف ذاتياً. لكن لا شيء يعوض وحدة العزاب، إن لم تكن أحد الرهبان.

كلا يصعب أن يحصل من أرداك على أي شيء، بخصوص السلاح ــ فهو بلاشك سوف يروح يستفسر: لماذا ظهرت هذه الحاجة الملحة فجأة إلى الحصول على مسدس. فهو إنسان مدقق ــ جميع الأطباء مدققون ــ صحيح أنه يشرب أحياناً... كلا لا داعي لبحث مثل هذا الموضوع الحساس مع أخ شقيق كهذا. فلربما أدرك جلية الأمر ــ حينها سوف يدمر كل شيء، ولن يسمح بذلك..

على هذا النحو كان يفكر في تلك الساعة المتأخرة من الليل وهو يتفحص، من خلال النافذة، النجوم في السماء التي يبدو عددها كبيراً في الصيف. يا لها من حياة ممتعة: أن تتلألأ بلا منغصات.

الفصل الخامس

في الصباح استيقظ على رنين جرس الهاتف. وبينما راح ينهض، ويسير نحو جهاز الهاتف، كان يأمل في قرارة نفسه أن يتوقف الرنين ــ فهو لم يكن يرغب كثيراً في الحديث وهو شبه نائم. لكن المتصل كان مصراً، ومن جهة أخرى فقد ارتاح لهذا الاتصال، فبعد تحليق الروح الميتافيزيقي والأحلام الهذيانية اضطر للغطس في لجة الحياة الواقعية العادية، وكخطوة أولى جاء هذا الرنين. كان شخصاً قريباً ــ **بيكتور**، **آغا**، **الأخ** الشقيق للمرحوم والده[1]. كان غالباً ما يتصل به، فهو في كل الأحوال من أقرب الأقارب. والأهم من ذلك أنه إنسان عملي فعلاً (ليت أمثاله كثيرون)، وليس من باب المصادفة أنه كان رئيس الكلخوز في دسكرتهم تويوك ــ جار حتى إلغاء الكلخوزات في كل مكان. وبعد ذلك لم يرتبك، فقد كان واحداً من الأوائل، الذين قدروا منافع (بيزنيس) الصيد، وهكذا فقد أصبح رجل أعمال مشهوراً في ميدان الصيد في جبال أوزينغيليش ــ ستريمياني، وأسس شركة لهذا الغرض هي شركة «ميرغين». سارت الأمور على ما يرام. وفي السنوات الأخيرة تدفق الهواة من الخارج بأعداد

---

[1] أي عمه ، لكن الكاتب أوردها على هذا النحو.

كبيرة، حيث بدأ الأجانب يتوافدون للصيد عبر شركة «ميرغين». وكان أرسين سامانتشين بدوره يساعد عمه في إنجاز الدعوات وغيرها من الوثائق للصيادين الأجانب.

من يعرف إلام كانت ستنتهي هذه العذابات والمعاناة، التي أضعفت إرادته ووعيه، هذا الإرهاب الروحي الذاتي، لولا رنين الهاتف هذا، الذي تردد منذ الصباح.

لم يكن أرسين يريد أبداً الدخول في أي حديث، وهو في هذه الحالة، وهكذا فحين سمع صوت بيكتور ـ آغا سامانتشين المألوف، همَّ في البداية، وهو يعرف عما سيدور الحديث عند لقائهما المرتقب، أن يؤجل هذا اللقاء ويؤخره إلى وقت الظهيرة. فقد كان لابد في البداية من أن يحاول تمالك نفسه وإيقاف الهزات الزلزالية ــ كما كان يسميها ــ التي عصفت بروحه، لكن ومنذ عبارات الترحيب الأولى، التي لا تعني شيئاً بعد، والتي تسبق الحديث العملي عادة، خطرت لأرسين فكرة مفاجئة ــ إن بإمكانه أن يحصل على السلاح بكل بساطة، ويضع أخيراً حداً لهذه المسألة اللعينة، التي أضنته. حتى أنه شعر بالارتياح فوراً، ولذا فقد أعرب عن استعداده للقاء من أجل الحديث المزمع، دون أن يؤجله، واعتذر عن أنه لم يتصل هو نفسه، زاعماً أنه كان مشغولاً.

ومن البديهي أن الحديث بينهما لم يتطرق أبداً إلى تلك النية اليائسة، التي يخفيها أرسين، الرهيبة بطبيعتها، على الرغم من أنها مكرسة لإنزال العقاب بالشر. تحدثا بشكل اعتيادي، كما يتحدث الأقارب، عما أصبح منذ زمن بعيد الموضوع الدائم لمناقشتهما ــ عن شؤون الصيد، التي يقوم عليها بيزنيس بيكتور غان سامانتشين.

ـ وأخيراً. اسمع، لليوم التالي لا أستطيع الاتصال بك ـ بدأ بيكتور آغا لائماً ـ على هذا النحو كان الجميع ينادي الأكساكال[1] بيكتور غان سامانتشين ـ اسمع، أين كنت يا أرسين؟ والجوال لديك مغلق.

ـ وهل أنت في المدينة يا بيكتور آغا؟

ـ طبعاً، لقد أتيت خصيصاً لكي أتحدث معك. هل نسيت صيد النمور الرقط للضيوف العرب؟ لقد نظمت كل شيء. وهم بحاجة إلى مترجم، على أن يكون مثلك، وأن يكون كل شيء مئة بالمئة، لكنك تماطل وتماطل، ما الذي يؤخرك؟ ألست أنت **الإيغمين** الأكثر استقلالاً وحرية؟ لكن ما الذي يحصل؟.. هذا يعني أنك نسيت.

ـ كلا. يا بيكتور آغا، لم أنس أبداً.

ـ لماذا تماطل إذاً؟ فأنا إنما عليك أعتمد، لم يبق من الوقت إلا القليل ـ سبعة أيام ويصل الضيوف العرب، وأنت لا تحرك ساكناً...

ـ لا تقلق يا بيكتور آغا فقد كنت مشغولاً بإعداد برنامج كبير للتلفزيون، وجاءنا صحفيون أجانب، لكن لا تقلق، لقد قررت أن أكون أنا نفسي مع الضيوف العرب ـ مترجماً لهم ومدير أعمالهم، كما يقال اليوم، ولسوف أبقى معهم بشكل دائم.

ـ إذا كان الأمر على هذا النحو فالحمد لله. هكذا يجب التعامل مع أخ والدك الشقيق، وكيف لا! الصيادون الآخرون يأتون ويغادرون، أما هؤلاء الضيوف العرب، فهم يأتون إلى جبالنا للمرة الأولى، وهم

---

(١) أكساكال: كلمة تركمانية تعني "ذو اللحية البيضاء" ويطلق هذا اللقب عند شعوب آسيا الوسطى على شيخ القبيلة أو العشيرة.

من عمال الله، كما تعلم. ولم يبق من الوقت إلا سبعة أيام، ولا زال أمامنا الكثير من العمل في الجبال والشعاب، والأهم أن الموسم قد حل الآن تماماً، ففي هذا الوقت تعود النمور الرقط من المواقع الصيفية خلف المضيق إلى أوزينغليشنا. حان الوقت لأن نتحرك.

ــ أفهم ذلك يا بيكتور ــ آغا ولقد سبق أن قلت إنني جاهز.

ــ إذن دعنا نلتق يا أرسين، ونتفق على كل شيء، وبالمناسبة فهناك أمر آخر أيضاً، إن قلوبنا جميعاً معك.

ــ لنلتق يا بيكتور ــ آغا. إنها التاسعة صباحاً الآن، فليكن في الحادية عشرة لكن أين؟

ــ ما رأيك في أن نلتقي في الشقة عندك؟

ــ حسن، وحتى ذلك الوقت سأعد الشاي.

ــ حسن يا أرسين، لكن ما الداعي لإعداد الشاي؟ فهل أنا ضيف غريب؟ لو كنت متزوجاً إذن لاختلف الأمر، إن قلوب أقاربك جميعاً معك، أما أنت.. . طيب سأصل عند الحادية عشرة.

ــ إنني بانتظارك، يا بيكتور ــ آغا، بانتظارك.

وضع أرسين سامانتشين سماعة الهاتف، ثم تنهد بارتياح، وراح يتلفت يمنة ويسرة، بعدها اتصل من الهاتف الجوال بسائق بيكتور سامانتشين، وهو شاب جيد، ينقل العم في سيارة جيب ممتازة، أما اسمه فهو **ايتيباي** وأحياناً يمازحه أرسين بقوله: ايتيباي تعني «صاحب الكلب الغني»، وما دام الكلب غنياً، فهذا يعني أنه هو نفسه

يحصل على نصيب ما! إيه إنه الحلم الأبدي بالثروة، أية استعارات لا يبتكرها الناس... اتفق مع إيتيباي على أن يتصل به هذا الأخير قبيل خروجهما.

وهنا اطمأن أرسين سامانتشين إلى حد ما، وانصرف إلى تأملاته من جديد. أجل ينبغي طبعاً القبول بعرض بيكتور سامانتشين، قريبه الأقرب، ويجب أن يساعده في استقبال مثل هذين الضيفين ــ الصيادين البارزين، وهما من كبار رجالات النفط العرب ــ حسن وميسر، يقال إنهما أبناء عمومة؛ وهما من هواة السباق وعشاق طيور الصيد، والصيد المحفوف بالمخاطر، والمهم أن الكثير من الناس ــ الخدم ــ الحراس ــ المرافقة سيعملون من أجل راحة هذين الضيفين العربيين، القادمين لصيد النمور الرقط الثلجية. ومن المعروف أن مثل هذا النوع من الوحوش الأصلية لا يوجد في أي مكان آخر من العالم سيما في الشرق الأوسط، فهي لا تستطيع العيش في ظروف تلك المنطقة، أما موطنها الأصلي فهو الجبال التي تناطح السماء، ذات البرودة الصيفية المنشطة والصقيع الشتوي القارس، ولهذا السبب فإن فراءها في غاية الروعة، وكل شعرة منه تساوي ثقلها ذهباً...

إذن الكثير من الناس سوف يحيط بهما ولسوف يكون الجميع مزودين بسلاح الصيد وغيره من السلاح، وهذا يعني أنه هو أيضاً، باعتباره المترجم الدائم، والمرافق، سيكون مسلحاً ربما ببندقية، أما بالمسدس فبكل تأكيد، ولسوف يحتفظ فيما بعد بهذا المسدس لنفسه. سيتمكن من العثور على المبرر، وإذا ما وفق الضيفان في الصيد، وكان الصيد وفيراً فسيهديانه المسدس على الأرجح. وما إن ينتهي الصيد، حتى ينزل من الجبال ومعه هذا المسدس، إلى المدينة المزدحمة، ويستخدمه بالطريقة التي رسمها.

لقد جاء اتصال عمه في الوقت المناسب لأنه أجبره على أن يثوب إلى رشده، وأن يعود إلى الحياة الطبيعية، بعد تأملات الليل المنصرم، التي عذبت روحه حتى في الحلم. وبعد أن استعاد وعيه، وتمالك نفسه، عمد أرسين سامانتشين إلى فرض نوع من الحظر على هذه التأملات، وعقد اتفاق هدنة مع نفسه بنفسه، فأجل خطته المشؤومة، إذ كان لابد من الانكباب على العمل. «كفى يا أرسي كفى! تعقل ــ قال في دخيلة نفسه ــ ليس هذا ما يجب أن تفكر به الآن، إنك لم تفقد عقلك تماماً يا أرس» بهذا الاسم كانت تناديه آيدانا في لحظات الحنان ــ أرس، أما هو فيدللها باسم آيا وحين يتذكر تلك اللحظات، لا يملك إلا أن يتنهد بمرارة، وحينها يشعر بنفسه كالشجرة، التي تذرو الرياح أوراقها بكثافة، لقد تعرت روحه...

أجل لابد من الانكباب على العمل، فإلى متي يمكن أن يسوم نفسه العذاب، ويدفن نفسه حياً؟ إن العمل كثير جداً، ففي علبة الكومبيوتر يتعذب كم كبير من النصوص، التي بدأها ولم يجد الوقت لإنجازها والتي ينتظرونها في هيئات التحرير المختلفة. إن الذنب ذنبه فهو يتناول مواضيع متنوعة، بدءاً من المقالات حول الأحداث الجارية، وانتهاءً بمشاكل الطاقة المائية، كما يتناول مواضيع أخرى، والنتيجة؟ لم يسبق أن تراكمت لديه على هذا النحو أكوام المقالات، غير المنجزة، على الأرجح يعود ذلك إلى أنه يرتدي إهاب الصحفي المستقل الذي لا يخضع لأحد، ولا توجد أية رقابة عليه، أعيش كما يحلولي... لكن ما جدوى ذلك؟

على هذا النحو راح أرسين سامانتشين يضبط نفسه، فيوسعها لوماً وتوبيخاً، كي لا تحترق عبثاً وقد أضناها عذاب الحب القاتل والفكرة القاتلة. إن الرأسمالية اللعينة تقوم بعملها، تقوم به، ولا شيء يمكن أن يمنعها، الأمعاء الدقيقة، وإجمالاً فما دخل الرأسمالية هنا؟ إن دخلها

في قدرتها على شراء الفكرة، كما تُشترى السلعة، ثم قدرتها على بيع الفكرة وفرض الحظر عليها ــ كل شيء بالنقود ممكن، وأنت في هذه الحالة غريب ــ لا تباع ولا تشرى، إنك هائم من مضارب الرحل الليبرالية، فتلق نصيبك وتناطح وجهاً لوجه، واحداً ضد الجميع، لسوف يكلفك ذلك رأسك، أما هم فيتخلصون من أي كان، ومع هذا سيان، القتال؟ فليكن القتال، لا مفر منً ذلك. لكن ليس الآن، ففي كل أمر يجب أن يكون ولو بعض الاستراتيجية، بعض التكتيك لكن ينبغي نسيان هذا الآن. على هذا النحو كان يقنع نفسه، ظناً منه أن كل شيء سوف يأخذ مجرى آخر بوصول بيكتور آغا، فحينها سيتركز الاهتمام على حل مسألة أخرى، ويحل في مركز الصدارة الوجه(١) الآخر للحياة حيث سيكون الحديث جدياً بالفعل، فهناك ما يمكن أن يتحدثا بشأنه.

وفي الوقت نفسه كان أرسين سامانتشين، وهو يروض نفسه على هذا النحو، يبدو وكأنه يحاول تبرير موقفه أمام العروس الخالدة، ويواسيها. كان يبدو وكأنه لا يتحدث بنفسه، بل باعتباره النسخة الثانية من نفسه. كان وهو يخاطبها في خياله، يتحدث همساً، كأنها تسمعه، وهي في مكان ما خلف الباب وقد خرجت للتو من المصعد، الذي أصيب بالصرير والبحة، لكثرة الاستعمال في بنائه الخروتشوفي(٢) المكون من سبعة طوابق. كان يهمس لها بصوت غير مسموع، وهو يكاد يعتذر: انتظري، اصبري قليلاً سنتمكن بعون الله من تحقيق شيء ما، وحينها سوف أجمعكما أنت وأيدانا مع الموسيقى الرائعة المشبعة بالكلاسيكية. ستكون على الخشبة، وأنت

---

(١) Hypostasia إغريقية: وجه، جوهر

(٢) نسبة إلى الرئيس السوفيتي نكيتا خروتشوف، الذي بني في عهده (١٩٥٣ــ١٩٦٤) هذا النوع من البيوت

وراء الكواليس، في مكان قريب، ولسوف ترين وتسمعين كل شيء، لكن تحلي بالصبر، وبعد ذلك، فكري فيما إذا كانت آيدانا مذنبة، افهمي أنها لم تُدرْ لنا ظهرها برغبتها، بل إنها هي الأخرى خُطِفَت، كما حدث لك أنت، لكن بأسلوب آخر، بالأسلوب المعاصر. أضلوها، وَرَّطوها، أفسدوها، اشتروهـا. وإذا كانـوا فـي الأزمنـة الغابرة يختطفون المرأة الحسناء، فيضعونها على صهوة حصان، فإنهم الآن يلقون بها فوق عِدْل من الدولارات، وعلى هذا العدل تندفع على عجل، نحو قطعان الخيل الدولارية، وأصحاب هذه القطعان من ذوي الملايين، وكل منهم يسوق قطيعه الدولاري إلى المرعى. على هذا النحو نعيش. ليس ثمة من مخرج آخر، فنحن جميعنا نتزاحم في السوق، وليس الذنب ذنب أحد، فاقتصاد السوق يحكم الجميع. ومع هذا، وإذا ما فكرنا في الأمر ملياً، فإننا لمذنبون، مذنبون لأننا نعيش خانعين، كما يرغموننا على العيش، جميعنا عن بكرة أبينا، أُوْيْ يبدو أن شيئاً ما شدني إلى مجاهل علم الاجتماع والسياسة. لكن لا تهتمي بهذا كثيراً، فلست بحاجة إلى هذه الاهتمامات، ثم إنني تحمست لأن الحديث تطرق إلى ذلك. اعذريني، وصدقيني، واصبري، فلسوف نلتقي بعون الله. لكن كلا، قفي، تمهلي دقيقة، ثمة شيء آخر يلتهمني من الداخل باستمرار، رويداً رويداً: كيف أحوالها هي هناك، أهي سعيدة فعلاً كما تصورها الإعلانات في كل مكان، وكما تظهر على الخشبة تسبح في الأضواء، أم أن لديها في روحها كهفها الخاص، تختبيء فيه، ولعلها تبكي فيه وتندب حظها، ولا تعرف ماذا تفعل؟ للأسف، لا بد أنها ليست في وضع يسير، ما دامت تتهرب مني، لكن يصعب أن تتمكن من نسيان منتزهنا الهايدلبرغي، حيث حلمنا بعالم من نوع آخر. لقد رأيتها بنفسك، أيتها العروس الخالدة لقد رأيتنا معاً، وها نحن قد افترقنا.. على هذا النحو كان يهمس بدون صوت، وهو يخاطب ذلك الفضاء الصامت أيضاً، وعلى الفور حاول أن يعيد نفسه إلى جادة الصواب: «ثب إلى رشدك، ثب إلى رشدك، إلى أين تقودك

من جديد طبيعتك الجامحة؟ ما بالك تحشر نفسك؟ من تنازل؟ إنك تصارع لوحدك، تكتب، تتفلسف، تزعج الأوليغارشيين ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، أما هم، **بايات** الدولار المعاصرون، فيسرحون ويمرحون في السوق العالمية، «يسرحون ــ يفسدون»، كما عبر أخوك أرداك بسخرية، ذات مرة، حتى إنك استخدمت هذه العبارة في مكان ما، لكنهم لم يلاحظوا ذلك، لأن من هو على شاكلتك لا قيمة له عندهم، مثلك مثل أي شخص لا وزن له في السوق، صوت فارغ، صعلوك ضال، أجل أحيانا يبدو وكأن الرب يحرسهم، هؤلاء **بايات** الدولار، ويحميهم بعينه الساهرة عليهم أبداً، أليس كذلك؟ كفى».

يا له من كلام فارغ، اغفر لي يا ربي، أنا المذنب.

بدأ في ترتيب الشقة، إن بيكتور ــ آغا إنسان عملي، وهو إرادي حازم، ويعرب عن رأيه بكل صراحة، و لذا فقد كان الكلخوز في عهده على أحسن ما يرام. ويرددون عنه أنه كان يصب اللوم على كل إهمال، ولم يكن يعتبر أي شيء تافهاً ــ لماذا ترمي الزبل على طرف الطريق؟ أزِلْه! لماذا الكِدْس مائل لديك، أهو سكران، مثلك أنت نفسك؟ وأنت لماذا حولت الساقية في حاكورتك إلى مرتع قذر للخنازير، ألا تستطيع تنظيفها؟ ــ كان يطالب أبناء قريته بالانضباط، وكان محقاً في ذلك.

وراح أرسين سامانتشين، وهو يتذكر ذلك، يكنس المدخل على عجل، بالمكنسة الكهربائية. أما الصحف التي كانت مبعثرة في شتى أرجاء الشقة، والمجلات المصقولة بأنواعها، التي قرأها، والتي لم يقرأها، حتى النهاية، فقد كدسها على شكل حزم. بعدها مسح الغبار عن المرآة، وبكل دقة وحذر ــ عن السطح الناعم للبيانو البني الفاتح ــ إن البيانو حاجة جميلة، الأعلى قيمة في مسكنه، ليس فقط لأنه آلة

وراء الكواليس، في مكان قريب، ولسوف ترين وتسمعين كل شيء، لكن تحلي بالصبر، وبعد ذلك، فكري فيما إذا كانت آيدانا مذنبة، افهمي أنها لم تُدرِ لنا ظهرها برغبتها، بل إنها هي الأخرى خُطِفَت، كما حدث لك أنت، لكن بأسلوب آخر، بالأسلوب المعاصر. أضلوها، وَرَّطوها، أفسدوها، اشتروهـــا. وإذا كانـــوا فـــي الأزمنـــة الغابرة يختطفون المرأة الحسناء، فيضعونها على صهوة حصان، فإنهم الآن يلقون بها فوق عِدْل من الدولارات، وعلى هذا العدل تندفع على عجل، نحو قطعان الخيل الدولارية، وأصحاب هذه القطعان من ذوي الملايين، وكل منهم يسوق قطيعه الدولاري إلى المرعى. على هذا النحو نعيش. ليس ثمة من مخرج آخر، فنحن جميعنا نتزاحم في السوق، وليس الذنب ذنب أحد، فاقتصاد السوق يحكم الجميع. ومع هذا، وإذا ما فكرنا في الأمر ملياً، فإننا لمذنبون، مذنبون لأننا نعيش خانعين، كما يرغموننا على العيش، جميعنا عن بكرة أبينا، أُوْيْ يبدو أن شيئاً ما شدني إلى مجاهل علم الاجتماع والسياسة. لكن لا تهتمي بهذا كثيراً، فلست بحاجة إلى هذه الاهتمامات، ثم إنني تحمست لأن الحديث تطرق إلى ذلك. اعذريني، وصدقيني، واصبري، فلسوف نلتقي بعون الله. لكن كلا، قفي، تمهلي دقيقة، ثمة شيء آخر يلتهمني من الداخل باستمرار، رويداً رويداً: كيف أحوالها هي هناك، أهي سعيدة فعلاً كما تصورها الإعلانات في كل مكان، وكما تظهر على الخشبة تسبح في الأضواء، أم أن لديها في روحها كهفها الخاص، تختبيء فيه، ولعلها تبكي فيه وتندب حظها، ولا تعرف ماذا تفعل؟ للأسف، لا بد أنها ليست في وضع يسير، ما دامت تتهرب مني، لكن يصعب أن تتمكن من نسيان منتزهنا الهايدلبرغي، حيث حلمنا بعالم من نوع آخر. لقد رأيتها بنفسك، أيتها العروس الخالدة لقد رأيتنا معاً، وها نحن قد افترقنا.. على هذا النحو كان يهمس بدون صوت، وهو يخاطب ذلك الفضاء الصامت أيضاً، وعلى الفور حاول أن يعيد نفسه إلى جادة الصواب: «ثب إلى رشدك، ثب إلى رشدك، إلى أين تقودك

من جديد طبيعتك الجامحة؟ ما بالك تحشر نفسك؟ من تنازل؟ إنك تصارع لوحدك، تكتب، تتفلسف، تزعج الأوليغارشيين ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، أما هم، **بايات** الدولار المعاصرون، فيسرحون ويمرحون في السوق العالمية، «يسرحون ــ يفسدون»، كما عبر أخوك أرداك بسخرية، ذات مرة، حتى إنك استخدمت هذه العبارة في مكان ما، لكنهم لم يلاحظوا ذلك، لأن من هو على شاكلتك لا قيمة له عندهم، مثلك مثل أي شخص لا وزن له في السوق، صوت فارغ، صعلوك ضال، أجل أحيانا يبدو وكأن الرب يحرسهم، هؤلاء **بايات** الدولار، ويحميهم بعينه الساهرة عليهم أبداً، أليس كذلك؟ كفى».

يا له من كلام فارغ، اغفر لي يا ربي، أنا المذنب.

بدأ في ترتيب الشقة، إن بيكتور ــ آغا إنسان عملي، وهو إرادي حازم، ويعرب عن رأيه بكل صراحة، و لذا فقد كان الكلخوز في عهده على أحسن ما يرام. ويرددون عنه أنه كان يصب اللوم على كل إهمال، ولم يكن يعتبر أي شيء تافهاً ــ لماذا ترمي الزبل على طرف الطريق؟ أزِلْه! لماذا الكِدْس مائل لديك، أهو سكران، مثلك أنت نفسك؟ وأنت لماذا حولت الساقية في حاكورتك إلى مرتع قذر للخنازير، ألا تستطيع تنظيفها؟ ــ كان يطالب أبناء قريته بالانضباط، وكان محقاً في ذلك.

وراح أرسين سامانتشين، وهو يتذكر ذلك، يكنس المدخل على عجل، بالمكنسة الكهربائية. أما الصحف التي كانت مبعثرة في شتى أرجاء الشقة، والمجلات المصقولة بأنواعها، التي قرأها، والتي لم يقرأها، حتى النهاية، فقد كدسها على شكل حزم. بعدها مسح الغبار عن المرآة، وبكل دقة وحذر ــ عن السطح الناعم للبيانو البني الفاتح ــ إن البيانو حاجة جميلة، الأعلى قيمة في مسكنه، ليس فقط لأنه آلة

موسيقية جامعة، بل وأيضاً لأن آيدانا نفسها عزفت عليه، ولقد حدث ذلك مرتين. عزفت السهرة كلها، إلى ما بعد منتصف الليل.

إنه مجرد هاوٍ غير خبير يعزف بالسماع، أما آيدانا فعازفة بيانو رائعة، وكان الإصغاء إليها ممتعاً ــ ففي عزفها يتردد صدى أوروبا البعيد ــ فكان أرسين يعجب بعزفها، ويعتبر أن يديها موسيقيتان، وكأن الموسيقى تصدح منهما، ومن عينيها المتألقتين أيضاً. لم يصمد أرسين سامانتشين، فقد شده الحنين، فجلس، وراح يحاول أن يتذكر بعض معزوفاتها السابقة، وعاد الحزن يلفه، فهي لن تأتي إلى هنا بعد الآن، ولن تجلس إلى البيانو... ثلاث خطوات فقط تفصل البيانو عن السرير في شقته البالغة الصغر، وهناك موسيقى أخرى.. كانت روحه ترفض أن يصفها بالخائنة، على الرغم من أن هذا بالذات ما حدث في الواقع، وكان يود، على الرغم من كل شيء، أن يعتبر أن آيدانا ساماروفا ضحية قدر غاشم، لا سيطرة لأحد عليه.

تردد رنين الهاتف، كان هذا إيتيباي، سائق العم بيكتور، وقد أخبره أنهما في طريقهما إليه...

لقد حان الوقت للذهاب للقائه. وإن هي إلا دقائق معدودة حتى خرج أرسين سامانتشين، بعد أن بدل ثيابه، وعلق ربطة عنقه، إلى باحة البيت، لكي يستقبل كبير العائلة، الاستقبال اللائق.

في الأزمنة الغابرة كان مثل هذا الضيف يستقبل بكل احترام، فيمسك بمقود حصانه، أما الضيف نفسه فيتأبطون ذراعيه، ويساعدونه على الترجل عن صهوة الحصان، ويقودون الحصان إلى المربط، ويفكون حزام السرج، ومن ثم يقدمون له الشوفان ــ تماماً كما لو أن سيارة الضيف القادم تُملأ الآن بالوقود..

وبعد قرابة خمس دقائق، وبينما كان الحصان الوهمي يتناول شوفان الضيافة من المعلف، دخل القريب العزيز بيكتور ــ آغا بسيارته الفارهة ــ الجيب اليابانية القوية، بلون أسود بلوري. يسطع زجاج أضوائها. ذات محرك بقوة ستمئة حصان تقريباً ــ دخل من الطرف الآخر للباحة، واقترب من المدخل. حبذا لو كان هناك أكبر عدد ممكن من هذه الجيب الخاصة بالطرق الوعرة، في الجبال. لكن حتى الآن كانت سيارة بيكتور، التي اشتراها من مكان ما في الإمارات العربية، الوحيدة من نوعها في كل مقاطعة تويوك ــ جار، حتى السيارات العادية ــ «جيغولي» و«موسكفيتش» في العائلة كانت تعد على الأصابع، وهذا شيء بديهي: فالفقر يضرب أطنابه بين الناس، الذين فقدوا حتى الترف الكلخوزي السابق، وإن كان زهيداً... إنه عهد العبودية الإقطاعية، ومع هذا... أما الآن فيمكن القول إن الجميع يتدبرون أمرهم بطريقة ما، إما بالعمل الشاق، أو حتى بالسرقة. وليس ثمة في الأفق أي بصيص. يقولون: هلا زاولت (البيزنيس)، لكن أين هو هذا (البيزنيس) ــ أحضر البطاطا، اجمع القش، وماذا أيضاً؟ لكن لديك الحرية، بالمقابل. لكن الحرية في ظل العوز أمر فارغ وفي منتهى الصعوبة. وحتى الآن ألصقوا كل المحن الريفية بالمرحلة الانتقالية: طيب، لسوف نخطو نحو السوق ــ ومن بعد ذلك نتقدم: انتظر. حتى إن أحد الحمقى طلع باقتراح مناف للعقل: يجب أن يولد الأطفال أبناء سوق: يا سلام! عن أية سيارات لدى الريفيين يمكن أن يدور الحديث. غالباً ما تنقل الأحمال على الحمير. كما في العصور الوسطى. ولحسن الحظ أصبحت سيارات السرفيس (الخدمة) تعرج عليهم، أما الشباب فقد ارتحلوا إلى المدينة، عن بكرة أبيهم، وحتى هناك يعانون من البطالة ــ الغجرية.. لكن البعض أصاب نصيباً من عطايا عصر (البيزنيس). حتى العسل البري أصبح يجمع من الشعاب الجبلية، ويطرح للبيع، وهذا ما لم يكن يحدث من قبل. كان العسل يهدى، فالعسل لقمة حلوة، منزلية للكبار والصغار،

وليس أبداً مادة تباع وتشرى. لكن هذا ليس بالأمر المهم.. في هذا الوقت اقتربت جيب العم بيكتور. ياله من شخصية يشار إليها بالبنان ــ فلقد ابتكر بيكتور سامانتشين (بيزنيس) الصيد هذا، ونظمه بحيث يستمر العمل فيه على مدار السنة. وحسب الفصول. كانوا يصطادون المخلوقات البرية المختلفة ــ الأغنام البرية، التي أصبحت تعرف باسم «ماركوبولو» والماعز ذات القرون، والدببة وطيور الصيد، وها هي الآن النمور الثلجية الرُقّط تدخل ميدان البيزنيس في بند خاص. مرحى لك يا بيكتور ــ آغا، يا سلام عليك، فقد عثرت على عرقٍ، يا لك من إنسان ذكي.

توقفت السيارة، وفتح أرسين باب الجيب الضخم، ونزل بيكتور ــ آغا المبتسم من السيارة ثم تصافحا بحيوية، ومن ثم تعانق هو وابن أخيه. أجل إنه إنسان بارز ومميز ــ بوجهه وقامته وخاصة بلحيته الضخمة. كان جميع الرجال في عائلتهم مميزين في المظهر، بمن فيهم أرسين، لكن أرسين، بالاختلاف عن أغلب آل سامانتشين، كان بلا شوارب ولحية.

ومن جديد سلما على بعضهما بأيديهما الأربع، كما يليق بالأقارب الأقربين، حيث يمد كل منهما يديه، ويشد على راحتي يدي الآخر، وانحنيا لبعضهما، وهما يبتسمان بود. وكان أول ما نطق به بيكتور ــ آغا، وهو يضع يده الضخمة على صدره.

ــ الحمد لله، فأنت حي ترزق. منذ كم من الوقت لم نلتق يا أرسين، منذ شهرين، على الأرجح، أم أكثر؟

ـ أجل يا بايكي[1]، أظن منذ ثلاثة أشهر تقريباً.

ـ هل رأيت ـ رفع بيكتور ـ آغا حاجبيه الكثيفين ـ فلقد جئت المدينة كثيراً وأنت دائماً غير موجود، طيب، الآن ستمكث معنا فترة أطول، أنت نفسك تفهم.

ـ أجل يا باكي، أفهم طبعاً، أما أننا لم نتمكن من اللقاء، فلقد كنت مشغولاً بأمور مختلفة لا مفر منها. طيب. سوف نتحدث لاحقاً، المهم أننا التقينا.. .

بالطبع لم يكن ينوي أن يخبره بما حدث بينه وبين آيدانا، وخاصة بمن اضطر أن يصطدم مباشرة بسببها، ومن حاول جاهداً تضييق الخناق عليه، وإبعاده نهائياً عن محبوبته، وطرده إجمالاً عن مسرح الحياة العامة، كما لم يكن ينوي مطلقاً أن يخبره بما عقد عليه العزم هو أرسين، قريبه، رداً على ذلك. من البديهي أن هذا كان مستبعداً، وأن الحديث المنتظر سيكون من نوع آخر تماماً ذا طابع عملي بحت، ومن أجله جاء بيكتور ـ آغا من جبال تويوك ـ جار البارحة.

أثار لقاؤهما الحار، الودي الحميمي نظرات وابتسامات من مَرَّ بهما من الجيران. ثم إن صبيين شيطانين كانا يجريان في الباحة في سراويل قصيرة وقمصان ممزقة، يجر أحدهما كلباً، بدآ يتفرجان على جيب بيكتور. وعلى الرغم من وجود العديد من السيارات المختلفة في الساحة فقد استحوذت هذه السيارة الجوالة على إعجابهما. كانا يتهامسان بشيء ما، ويدفع أحدهما الآخر في

---

[1] باي: لقب يدل على الاحترام لكبار الإقطاعيين في آسيا الوسطى، كما البيك والآغا لدى الأتراك.

خاصرته. من الواضح أن هذين الصعلوكين كانا يتوقان لامتطاء هذه السيارة الجبارة، والسير بها في الشوارع، فيثيران إعجاب الجميع.

كل هذا لاحظه أرسين، حين ألقى نظرة عابرة على الجيب، فشعر بالبهجة، وانشرح صدره لذلك.

مثل هذه المشاعر المحببة تستولي عليك حين ترى مظاهر البهجة والصفاء في الحياة من حولك. فتود من كل قلبك أن تقول: أنتم سعداء ــ ونحن جميعاً سعداء. حتى الطقس في ذلك الصباح الصيفي كان بهيجاً صافياً، وكانت الشمس، التي لم تصل حد القيظ بعد، تغمر بضوئها كل الآفاق المترامية، فتهب سعادة الدنيا الخاطفة لجميع الكائنات على الأرض، وكأنها تشاطر الناس أفراحهم.

آه لو تستمر الحياة على هذا النحو في وئام وانسجام. لكن، وكما يقال، فإن عيناً متجهمة تنظر إلينا من خلف الغيوم باستمرار. فلتنظر إلينا كما يحلو لها..

وفي تلك الساعة لم يكن الإحساس بالارتياح والثقة يفارق أرسين سامانتشين، حتى حين شرعا في مناقشة المسائل العملية. كان بيكتور آغا يناقش الأمور بشكل مقنع ومعقول، فقد كان لديه في طبعه عِرْق إداري متين ــ كان من الصعب أن لا توافق على حججه، وأن لا تشاطره آراءه.

لقد أعد لكل شيء عدته، وعلله وخطط له، بدءاً من الوثائق الرسمية، التي ترخص له بمزاولة الصيد، والتي ورد فيها بند مستقل حول النمور الثلجية الرقط، يسمح بصيدها، ويحدد ضريبة الدخل من ذلك. وكان الضيفان العربيان قد اطلعا منذ عهد بعيد على الشروط كلها. أما العقد، المبرم معهما باللغة الإنكليزية فقد ساهم أرسين سامانتشين

نفسه في صياغته منذ الربيع الماضي. وكان قد نسي هذا الأمر إلى حد ما، والآن لابد من ممارسة الأمر عملياً. ولما كان بيكتور سامانتشين يجهل اللغة الإنكليزية تماماً ـ من يمكن أن يخطر له في هذا المقاطعة أن يتعلم الإنغليش (الإنكليزية) ـ فقد وضع مهمة التفاهم مع الصيادين العربيين على عاتق أرسين.

فمن وجهة النظر الإيطيقية وكذلك تمشياً مع التصورات البراغماتيه البحتة لبيكتور سامانتشين نفسه، فإن أرسين وحده، وليس أي شخص آخر، يصلح بلا نقاش، لمثل هذا الأمر غير العادي والحساس ـ أن يكون صلة الوصل بينه وبين الضيفين العربيين. إذ أن أشخاصاً من هذا المستوى بحاجة، لا إلى مترجم عادي، بل إلى محدث جدي، مثقف وطريف.

ـ وهكذا يا أرسين العزيز، لتحل عليك بركة أسلافنا، إنك بالذات ذاك الترجمان، ذاك الإنسان الرفيع، ابن أخي الأكبر المرحوم ـ رحمه الله ـ الذي ينبغي أن يساعدنا في هذا الأمر.

ـ راح بيكتور ـ آغا يحاول إقناعه ـ إبق معنا أسبوعين. ماذا يمنعك من ذلك؟ فأنت صحفي مستقل تفعل ما يحلو لك، أليس كذلك؟ ضع في حسابكَ أن مبعوثي الضيفين العربيين الأوائل سيصلون بعد خمسة أيام، إنها المجموعة التحضيرية، أي دايارداشي ـ بلغتنا ـ وعددهم ثلاثة. أما الضيفان نفسهما فسيحطان بطائرتهما الخاصة في متار آولياتين.

ـ مطار يابايكي، وليس متار ـ قال أرسين مصححاً، لكن ذاك لم يرعو:

ــ أما أنا فأقول «متار»، كما يقول الجميع عندنا. إذن في المتار الأقرب إلينا ــ أولياتي. وأنت تعرف كل شيء، فقد ساعدت بنفسك في إبرام الاتفاق. والآن آن الأوان، ينبغي أن نعمل. معاً سوف نستقبل الضيفين العربيين في المتار، معاً سنرافقهم إلى الجبال، حيث كل شيء لدينا جاهز هناك، فلا تقلق بهذا الخصوص. لقد سبق أن اشتريت مكتب الكلخوز السابق، وجهزنا فيه غرفتي استقبال. صحيح أنهما ليستا كما في المدن، ومع هذا... لسوف نصطحبهما للصيد إلى تحت مضيق أوزينغيليش بالذات، وإلى أبعد منه إذا ما رغبا، إلى ما خلف المضيق، حيث تقع الصين. كل الممرات نعرفها. إن أحداً لا يصل إلى هناك، اللهم إلا المتسلقون، لكن دع هذين الأميرين الشابين الهاويين يتفرجان، يصطادان النمور الرقط، ليس مجاناً، بالطبع. أنت تعرف أنهما، بعون الله سيدفعان جيداً لقاء النمور، وسيكون لكل نصيبه.

بعدها ناقشا الكثير من التفاصيل المختلفة. وبالفعل كان كل شيء لدى بيكتور سامانتشين قد أعد ونظم بدقة، وبشكل عملي ــ بدءاً من الخيام المتنقلة وخيول الركوب وانتهاء بجدول بأسماء مربي الخيول. فلم يكن يأتمن أحداً للعناية بخيول الضيفين الرفيعين إلا أولئك الأشخاص، الذين يعرفهم ويثق باستقامتهم، أما ما يخص السلاح وأجهزة الإضاءة وأجهزة المراقبة البصرية بخاصة فكانت مثبتة كما في البروتوكول.

في دخيلة نفسه كان أرسين سامانتشين معجباً بقريبه، لا بل ويزهو به، ولقد اقتنع من جديد: أن (البيزنيس) يتمتع بقوة تنظيمية عظيمة، ويعلم المرء التصرف بشكل عقلاني، وهادف. إن «البيزنيس» يتطلب من الإنسان، أكثر من أي شيء آخر، أن يبذل قصارى جهده.

على هذا النحو تم التخطيط لمشروع «بيزنيس» الصيد في تويوك ــ جار. لو كانت النمور الثلجية الرقط نفسها، بما فيها جابارس المنبوذ، الذي لا يزال يروح ويجيء، كما المسحور تحت مضيق أوزينغيليش ــ ستريمياني..

وفيما يتعلق بأرسين سامانتشين فقد كان يعرف بالطبع، وبكل تفصيل، كيف رتبت حملة الصيد هذه، خاصة بعد لقائه مع بيكتور سامانتشين، لكنه هو بدوره لم يستطع ــ بالطبع أن يتوقع ما الذي ينتظره على هذا الطريق. والآن يمكن أن يبدو ما سجله في يومياته، تحت عنوان «الأبواب الخفية أو صيغة القضاء المحتوم»، قبيل الأحداث، التي جرت فيما بعد، نوعاً من النبوءة. وهاكم ما ورد في تلك الكتابة ــ النبوءة:

«لكل تصرف ماثل للقدر باب خفي، معد مسبقاً. ممهد مسبقاً ومن كتب على جبينه أن يجتاز عتبة هذا الباب لا يعرف ذلك إلا بعد أن يصبح أسيراً في الجانب الآخر وليس بمقدور كل من خطا هذه الخطوة المصيرية أن يعود أدراجه، كما لا يستطيع الإنسان الوليد العودة إلى بطن أمه، هكذا يتم حكم القدر، وتلك هي معادلة القضاء المحتوم، لا يوجد إلا المدخل، أما المخرج فغير موجود».

كان يمكن لهذه الكتابة أن تكون ذات بقية، وأن تشرح بالتفصيل لتتحول بريشة أرسين سامانتشين إلى مقالة تراجيدية، لكن في حالة واحدة فقط: لو أن كل شيء جرى على نحو آخر.

في هذا الوقت شرعت برودة الصباح تلملم أذيالها، وتخلي المكان رويداً رويداً لقيظ ما قبل الظهيرة، ووصل الإحساس بذلك إلى داخل البيوت. وهكذا قطع أرسين سامانتشين الحديث للحظة لكي يغلق

النافذة المفتوحة منذ الليل، ويشغل المكيف الصغير، الموضوع في الأعلى، فوق الخزانة. إن الحرارة في البيوتات كثيرة الطوابق أقسى بكثير، ولا بد من المكيفات.

لكن بيكتور آغا طلب ترك النافذة مفتوحة، فلقد اعتاد الهواء الطلق في الجبال، وكان لا بد من النزول عند رأي الضيف... لقد كان لترك النافذة مشقوقة نتائجه. لكن من كان بمقدوره أن يعرف ذلك..

ومن جديد عاد القريبان إلى الحديث، الذي استمر لا أقل من ساعتين. وخلال هذا الوقت تمكّن السائق إيتيباي، الشاب المُكِدّ الأنيس، أن يشرب الشاي والأهم أن يذهب بسيارة الجيب إلى محطة التزود بالوقود، والمغسلة، كما جلب الفواكه من البازار. أما هما، اللذان تربط بينهما أواصر القرابة، والآن «البيزنيس» كلي الوجود، فاستمرا في مناقشة مشروعِ الصيد الكبير، والبيزنيس. بالمناسبة، في الجبال لا يفهم الناس أبداً ما يرويه لهم المكوكيون والمكوكيات(١)، الذين يطوفون أرجاء العالم. يظهر أن بيع الأزهار وشرائها، شيء عجيب عندهم لا يمكن أن يخطر لهم ببال، فالأزهار تعيش بحالها، يمكن أن تمتع النظر بها، وأنت تمر بجوارها على حصانك، ويمكن قطفها للصغار، لكن أن يتاجر بها ـ شيء مضحك تماماً. أما موضوع نقاش هذين السامانتشيين فكان يتعلق بالوحوش الجبلية التي تعيش في حرز صغير ـ النمور الرقط الثلجية، وهذا يعني أن يد السوق قد وصلت إليها أيضاً.

---

(١)لقب تجار الشنطة، هذه التجارة التي راجت في تسعينيات القرن الماضي، عقب انهيار الاتحاد السوفيتي. وكان التجار من الجنسين

أحياناً كان يخيل لأرسين سامانتشين، وهو يصغي إلى قريبه الأكبر، الذي يسجل خطط تنظيم الصيد، أن كل ما خطط له شبيه إلى حد ما بما يجري في المسرح، إلا أن المخرج هنا هو رئيس كلخوز سابق، ولكنه في الواقع إنسان ذكي. والأساليب التي راح يقترحها، قريبة جداً من مواضيع المسرحيات. فقد ابتكر بيكتور سامانتشين، على سبيل المثال، أسلوباً ذكياً لدفع الوحوش إلى المصيدة بحيث يستطيع الأجنبيان اختيار الأفضل منها، وإطلاق نار القناصة عليه. كان أرسين سامانتشين وهو يصغي إلى خطط هذا الصيد الجبلي الغريب، ويتفهمها مرغماً، لأن عليه عما قريب أن يشرحها بالتفصيل للضيفين العربيين، يشعر أحياناً بالتعاطف مع النمور الرقط، التي لا تعرف الآن، وهي في عقر دارها، في جبال تيان ـ شان، شيئاً عن التراجيديا الداهمة. وحينها خطر له: لو أن هذه الوحوش عرفت أن هناك الآن في المدينة البعيدة، في حي يمور بالسكان، وفي شقة خروتشوفية عادية في الطابق السابع، يجلس شخصان، يرسمان كما الآلهة مصيرها مسبقاً، وبدقة متناهية، باليوم والساعة ـ إذن لولت الأدبار، قبل أن يفوت الأوان، وفرت إلى مكان ما في الهملايا.

إن الفكرة طائر حر، يمكن أن يطير إلى العش وإلى الفضاء الكوني. وها هي قد داهمته، من مكان ما فكرة هذيانية، لكنها الأنبل من حيث جوهرها، فكرة تحذير النمور الرقط في الجبال؟ إنما كيف يكون ذلك؟ لكن حتى لو جاءه الإلهام بهذا الشأن، فإنه لمن المستحيل السماح لمثل هذا الجنون أن يخطر بباله، إذ ما الذي سيحدث «للبيزنيس» في هذه الحالة؟ ألا يعني صونُ الوحوش البرية، ولو حتى في الخيال فقط، دفن «البيزنيس»؟ اجل، لو أن ذلك حدث فعلاً، فهل كان العالم يبقى قائماً؟ إذن لذهب كل شيء إلى الجحيم، ولقضى الجنس البشري على نفسه قضاء مبرماً. ولهذا كلا، ثم كلا ـ الأفضلية «للبيزنيس» وحده، أما الباقي ففيما بعد، و«بعد فيما بعد».

جرب أن تتفوه بشيء من هذا القبيل ــ إن الانتحار شنقاً أفضل. لم يكن أرسين سامانتشين يفكر بهذا بقدر ما كان هذا يظهر في لا وعيه، ربما كعقاب له، بينما يصغي لحديث بيكتور ــ آغا، الذي يزداد في إيقاعه تحولاً إلى الموعظة، ويسجل في دفتره بالإنكليزية تعليمات رئيس شركة «ميرغن» «لبيزنيس» الصيد، للعمل القادم مع الضيفين الهامين.

وبالطبع فإن بيكتور سامانتشين نفسه كان يجهل تماماً ما الذي يدور في قرارة نفس أرسين في تلك الساعة، وأية أفكار كانت تدور في مخيلته، والتي لم ينبس عنها ببنت شفة.

من كان يخطر بباله أن أشياء بعيدة عن الواقع، وغير قابلة للتفسير، يمكن أن تحدث للإنسان في الوقت، الذي يناقش فيه الأمور العامة بكل تعقل؟ إذا ما هبت الريح خلف الجبال، فليس بالضرورة أن تهتز الأغصان على الجانب الآخر.

بكل ثقة وتركيز وبحميمية القرابة استمر بيكتور سامانتشين في شرح اقتراحاته. فراح يضع الخطط ويرسم المخططات، ويشير إلى الأماكن، التي ستنصب فيها الكمائن للوحوش في الجبال والشعاب. ولكي تدفع الوحوش الضارية إلى المصيدة، كان لا بد من ضرب طوق من الحصار على المكان من جهات عدة، والأفضل من ثلاث ــ أربع جهات دفعة واحدة، والتقدم بتزامن، مع إصدار الأصوات المخيفة، لكي ترغم الوحوش على الجري في الاتجاه المنشود. طبعاً يمكن أن تبقى ثغرة، لكن في كل الأحوال يجب أن يقوم خمسة ــ ستة مطاردي صيد كحد أدنى، بملاحقة الوحوش، ودفعها إلى طوق الحصار في اللحظة المناسبة تماماً. إن الصيد الوفير للضيفين الغريبين هو في الوقت نفسه نعمة كبيرة لمنظمي الصيد: النقود، التي

ستوزع على الجميع بالأنصبة، وهكذا فمن البديهي أن الجميع سوف يحاولون أن يكون الصيد وفيراً...

ذكر بيكتور سامانتشين أسماء أبناء قريته، الذين سيعتمد عليهم في مثل هذا العمل الهام، تحت إشرافه الشخصي. وفهم من كلامه أن هؤلاء قد بدؤوا يستعدون، وأن مطاردي الصيد هؤلاء يدربون الخيول، ويجهزون السلاح والطبول...

على هذا النحو كانا جالسين، يشربان الشاي ببطء، ولم يقتصر حديثهما على الصيد وحده، بل وناقشا مختلف الشؤون المعيشية ـ كان ثمة الكثير من المشاغل المختلفة في المنطقة. أضف إلى هذا أن حادثة طريفة، تكاد لا تصدق، جرت أثناء حديثهما.

ففي فصل الصيف لا تكف طيور السنونو واليمام، التي اتخذت من الطنوف والعليات مساكن لها، عن التحليق في الساحات ومن حول البيوت. وكانت تسرح وتمرح، ودون أن يوليها أحد أي اهتمام: وإن كانت طيور اليمام تلفت نظر السكان، أما السنونو فلم يكن أحد يهتم بها، تعيش كما يحلو لها. كانت تطير زرافات ووحدانا، وتدفع فراخها، التي أصبحت قادرة على الطيران، إلى النهوض من الأعشاش، وتدربها على الطيران. ولا ضير في ذلك، فالسنونو هي الطيور الأنبل الأجمل والأكثر تكتيكاً، وأين منها عصافير الدوري الوقحة..

لكن كلا، فمعها بالذات حدث شيء ما غريب، ولربما أكثر من ذلك.. إذ بينما كان العم وابن أخيه من آل سامانتشين يجلسان على الطاولة بكل طمأنينة، وهما منصرفان إلى الأحاديث نفسها. دخلت سنونوتان ـ يبدو أنهما ذكر وأنثاه ـ فجأة من النافذة المفتوحة، المطلة على

الساحة، ولو أنهما دخلتا الشقة من باب المصادفة، إذن لقفلتا عائدتين على الفور، عبر النافذة إياها، لكن لم يكن في نية هذين الطائرين الصاخبين أن يقفلا على أعقابهما، فقد راحا يدوران من تحت السقف بأجنحتهما المنشورة السريعة، وهما لا يكفان عن الزقزقة والصياح بإلحاح.

ـ أوْيْ انظر، من أين جاءت هاتان السنونوتان؟ ـ قال بيكتور آغا، بدهشة حتى أنه نهض من مكانه قليلاً ـ أهي غالباً ما تدخل عليك من الساحة؟

ـ كلا أبداً، إنها المرة الأولى. لم يسبق لها أن دخلت إلى هنا. إنها هنا بأعداد كبيرة، فتراها تطير بجوار النوافذ جيئةً وذهاباً. إن أعشاشها هناك تحت الأسطح ـ أوضح أرسين سامانتشين.

ـ لعلَّ شيء ما أخافهما. افتح النافذة أكثر، دعهما تخرجان.

فتح أرسين النافذة على مصراعيها، لكن السنونوتان استمرتا في الدوران والزعيق فوق رأسيهما، وبدت عيونهما الصغيرة في غاية التألق.

كان من الواضح أنهما قلقتان جداً لسبب ما، شيء ما دفعهما للتقرب من البشر، كأنهما دخلتا هذا المسكن إما لكي تنقلا نبأ ما، وإما لإعادة أحدهم إلى جادة الصواب.. هذا ما خيل لأرسين فبدا الأمر مضحكاً حقاً، أما سامانتشين الأكبر فقد تناول المنشفة المعلقة على ظهر الكرسي، وراح يحاول طرد العصفورين عبر النافذة. وهنا خرجت السنونوتان من حيث دخلتا، ولم تلبثا أن اختفتا...

ـ لكم تسلينا معهما ـ قال بيكتور آغا وهو يهز رأسه، لكن لأي غرض دخلتا إلى هنا؟ طيب دعهما تطيران، أما نحن فعلينا أن نعمل أيضاً، لم يبق من الوقت إلا القليل، دعنا نحدد موعد قدومك، ومتى نلتقي بالمطاردين من أبناء قريتنا، أضف إلى ذلك أنه لابد من إبرام العقد معك.

ـ وما الحاجة إلى العقد بيننا؟ إنه ليس لازماً أبداً.

ـ كلا، إن الأزمنة الراهنة تقتضي ذلك، إن (البيزنيس) يقوم على العقود.

هم أرسين سامانتشين أن يتهرب بقوله ما الداعي، فأنا أثق بك يا عماه، لكنه لم يكد ينق بكلمة واحدة، حتى دخلت السنونوتان من جديد، ومرة أخرى عادتا تحلقان تحت السقف بسرعة.

ـ ها ! هتف بيكتور آغا باستغراب لقد عادتا، بول ايمينسي (ما معنى هذا)؟ أجل لقد عادتا، كأنهما تريدان أن تقولا شيئاً، أو تسمعا، أو تعرفا شيئاً يثير قلقهما ـ هذا ما فكر به أرسين في تلك اللحظة، فكان مستعداً لأن ينظر إلى هاتين السنونوتين القلقتين بشكل غريب، ويصغي إليهما مرة ومرة. لكن بيكتور ـ آغا طلب منه أن يطردهما، وأن يغلق النافذة، وهكذا فقد اضطر لأن يلوح بالمنشفة، ويغلق إطار النافذة بإحكام، وفي الوقت نفسه شغل أرسين المكيف بأقصى طاقته فهو لم يكن يريد أن ينزعج بيكتور ـ آغا من الحر.

لكن لم تمض دقيقة واحدة حتى ظهرت السنونوتان من جديد خلف النافذة، ولقد توقفتا في الجو، وكادتا تلامسان الزجاج، وهما لا تكفان عن الصياح، كأنهما فعلاً تحاولان بعناد إخبار الناس بشيء ما، أو

تحذيرهم من شيء ما بسلوكهما الغريب، وتسعيان جاهدتين من أجل أن تُولّيا آذاناً صاغية.

ولم يتمالك بيكتور آغا نفسه من أن يغمغم، بعد أن هز كتفيه:

ــ ما معنى هذا؟ أفأل خير، أم نذير شر؟ لكن لن نخرج عن الموضوع، إرخ الستائر، وعندها قد تهدآن. وكان لابد من إغلاق النافذة بالستائر بإحكام. بعد هذا استمر القريبان في جلستهما، وناقشا الأمور المختلفة الهامة والقليلة الأهمية، لكن أرسين ظل يشعر بالدهشة والأسف لأنه اضطر للانفصال عن هاتين السنونوتين الغريبتين. لم يسبق أن سمع من قبل بمثل هذا السلوك للطيور..

استمر يفكر بذلك حتى حينما تطرق بيكتور سامانتشين، المسرور بهذا الحديث، الذي جعله يبدي رأيه بكل هدوء وحكمة في موضوع حياة الوحدة عند ابن أخيه.

ــ كل شيء لديك جيد يا أرسين ــ قال وهو ينظر في عينيه ــ شكراً، لكن الشاي لديك شايَ عزّاب، لا تزعل، المشكلة بالطبع ليست في الشاي، لكنِ إلى متى سوف تماطل؟ حان الوقت، حان الوقت. إن البعض قد تمكّن من أن يتزوج خمس ــ ست مرات، حتى أنهم يفخرون بذلك على شاشة التلفزيون، أما أنت فقد تعثرت مرة، ولا تستطيع أن تنهض أبداً. كلا هذا لا ينفع، يا أرسين، فأنت مازلت شاباً، وأنت ذكي، ذكي جداً، ولقد كان المرحوم والدك يعتز بك كثيراً. صحيح أنك لست بالغني، لكنك لست بالفقير أيضاً. جميع الأقارب ينتظرون العرس وأنا على استعداد، إن لدي قطيعاً من الخيول، سوف أقدمه للخطاب مهراً، ولسوف أسوقه إلى المدينة، إذا

أردت. لا تضحك إن النساء الجيدات كثيرات، سواء في المدينة أوالدساكر، اختر، الوقت يمر.. ثم إنك أنت نفسك تفهم ذلك جيداً.

راح أرسين يبتسم، ويهز رأسه موافقاً، وهو يحاول أن ينقل الحديث إلى مواضيع أخرى، حين خطرت لبيكتور سامانتشين خاطرة مفاجئة:

ــ اسمع يا أرسين ربما أن هاتين السنونتين لم تطيرا جيئةً وذهاباً عبثاً؟ إنهما بدورهما تريدان أن تريا زوجتك، لكنها غير موجودة في الشقة ــ ثم راح يقهقه لمزحته، بيد أن أرسين رد بلهجة جدية تماماً:

ــ ألا ليت الأمر كذلك.

وفيما بعد وبينما كان في الساحة في وداع بيكتور، راح يكرر ذلك بينه وبين نفسه: ألا ليت الأمر كذلك، أما بيكتور سامانتشين فكان يفكر بشيء آخر، شيء عملي أكثر، ما إن رأى سيارة أرسين «النيفا» المكسوة بالغبار، إلى جانب سيارته الجبارة، التي تلمع بكل روعتها، بعد غسلها، حتى قال:

ــ اسمع يا أرسين، إذا ما جرى كل شيء على ما يرام، كما خططنا ورسمنا، فإن بمقدورك حينها أن تشتري سيارة جيب كهذه. يكفي ركوب «النيفا»، صحيح أنها ليست بالسيارة الرديئة، وأنها من تركة الأزمنة السوفييتية، لكن أكثر ما يناسب إنساناً مثلك في الأزمنة الراهنة هي سيارة الجيب.

وهنا أعرب أرسين عن شكره لعمه بيكتور:

ـ شكراً يابيكي، شكراً، سوف نرى كيف ستنتهي الأمور، الجيب في الجبال ملائمة أكثر، لكن سوف نرى. ـ وفي الوقت نفسه عاد يكرر بينه وبين نفسه: ألا ليت الأمر كذلك. ومن ثم غير مجرى الحديث: اسمع يا إيتيباي، كيف كان الاستجمام؟ مرحى لك. ثابر على ذلك، ليس بوسع أي كان التغلب على الطرق في جبالنا.

ـ أجل، لقد قطعنا مع إيتيباي على هذه الطريق، كم تعتقد؟ ثلاث مئة ألف كيلومتر

ـ لا بل ثلاثمئة وأربعين ـ صحَّحَ إيتيباي بزهو.

بعد ذلك تعانقا، ولوح أرسين بيده في إثر الجيب، وهو لا يكف عن التفكير: ألا ليت الأمر كذلك.

وكان ثمة سبب كئيب آخر وراء عجز أرسين سامانتشين عن الاطمئنان في دخيلته، وهويتذكر هاتين السنونوتين الغامضتين، لم يكن ينوي أن يتحدث إلى أحد بشأنهما، وإلا لكان الأمر مضحكاً. وحدها آيدانا كان من شأنها أن تتفهم هذه القصة، وتؤولها رومانسياً، وعلى الأرجح كانت ستنصحه في جعلها موضوعاً لليبريتو مثلاً، أو لأغنية. إنها تحب مثل هذه اللقى المفاجئة للأحاديث الحميمية وهذا ما يزيد من التقارب بين أرواح العشاق. كم كان لديهما من هذا النوع من الأحاديث، أما الآن فلا يسمع صوتها، ولو بالهاتف، لقد رحلت بعيداً في تلك الليموزين التافهة... للأسف، وإلا لكان حدثها عن هاتين السنونوتين ـ البشريتين الغامضتين. ترى ما النبأ، الذي أرادتا إبلاغه؟

من الطبيعي أن النسيان طوى كل هذا بعد عدة أيام، فقد كان التحضير (للبيزنيس) ـ الصيد في جبال تويوك ـ جار، أمراً ليس

بالسهل، وكان العمل كثيراً، وفيما بعد، وفي قريته مسقط رأسه، سجل في اليوم الخامس من وصوله تلك الكتابة المريرة في دفتر يومياته، تحت عنوان «الأبواب الخفية، أو معادلة القضاء المحتوم«.

هل يعقل أن السنونوتين البريئتين حاولتا تحذيره من هذا بالذات؟ لكن من أين لهما أن تعرفا؟ شيء مضحك، غباء، لا يقبله العقل، وهْم، حتى الآن لا يزال الأمر كذلك. حتى الآن... لكن ظهور هذه الكتابة بقلم أرسين سامانتشين كان إشارة لما هو آت. وحتى الآن كانت الأفاق لا تزال صافية، خالية من القلق والتهيج لأن كل شيء كان يجري في سياقه، حسب مشروع (البيزنيس).

أما هو، ودون أن يعرف بعد ماذا أعدّ له القدر، فقد كان حزيناً، ويعاني كما الطفل، إزاء عجزه عن رؤية آيدانا، وقص حادثة السنونوتين المسليتين عليها، كيف لا، وإلا لكانت قد جاءت على عجل، وسألت: يا إلهي، أين هما هاتان السنونوتان، هذان العصفوران الرائعان؟ لكن هل هو بكامل عقله هذا المنبوذ المسكين؟

وفي الوقت نفسه كان منبوذ آخر، الوحش جابارس، يتعذب، كما المسحور تحت مضيق أوزينغيليش ـ ستريمياني. فماذا كان ينتظر؟ وما الذي كان بانتظاره؟

الفصل السادس

بعد مرور يومين كان أرسين سامانتشين خلف مقود سيارته «النيفا». لم يبق سوى أيام معدودات على وصول الضيفين الرفيعين ــ أبناء العم حسن وميسر. وبالطبع فقد كان اسماهما الكاملان أطول وأكثر تعقيداً، فكان لا بد من حفظهما عن ظهر قلب، لكن حتى الآن لا يزال هذا يكفي ــ حسن وميسر... ومن أجل إشباع رغبتهما بالصيد توجه أرسين سامانتشين إلى مسقط رأسه، إلى ذيول جبال تيان ــ شان، إلى مرتفعات تويوك ــ جار النائية.

إن الطريق أمامه طويل ــ حوالي خمس ساعات. وعلى الرغم من أنه يعرف الطريق جيداً، إذ سافر عليه مرات عديدة، خاصة بعد أن أتقن فن القيادة، فإن كل سفرة كانت محفوفة بالمصاعب إذ لم يكن سوى نصف الطريق مغطى بالإسفلت، بعدها يتحول إلى طريق ترابي عبر السفوح والحواف الحادة الجبلية. كانت «النيفا» لا تزال قوية، وإن كانت تبدو كغراب أبيض على خلفية السيارات الأجنبية الحديثة، التي ملأت المدينة والأطراف في السنوات الأخيرة.

إنه الآن عبر الأطراف الشرقية بالذات. وبعد اجتياز أزقة الضواحي، والبيوت، التي لا تزال قيد البناء، قاده الطريق بجوار البساتين والقرى، ومن ثم عبر حقول الكلخوزات والسوفخوزات

السابقة. بعدها ترامت السهوب، التي تمتد حتى الهضاب، التي تراءت من خلفها كنتورات القمم الثلجية الكبرى لمجموعة تيان ـــ شان، حيث تعيش منذ أقدم العصور في الوديان والشعاب النمور الثلجية الرقط الضارية، أخوة الفهود والنمور السوداء، والتي تبين فجأة أنها موضوع جذاب للصيد الدولي.

وإلى هناك، شطر الجبال الشاهقة، التي تلامس السماء، يمم أرسين سامانتشين وجهه، وهو في سيارته «النيفا»، قاصداً مسقط رأسه، إلى حيث لم يكن يأتي إلا في المناسبات المختلفة ـــ تارة لتقديم العزاء، وتارة لحضور حفل زفاف، وأخرى للمشاركة في حفل انتقال أقاربه المقربين إلى مساكن جديدة. وكانت شقيقته، التي ينوي النزول عندها الآن، والتي يعمل زوجها حداداً محلياً (من المعروف أن مهنة الحدادة لا تدر الكثير الآن)، كانت قد لمحت له إلى أنهم بحاجة لبناء جناح خاص، ملاصق لبيتهم، لأن ابنهم، أُوشْكُون على أبواب الزواج. وإذا ما جرى كل شيء على ما يرام، كما خطط له، وجاء الصيد موفقاً، فلا بد بالطبع من إعطائها النقود، اللازمة للبناء. وكيف لا، سوف يعطيها بكل تأكيد.

في هذه المرة قصد أرسين سامانتشين موطنه الصغير بمناسبة خاصة، مميزة، فلم يسبق له أن جاء إليه بغرض كهذا، وإذا كان لبى دعوة قريبه ـــ بيكتور سامانتشين، (بيزنيس مان) الصيد، المعروف للقاصي والداني في هذه المناطق، فإن الجميع هنا اعتبر ذلك أمراً بديهياً: العم عم، لكن من لا يرغب في الحصول على نصيبه من كومة الدولارات، الهابطة من السماء؟ أي أحمق يرفض ذلك؟

إن هذه الكومة سوف تتدفق من الصيادين العربيين، والأصح من النمور الرقط الثلجية، لأن الوحوش، وهذا بدوره أمر غير مألوف ـــ

وقعت الآن في دورة السوق: لولا وجود النمور الرقط هنا، لما كان ثمة ما يدعو هذين الضيفين إلى بعثرة هذه النقود.

حين تكون مثل هذه النقود جاهزة، فإن قلة قليلة تريد أن تعرف ما الذي يجري في قرارة نفس أحد. لكل اهتماماته، وما همه بحاكورة الغير، حتى ولو لم ينبت فيها الزرع.

ولذا فلم يكن أحد يهتم بالأسباب الحقيقية، التي دفعت أرسين سامانتشين للموافقة على القيام بدور المترجم.

كان أرسين، وهو خلف المقود، يراقب سرعته والسيارات القادمة ـ خاصة عند المنعطفات الحادة، حيث الشاحنات الضخمة ـ الصينية، كما يسمونها ـ المعبأة حتى الحمولة القصوى، وهي مائلة على جنبها، وما إن يتجاوزها في كل مرة، حتى يتنهد بارتياح. كان أرسين، وهو في جو السفر المتوتر، لا يكف عن التفكير بالشيء نفسه: كيف سيعيش، ماذا يفعل؟ ولو أن الأمر اقتصر على ذلك. فقد ظلت تلاحقه أيضاً تلك الفكرة اللجوجة، التي لا تكف عن تعذيبه، والتي كانت تجعله في كل مرة يقف عاجزاً، وهكذا راحت «عقدة الرد الختامي» ـ كما أطلق على الرغبة بالانتقام، المتأججة لديه، راحت تعذبه، وهو خلف المقود. ولقد أدهشه إذ تبين أنه على هذه الدرجة من البدائية، بحيث يقف عاجزاً عن التغلب على نفسه، وأنه لا يتحلى بذلك القدر من الثقافة، الكافي للعثور على البديل الروحي لحالته هذه، وهنا تذكر أنه كان يلقب في الماضي بالغيري ـ لكن اتضح أنه حقير. فالغريزة البدائية تقضمني، وإيديولوجيا السوق ليست لي، فهي تقذف بي بعيداً.. لا يفهم إلا قلة أننا لم نكد نتخلص من التعسف الاشتراكي، حتى وقعنا بين براثن التعسف السوقي. والسوق تقتل من يخاصمها، وما دمت تُقتل، فاقتل بدورك. ذلكم هو «الرد

النهائي» للسوق. كان يلوم نفسه، يؤنبها، ويسخر منها، لكن بالكلام فقط، أما في قرارة نفسه فلم يكن يميل إلى أي نوع من الندم أو الصفح، ويعتبر أن له كامل الحق في «الرد الختامي».

على هذا النحو كان يتوغل في الفضاء الجبلي، في سيارته «النيفا»، وهو يبتعد رُويداً رويداً عن المجتمع الحضري لبني جلدته، الذين نسيهم الرب، إن كان موجوداً أو نسوه، إن كانوا قد آمنوا به، حاملاً معه القلق، الذي ينهش روحه، البلبلة، الحزن والأسى. ألا لعنة الله ثلاثا على هذه المدينة، التي فرقت بينه وبين آيدانا، بعد أن جرتها إلى الثقافة الجماهيرية.

بيد أن المدينة لم تترك أرسين سامانتشين نفسه وشأنه أبداً، فقد ظلت تلاحقه وتحاصره في الطريق بالاتصالات الخليوية، التي كان يضطر إلى الرد عليها، إما بلا توقف، وبلا تخلٍ عن المقود، وإما أنه كان يتوقف على جانب الطريق، تجنباً للحوادث.

كانت الاتصالات على الأغلب من هيئات التحرير المختلفة، التي تنتظر المقالات ونصوص المقابلات التي وعد بها، فكان يضطر إلى تأجيلها إلى مواعيد أخرى، أما بعض رؤساء التحرير والمذيعين التلفزيونين الأكثر إلحاحاً، الذين يخططون لبرامج قادمة، فكان يزعم لهم أنه في إجازة، أي أنه قد منح نفسه بنفسه إجازة، وأن هذا من حقه تماماً، وأنه سيبقى مسافراً طيلة الأسابيع الثلاثة القادمة، وأنه الآن قد غادر المدينة، وإجمالاً فقد تمكن إلى حد ما من تأجيل هذه المشاكل اليومية والاتفاق بشأنها، لكن كان هناك مسألتان ملحتان، تتطلبان المناقشة، ولقد أصر المتصلان على الإيضاح والنقاش بالهاتف، لأن الصحافة والتلفزيون كانا بحاجة إلى رده العاجل على، النقد الذي وجه إلى آرائه فيما يتعلق بالمسائل العامة الملحّة. لم تكن

هذه الحالة بالجديدة عليه، فقد كان غالباً ما يدخل في الجدل، للبرهان على صحة وجهة نظره في مختلف المسائل، لكن مناقشة الأمر في هيئة التحرير شيء، والمناقشة بالهاتف، وأنت على مسافة بعيدة، شيء آخر. «لكن مكره أخاك لا بطل»، وها هو الآن مضطر للتوقف والدخول في النقاش، ولحسن الحظ أن المتصل هو من أصحابه كوماش بايسالوف ــ رئيس تحرير صحيفة «الطريق الجديد» كانت الشؤون الصحفية تربط بينهما منذ عهد بعيد.

ــ اسمع يا كوماش ــ قال أرسين سامانتشين بتوتر ــ طيب ما هو ذلك الأمر العاجل؟ إنني مسافر، لقد أخبرتك. سنناقش الأمر عندما أعود..

ــ أفهم يا أرسين، لكن بودي أن تعرف الأمر ــ إنه بخصوص كلمتك في المؤتمر، في المنتدى الإعلامي، هل تذكر؟...

ــ أذكر طبعاً.

ــ طيب، لقد قامت مجموعة من رجالات الدين عندنا ــ المسلمين والمسيحيين وحتى المعمدانين الليبراليين ــ بكتابة رسالة مفتوحة، سبق وقلت لك إنك تفرط دائماً في شد الصامولة[1].

ــ طيب، وما الذي أثار حفيظة هؤلاء الكهنوتيون؟ ما الذي دفعهم إلى هذا التآخي؟ فهم في الأوقات العادية لا يسلمون على بعضهم..

ــ لأنك تطاولت على الملأ على وجود الخالق، كلي القدرة، وجعلته، كما هووارد في الرسالة، منوطاً بــ «كلمة» ك.

---

[1] كناية عن التطرف في إطلاق الأحكام، وعدم مراعاة الضوابط السائدة.

ــ ماذا تقصد؟ ماذا يعني هذا؟ وأي كلي القدرة هو، إذا كان منوطاً بـــ «كلمة» ي؟ إنهم يتلهون بالسفاسف.

ــ لا تتحامق يا أرسين. كنت تعرف أي مركب خطر تركب. وهم الآن يطالبون بأن تتوب، وتعترف على الملأ أن موقفك ليس مجرد ضلال، بل وتشويه متعمد للحقيقة.

ــ مهلاً، مهلاً، أي موقف؟

ــ ألا تذكر كلمتك في المنتدى الإعلامي في ألماآطا؟

ــ طيب، إذا ما فكرنا... لكن ذلك كان في شهر أيار.

ــ فعلاً، من الخامس والعشرين حتى السابع والعشرين.

ــ طيب، وماذا بعد؟

ــ هاك، اسمع، لسوف أقرأ لك الآن جوهر احتجاجهم.

ــ طيب، هات.

ــ لكن ألن تفرغ بطارية الهاتف لديك؟

ــ لا تقلق، فلدي شاحن.

ــ سأقرأ إذن: «وهكذا، وبعد النقاش المشترك، توصلنا إلى رأي موحد: إننا، نحن ممثلي المراكز الإقليمية للديانات العالمية، نعرب عن إدانتنا واستنكارنا للكفر الذي اقترفه الصحفي المعروف أرسين سامانتشين في مؤتمر «المنتدى الإعلامي ليوروآسيا»، الذي استشهد

واقتبس من النص البربري «الفلسفي» المعروف باسم «الكلمة»، والذي يعود إلى البداوة والتنقل التاريخية، وهذا في الحقيقة أشد خطراً من الإلحاد، هل تسمعني؟

ـ أجل، إنني أسمعك، إنني أسمعك.

ـ حسن، وبعد ذلك يأتي نص كلمتك. بالمناسبة، هل تذكر أن كل الكلمات، التي ألقيت في المؤتمر، قد بثت بالتلفزيون؟ الآن سوف أتلوه عليك، اصبر قليلاً. هاك نص ما قلته، كما ورد في رسالتهم: «من المحتمل أن تتجلى لدي بهذه المناسبة طريقتي، فهمي للأهمية الكونية فعلاً لوسائل الإعلام الجماهيري المعاصرة، ولذا سأسمح لنفسي، ليس فقط بالتذكير بالأهمية اليومية الملحة لفضاءات العصر الإعلامية المتشكلة، ومسؤوليتها، بل وباللجوء إلى الاستعارات القديمة للوصول إلى الفهم الحقيقي لشمولية الكلمة بحد ذاتها، الفهم، الموروث عن الفلاسفة الرحل، الذين عاشوا في الأزمنة الغابرة، وأورد بشكل خاص القول المأثور، المأخوذ من الشعر الكازاخي ــ القرغيزي في عصر البداوة، والذي يعود إلى الأزمنة، التي سبقت ظهور الديانات العالمية السائدة. ويترجم هذا القول على النحو التالي: «إن الكلمة ترعى الإله في السموات. إن الكلمة تحلب حليب الكون، وترضعنا هذا الحليب جيلاً بعد جيل، وقرناً إثر قرن، ولذا لا وجود هناك بدون الكلمة، خارج حدود الكلمة لا للإله ولا للكون، ولا توجد في العالم قوة تفوق قوة الكلمة، ولا يوجد في العالم لهب يفوق قدرة الكلمة، حرارة ولهباً، إن هذه البديهية الشاملة قد صيغت على يد أولئك الفلاسفة الرحل، أولئك الأقين ـ المرتجلين، الذين راقبوا العالم من على ظهور مطاياهم».

ـ طيب، وما الذي أثار حفيظة أئمتنا وقساوستنا هنا؟

ـ إليك ذلك: كيف يمكن التقول بمثل هذا الكلام على الملأ، وبثه بالتلفزيون، والذي يعتبر، برأيهم بالإجماع مدعاة لإنكار وجود الإله، هل فهمت؟

ـ لم أكن والحق يقال أتوقع ردة الفعل هذه من ناحيتهم. كنت أعتقد أنهم أوسع تفكيراً. لكن هذا لم يؤثر أبداً على قناعتي من حيث الجوهر.

ـ طيب، ونحن كيف ينبغي أن نتصرف برأيك؟

ـ تصرفوا بالشكل الذي ترونه مناسباً.

ـ هذا شيء واضح. والآن اسمع يا أرسين ـ لهذا السبب أتصل بك، على الرغم من أنك في الطريق ـ لسوف نسارع إلى تلبية طلب رجال الدين لدينا، فننشر هذه الرسالة على الصفحة الأولى افهمها جيداً، فنحن كنا نسير وإياك يداً بيد منذ البيريسترويكا، لكننا إن لم نتصرف الآن على هذا النحو، فإن صحيفتنا ستجد نفسها وقد حرمت من الدعم المالي. وبهذا الصدد لم نتلق التلميح، بل وقيل لنا بما يقرب من الصراحة، أما من هو «المانح»، فأنت نفسك تعرفه.

ـ وكيف لا أعرفه. إنه ليس «المانح» لكم وحدكم، فعما قريب ستجد الثقافة كلها نفسها كالخاتم في إصبعه، وسوف يصبح كل شيء ملك يمينه ـ الكسب والقول الفصل.

ـ إذن فأنت لن تزعل منا؟

ـ أبداً، تصرفوا، أما أنا فسوف أدافع عن موقفي. ولن تحرم الحقيقة من منابرها.

ـ طيب، لِيَكُن، لكن عليك أن تفهم يا أرسين، وأقول لك من باب الصداقة.. فقبل هذا كانت لديك مقالة لم تعجب «المانحين» أبداً.

ـ أية مقالة؟

ـ في الصحافة الروسية.

ـ آ، نعم.

ـ حتى العنوان وحده يكفي «الطموح نحو الثروة والسلطة». يا لها من مقالة! من العصر الحجري حتى يومنا هذا..

ـ أجل، لقد كان ذلك ـ رد أرسين سامانتشين بإيجاز، وقد أدرك أن تلك المقالة لعبت دورها أيضاً إذ أثارت حفيظتهم، فجندوا رجال الدين للرد عليها بعنف، ولقد بذل هؤلاء جهدهم، ووراء كل هذا يقف إيرتاش كورتشال نفسه. لم يكن أرسين يشك في هذا، ثم أضاف، وهو يسند الهاتف بذقنه ـ سوف آخذ ذلك بعين الاعتبار، أما الآن فعلي أن أتحرك. إلى اللقاء يا كوماش.

ـ كما ترى يا أرسين. لست بحاجة إلى من يعلمك، لكن انظر ما الذي يدور من حولك، لسوف ننشر الرسالة، وليس أمامنا من خيار آخر، فرجال الدين لن يتركوننا وشأننا.

ـ لكن أي رجال دين هم! منافقون!

ـ أقول هذا مازحاً. وإجمالاً فأنت جبلي، وينبغي أن تعرف بنفسك أين المرتفع وأين المنحدر، وأين الهوة. سفراً ميموناً...

ـ شكراً. إلى اللقاء ـ رد أرسين سامانتشين، وهو يحاول إدراك المغزى من هذا التمني ـ أهو تحذير، أم شيء آخر أكثر أهمية؟

بعد ذلك تلقى اتصالين آخرين من هيئتي تحرير، لكنهما كانا اتصالين عاديين، خاليين من المشاكل..

لم يتوقف أرسين سامانتشين إلا للتزود بالوقود، وها هو يقترب من الطريق الترابي الجبلي المتعرج. لا يخلو السير عبر المرتفعات والمنحدرات من الرومانسية، والمناظر، التي تحيط بك جميلة، لكن ذلك يتطلب ممن يجلس وراء المقود زيادة في الانتباه، ويشكل عبئاً على السيارة. كان أرسين سامانتشين، وهو يركز جل اهتمامه على القيادة ولا يكف عن التفكير بمرارة، كيف تتعرض كلمته في المنتدى الإعلامي للتعليق عليها في وسائل الإعلام من جانب واحد، وبشكل متحيز: لقد سبق أن تعرضت مشاركاته الكثيرة في المؤتمرات من مختلف الأنواع، إلى التعليق والنقد، لكن مثل هذه الحملة المنظمة من التشهير تصادفه للمرة الأولى. وهذا يحدث بشكل استعراضي ـ فهو، أرسين سامانتشين، مسافر، ويؤجل إلى فيما بعد ذلك الشيء الرهيب، الذي يثقل كاهل روحه، والذي لا يعرف به أحد في الكون، أما ذاك، الذي يهرس كل ما يحيط به بثرائه الفاحش، والذي يستغل مآسي الآخرين، فإنه يلاحقه، ويكاد يلحق به، ولما كان الأمر كذلك فلا داعي للتردد، وما عليه، بعد أن ينتهي من الصيد مع الضيفين العربيين، إلا أن ينفذ ما عقد العزم عليه..

كان من الصعب التخلص من هذه الأفكار، ذات العواقب الوخيمة. إنه في الطريق منذ أكثر من ثلاث ساعات، وها قد بدأت تطالعه الأماكن الحبيبة، التي يعرفها منذ الطفولة، وكان قد بقي حوالي الساعة من السفر للوصول إلى مسقط رأسه تويوك ـ جار، الدسكرة الأكبر،

والتي سبق أن كانت المزرعة الكلخوزية الأكبر في المقاطعة كلها، ومع هذا فقد ظلت الأفكار نفسها تدور في رأس أرسين. ومهما ابتعد في الفضاء فإن رغبة أطفال عاطفية، لا تصادف، كما يبدو للوهلة الأولى، لدى الكبار، ذوي الإرادة القوية، ظلت تلاحقه بإصرار، وبشكل غريب: إنها الرغبة في أن يرى الآن ــ إذا كـــان ذلك ممكناً ــ آيدانا، ويتحدث معها هنا، الآن. كم كان رائعاً السفر معاً إلى قريته الحبيبة، فيحدثها، وهو خلف المقود، عن وجهة سفره والغرض منها... قبيل المغادرة حاول الاتصال بها، وإن كان يعرف أن ذلك مستحيل، وهكذا فلم يسمع «ألو» بصوتها، ولم يستطع أن يقول لها قبل السفر ولو عدة كلمات ــ لم يسمح بذلك قدرها «السوبّر» الحالي، والأصح القدر الخانع لسيطرة السوبر ــ شومان...

وفي لجة هذه الأفكار لم يبق له إلا أن يحلم بأن آيدانا هنا، وأن يتحدث معها.

وحينها بدت وكأنها تجلس إلى جانبه، وتلامسه بكتفها، كانت لطيفة جداً، وجميلة، بالطبع، ومن البديهي أن تكون جميلة، فالجمال بالنسبة للمرأة هو الشرط الأساسي للوجود، هذا ما درج عليه جنس الكائنات البشرية وما الداعي للتواضع، فلقد كانت آيدانا جميلة فعلاً ــ إذ وهبتها الطبيعة الحسن: قامة، طولاً، وجهاً وعينين، لا تكفان عن التألق بحيوية من تحت الرموش السوداء، وشعراً مقصوصاً حتى الكتفين، مسرحاً إلى الخلف تارة، ويحيط بوجهها تارة أخرى، كما تحيط الكواليس بخشبة المسرح، وصوتها! هنا لا بد من حمد الله على ما وهب صوتها من قوة وجمال، أليس كذلك يا آيا؟ آخ، عفواً، لم يكن ثمة داع لذكر هذا. فهمت، فهمت، إنني نادم، أستميحك عذراً،

فلقد سرت في ركاب الشطار، وتركتينني مشدوهاً في مهب الريح، لكن عن هذا فيما بعد..

ــ قفي ! إلى أين أنت؟ ــ انتفض أرسين. لكنها لم تعد موجودة إلى جانبه..

في الآيل ينتظره العديد من الأقارب ــ شقيقته، صهره الحداد، أبناء أخوته وأخواته، أبناء وبنات الأعمام والعمات والأخوال والخالات، وغيرهم من الأقارب، والأهم ــ بيكتور ــ آغا نفسه، الذي يعد الساعات والدقائق بانتظار وصوله، فالوقت قد أزف، والضيفان العربيان سيصلان بعد خمسة أيام، في السابع عشر من تموز /يوليو/ الساعة السابعة عشرة تماماً، إلى مطار أولياتي، في طائرتهما الخاصة، ولقد تم التنسيق مع هيئة المطار بشأن كل المسائل بواسطة الإنترنت ــ وظهر ملف كامل حول الوصول، مع ترك تاريخ المغادرة مفتوحاً، وطيلة هذا الوقت ستبقى الطائرة مع طاقمها في المطار، أو كما يفضل بيكتور سامانتشين أن يقول: «في المتار»، (إن الطائرة الخاصة بالنسبة لهما، هذين الضيفين العربيين، كمثل سيارة «النيفا» بالنسبة لك)، وباختصار فقد كان كل شيء يتم حسب خطة العمل («بيزنيس ــ بلان»). أما هو فمسافر في سيارته «النيفا»، إما في الحقيقة وإما في الخيال.. وفجأة ظهرت إلى جنبه من جديد... وسألته:

ــ إلى أين أنت مسافر يا أرس؟

ــ أوي، اعذريني يا آيا ــ قال أرس، وهو يعيد إلى السيارة توازنها، بعد أن مالت قليلاً بتأثير المفاجأة ــ لقد اتصلت بك، لكن بلا

جدوى. إنك ترتدين الفستان نفسه، والذي كنت ترتدينه ــ ألا تذكرين؟ ــ في منتزه هايدلبيرغ، إنه يليق بك جداً.

ــ إنني أصونه بكل عناية، من أجلك تهندمت يا أرس.

وهنا غير من لهجته:

ــ إننا مسافران إلى حيث نحن مسافران، لكن دعينا نتحدث بشكل جدي، لا بد من اتخاذ إجراء ما يا آيا.

ــ دعنا نتحدث، إذا كنت تريد.

ــ لكي لا يكون ذلك مفاجأة سيئة لك، أقول لك: قد لا ينتهي الأمر على خير، إن هذا لن يمس حياتك، لكن..

ــ ماذا، ماذا تقصد؟ هل يمس هذا حياتك؟

ــ ليس حياتي وحدي.

ــ ما الأمر يا أرس؟

ــ إنك امرأة ذكية، قوية وجميلة، ولقد وهبت صوتاً إلهيا، لكي تشدي على إيقاع الموسيقى الإلهية. لكن هل ستكونين عند حسن ظن الإله بك؟ إن لديك الآن إلهاً آخر، إله ــ (البيزنيس)، واسمه إيرتاش كورتشال كورتشال ــ ميتشال[1].. ألا لعنة الله عليه، فهو ليس مجرد ثري، يزداد سمنة، هذا لا يهم، بل إن إيرتاش كورتشال هو الشيطان

---

[1] ميتشال: من فعل ميتشيت: خار جأر، خوار البقر، وهي هنا لا معنى لها، بل قيلت بما يناسب القافية: كورتشال ــ ميتشال.

في وشاح الشومان. إنه يكره كل ما يقع خارج حدود سيطرته. ولقد عرف من أين تؤكل الكتف، وأدرك بحاسة الشم لديه بسرعة...

ـ راقب المقود يا أرس.

ـ لا تقلقي يا آيا، كل شيء سيكون على ما يرام.

ـ آه، أجل، لقد سبق أن تبجحت في وقت من الأوقات بأنك وراء المقود طيار ماهر.

ـ ربما كان الأمر كذلك، لكن دعيني أُنهِ كلامي: إذن لقد أدرك بحاسة الشم لديه، وهو الوحش الضاري، من كنت أقصد بعنوان مقالتي «الطموح المرضي نحو الثروة والسلطة»، والتي نشرت في صحيفة موسكوفية.

ـ لم أقرأها بعد يا أرس. لكن يقال إن أياً كان لم يذكر فيها بالاسم.

ـ وأنا لم أكن أنوي أن أذكر أيا كان، فلا ضرورة لذلك، إن المقصود هو التوجه العام المحتوم ـ الطموح نحو الثروة والسلطة، ثم إن الأمر سيان: أن تملك السلطة مباشرة، أم تملك القدرة على شرائها، فكلاهما مناسب ولقد حاولت أن أقول إن الثروة ضرورية للسلطة ضرورة الهواء للتنفس؛ والثروة بحاجة إلى السلطة حاجة التنفس إلى الهواء. على هذا النحو نظمت الحياة، فالسلطة والثروة لا تستطيع إحداهما الاستغناء عن الأخرى. أما خطر الاندفاع المزمن عبر الثروة إلى حب السلطة وبالعكس، فيكمن بالذات في أن الهدف هنا يتحقق بكل تأكيد وبأية وسيلة. وهنا يلقى كلٌ ما كتب على جبينه: البعض يتنعم، والبعض يهلك، مودعاً باللعنات. ولقد شم هذا الشخص، وأحس أن المقالة تفضح جوهره..

ـ أوي أرس. كم أنت شاطر في إلقاء المحاضرات، لكن الأفضل أن تراقب الطريق، وتتشبث بالمقود.

ـ لا تقلقي، أعتقد أنك ستدركين عما قريب أن الثروة والسلطة هما توأمان سياميان ملتصقان مذ كانا في الرحم.

ـ هل عدت إلى الاشتراكية؟ أولم يسبق أن كنا هناك؟

ـ ليس هذا المقصود.

ـ وما المقصود إذن؟

ـ المقصود أنني وإياك أصبحنا ضحيتين قدمتا لآلهة السوق. ما رأيك بهذا؟

ـ أنت نفسك تعرف. لا ترغمني يا أرسين..

ـ لماذا سكت؟ هل تتعذبين؟

ـ اسمع، أوقف السيارة. وإلا سأقفز منها، وهي سائرة. يكفي، هل تعتقد أنني قمت بذلك بكل بساطة؟ إنك تدرك كل شيء أفضل مني، إن المسألة هي: إما أن أحلّق على صهوة النجوم، عبر آفاق البوب ـ شوـ بيزنيس، وإما أن أشكو من الرومانسية، وأسير بيد ممدودة! لا تمزق لي روحي، فأنت تعرف ـ إن والديَّ عجوزان، حتى أنهما لا يحصلان على راتب تقاعدي، ثم إن ابنتي تعيش لديهما. ولا أريد لها أن تعيش في كنف الغرباء، أما أنا فلا وقت لدي، فأنا الآن رائجة جداً. إنني أعرف أنك تفكر بي، ترثي لي، إنني أعرف أنك تتعذب كثيراً من أجل العروس الخالدة لكن إذا كنت تستطيع أن تسمح لنفسك

بأن تكون مثالياً وحيداً، فماذا أفعل أنا؟ كلا، ليس لدينا أنا وأنت، كلا...

ــ ليس لدينا ماذا؟ عم تتحدثين؟

ــ عن أننا لم نعد نلتقي.

ــ وما السبب؟

ــ اسمع، حتى ولو بدوت لك وقحة، فلسوف أقول لك أخيراً. الكلام شيء، والواقع شيء آخر، فها أنت تتعذب وحيداً، لأن العالم ليس مرتباً كما ينبغي، إن أمثالك من البكّائين ليسوا قلة، أما هو فلديه بيزنيس ــ حريم، ومثيلاتي فيه ليسوا قلة. ومن أجل المال يجري الجميع إليه بسرور، وينتظرون إشارة منه، أجل لا يعجبك صاحب مسارح المنوعات والليموزينات، وهولا يناسب ذوقك، وما جدوى ذلك؟ لقد كان نكرة، وأصبح ناراً على علم! بفضل بيزنيسه، إن القوة إلى جانبه، وهذا كل شيء.

ــ أجل يا آيدانا كل شيء. إنك على حق. لا يمكن أن نضيف هنا شيئاً. كل شيء هكذا، لكنه لن يحظى أبداً باستسلامي. ولسوف ترين شيئاً ما قريباً، ولهذا الغرض أنا مسافر. ماذا بك؟ لا تتعذبي. ليس الذنب ذنبك، بل ذنب عصر السوق، الذي أفسدك، إن لديه إلهاً هو المال، وهو إله كلي الوجود. لا تتعذبي. انتظري، إلى أين؟ انتظري. أين أنت؟ أين أنت؟ لكنها اختفت، حتى أنه أوقف السيارة، والتفت حائراً، كأن آيدانا ساماروفا كانت فعلاً إلى جانبه للتو، تجلس قربه جنباً إلى جنب، وكأنها فعلاً قفزت من السيارة المنطلقة، واختفت في طرفة عين. وبعد أن ثاب إلى رشده وضرب بيده بقوة على جبينه، تابع أرسين طريقه، وهو يبتسم بمرارة، ويهز رأسه، ويلوم نفسه كما

هي العادة، على جموح خياله، وهو يصدق ولا يصدق ما يدور في خياله الجامح. لكن الحب المسكر الفاشل، والشوق المرير الخانق كانا المبرر لذلك الانفصام، الذي حدث في وعيه، والذي جعله يدير هذا الحوار، كما لو في اليقظة وكان عزاؤه الوحيد أنه مهما بدا ما يدور في خلده الهلوسي طائشاً ومضحكاً، فإنه لم يكن ثمة في الكون من يعرف ما الذي ينويه في الواقع.

لا أحد.. وما إن يعرفوا.. لكن هذا ليس مهماً، فهذا ــ كما يقال ــ مسألة أخرى. فحتى الأعداء في العالم الآخر يتصافحون ــ كما يقال، ويتعانقون..

في هذا الوقت وصل أرسين سامانتشين إلى مشارف قريته الجبلية، وراحت سيارته تشق طريقها صعوداً نحو تويوك ــ جار، وكان هو يتمعن بفرح وتأثر المنازل، التي يعرفها، تحت الأسطح الصفيحية، وساحات الدسكرة وأسيجتها، ناسياً تلك الكولبيتات[1]، التي كان خياله يقوم بها منذ فترة قصيرة، فمنذ ما يقرب من نصف عام لم يأت إلى هنا، وها هو الآن سليماً معافى، ويقترب من دسكرته الأم، التي مهما كانت فقيرة، تبقى دسكرته الأم. وقبل ذلك لم ينس أن يتزود بالوقود في الدسكرة المجاورة، عند المنعطف، وهذا شيء مهم جداً في هذه المناطق ــ القدوم بخزان ملآن.

كانوا بانتظاره طبعاً، ولم يكد يدخل الساحة حتى اندفعت شقيقته كاديشا وصهره أرمون من البيت، وعانقاه طويلاً (كانت رائحة الحديد المحمى تفوح من الحداد) حتى إن شقيقته راحت تبكي، وتسأله عن أحوال أسرة أرداك، ناسية مؤقتاً تجارة الكلاب، التي تثير استياءها،

---

[1] Culbite فرنسية تعني الشقلبة.

لقد أثلج اللقاء صدر الجميع، وكان الأهل يعرفون أنه جاء بصفة مترجم للثريين العربيين، أما بيكتور آغا نفسه فقد ظهر بعد قرابة خمس دقائق، وهذا يعني أنه كان ينتظره بدوره، بفارغ الصبر. وهذا شيء بديهي، فبدونه يصبح بيكتور سامانتشين كمن لا يَدَيْن له. كان بيكتور ـــ آغا جالساً على متن جواده، يرتدي عباءة، وجزمة، ويعتمر قبعة بيضاء مدببة، وهو جاهز للفروسية، وكان أول ما قاله، بصوته الحلقي:

ـــ لقد انتظرتك يا أرسين، كنت قلقاً جداً، شيء جيد أنك وصلت في الوقت المناسب، الأمور تسير حسب الخطة، كل شيء جاهز. أحضرت لك الفاكسات من ضيفينا الصيادين، اللذين طال انتظارنا لهما فاقرأها وترجمها، لكن غداً. أما اليوم فخذ قسطاً من الراحة واستعد قواك، فالعمل سيكون كثيراً..

تحدثوا بعد ذلك قليلاً، وشربوا الشاي، فقد جهزت أخته كل شيء، وفي هذا الوقت جاء الجيران في زيارة خاطفة، كي يروه. وتقاطر الأولاد من الطريق، وراحوا يدورون حول «النيفا«، وكانت المفاجأة. على غير انتظار التقى أرسين زميل الدراسة **تاشتان أفغان**، أما اسمه الحقيقي فكان **تاشتان ـــ بيك** ـــ وبعد الحرب الأفغانية، التي سلبته قرابة الثلاث سنوات من حياته ـــ ولحسن الحظ أنه لم يصب إلا بجرح طفيف، وعاد بصدر مزدان بوسام، وفي الآيل بدأوا ينادونه باسم تاشتان أفغان، أما في الأسرة فأصبحوا ينادونه باسم مختصر تاشأفغان، ويعني هذا اللقب «الأفغاني الصلب، صلابة الحجر» فكلمة «تاش» تعني: الحجر، أما كلمة تاشتان فتعني: المصنوع، المعمول من الحجر فمثلاً «تاشتان إيستيليك» تعني التمثال الحجري وعلى هذا النحو اشْتُقَّت أكثر الأسماء تداولاً لدى القبائل القرغيزية: «تيمير بيك» ـــ البيك الحديدي «تيمور كول» ـــ العبد الحديدي..

ومن كان يخطر بباله أن الاسم، الذي منحه إياه والداه، تمشياً مع إشارات الرمزية السماوية، لكي يصبح قوياً وصلباً (بالمناسبة لقد كان كذلك بالفعل، حتى أنه في سنوات الشباب كان يشارك في منازلات صناديد الآيلات) سيتحول على لسان أبناء قريته إلى تاشتان ـ أفغان، تعبيراً عن الاحترام والتقدير لهذا المحارب، الذي صقل شبابه وسقي في كير المعارك الحربية في جبال أفغانستان الموحشة. ولقد درس هو وأرسين سامانتشين في صف واحد، ويتحدران من قبيلة واحدة، كما كانا صديقين منذ نعومة أظفارهما. وفيما بعد افترق طريقاهما. فقد أمضى أرسين كل سنوات الدراسة الجامعية في موسكو ولينينغراد، وأصبح ابن مدينة. أما تاشتان ـ أفغان فكان على وشك التخرج من قسم الهندسة الزراعية في المعهد الزراعي، التابع للناحية، حين استُدْعي إلى الجيش، وأرسل في عداد تشكيلة المشاة إلى أفغانستان. وحين عاد، بحمد الله، إلى الوطن، بقي في كلخوزة، وفي هذا الوقت داهمتهم الإصلاحات الديمقراطية، المرافقة للبيريسترويكا، وبدأت عملية خصخصة الأراضي في المناطق الريفية. ومثله مثل الجميع ظل تاشتان ـ أفغان يعيش من (بيزنيسه) الزراعي الصغير، والأصح أنه بصعوبة كان يكسب لقمة العيش، فالفاقة تضرب أطنابها في كل مكان، سيما في الجبال النائية إلى هذا الحد.

كل هذا طفا على ذاكرة أرسين سامانتشين حين راحت أخته تحدثه عن أبناء قريته، وكيف ينتظرونه بشوق:

ـ جميع الأقارب ينتظرونك. حتى أن تاشتان ـ أفغان جاء ثلاث مرات للسؤال عنك.

كان الجميع يتوافدون بسرعة، إلى درجة أن أرسين كان بالكاد يلحق أن يسلم عليهم، ويبادلهم الحديث. وبالإضافة إلى الجيران والشيف بيكتور ــ لقد اتضح أن أبناء الآيل لم يعودوا ينادونه باللقب التقليدي «بيك»، بل باللقب المعاصر البحت ــ «شيف»، جاء لرؤيته تاشتان ــ أفغان أيضاً. وقد تعانقا بقوة، وتبادلا السلام، وكان كل منهما سعيداً برؤية الآخر، وتذكرا أنهما لم يلتقيا منذ ما يقرب من عامين. وبهذا الشأن أبدى تاشتان ــ أفغان رأيه على النحو التالي:

ــ إن لدى كل منكم هناك، في المدينة، هاتفه الخاص، يتحدث مع من يريد، ومتى يريد. أما عندنا فلا توجد هواتف، وهيهات أن توجد في المستقبل. أنت نفسك تعرف يا أرسين، ولحسن الحظ أن الكهرباء موجودة في الآيل، فقد مدت في عهد السوفيات. أما الهاتف الخليوي فلا يوجد إلاَّ لدى الشيف نفسه ولدى مساعديه الاثنين ــ بوربي وجنار بيك، إنك تذكرهما، فقد كنا نذهب إلى المدرسة سوية.

ــ أجل أعرفهما بالطبع ــ ابتسم أرسين، وحاول بالمناسبة أن يشجع صديقه القديم ــ أما بخصوص الهواتف الخليوية فإليك ما أفكر به:

على الأرجح أنك ستكسب شيئاً ما من صيد النمور الرقط مع العربِيَيْن. لقد أخبرني الشيف بيكتور آغا، حين كان في المدينة، أنك على رأس مطاردي النمور لديه، وهذا الأمر ليس مزحة ــ تتسلق الصخور، القفز عبر الجروف، مع إطلاق الصراخ بملء حنجرتك. إن بيكتور آغا يقدرك كثيراً. هذا بالإضافة إلى تجربتك الأفغانية. آمل أن تكون الأجرة جيدة. ولسوف تشتري هاتفاً خلوياً، (وأشياء أخرى). المهم أن تقع النمور الرقط في الفخ.

وهنا هز تاشتان ــ أفغان كتفيه بشكل مبهم:

ـ سنرى ماذا سيحصل ولسوف نتحدث أيضاً.لا تضحك يا أرسين، فالنمور الثلجية الرقط نادرة جداً في جبالنا. كم من الحكايات رووا لنا عنها في سنوات الطفولة، أما الهواتف الخلوية في المدن فتوجد بكميات هائلة، كما البطاطا في العدول. لكل نصيبه.

ـ هذا صحيح ـ قال أرسين سامانتسين موافقاً ـ لكن القطار يتابع سيره. والآن لم يعد الأمر حكاية كما ترى، ولسوف تقوم بنفسك بدفع النمور باتجاه الصيادين العربيين. إن هذا الآن «بيزنيس» ضخم.

ـ أجل إنه بيزنيس ضخم، لا شيء يقال.

ـ لقد أخبرني الشيف بيكتور ـ آغا أن عددكم أنتم المطاردين خمسة، وأنك أنت رئيس المجموعة كل منكم على جواده، وللجواد أيضاً أجرته الخاصة.

ـ هذا صحيح ـ أكد تاشتان ـ أفغان ـ إن عددنا خمسة والجياد لدينا قوية. لكننا سنضطر إلى الجري عبر الجبال غير المطروقة والثلوج العذراء، كان ينبغي أن تكون للصهوة أجرتها أيضاً.

ـ «بيزنيس»، فليكن «بيزنيساً». حسناً إلى الغد.

ـ حسن إلى الغد.

لكن ما إن وصل تاشتان ـ أفغان إلى باب الخروج من جهة الساحة، حتى توقف يفكر، كأن شيئاً ما فاته قوله. وهذا ما تبين بالفعل، فها هو يعود:

ـ مهلاً يا أرسين، سأؤخرك دقيقة أخرى.

ـ هل تريد أن تقول شيئاً؟ إنني مصغٍ.

ـ لنبتعد قليلاً. اسمع، أنت لنا، منا وفينا، فجميعنا من هنا، تويو كيون. أما العربيان فالأمر مختلف ـ سيصطادان في منطقتنا، ويغادران، أما نحن فعلينا أن نفكر بأنفسنا. وهكذا فإن بودنا نحن، المطاردين الخمسة، (أن نجلس معك ونتحدث بصراحة. فمتى يمكن أن تسنح فرصة كهذه؟ وبالمناسبة فقد أعددنا جواداً لك أيضاً، بناء على طلب الشيف، فأنت بدورك ستضطر للجري مع الضيفين العربيين. إن جوادك مناسب، ممتاز، سوف ترى، كل شيء، السرج والعدة، تم اختياره بالشكل المناسب). كيف لا إنها تعليمات الشيف. هكذا سوف نريك الجواد، فتمتطي صهوته، (وتجري قليلاً)، وفي الوقت نفسه سنشرب الشاي وندردش قليلاً.

حسن يا تاشتان دعنا نجلس وندردش، لكن متى؟ يجب اختيار الوقت. والبزنيس ـ بلان لدينا كثيف ولابد من تنسيق الأمر مع الشيف.

ـ حسن، حسن. ماذا لديك ليوم الغد؟ العربيان سيصلان في السابع عشر، واليوم هو الثاني عشر، وهو يكاد ينصرم. ينبغي أن نلتقي غداً، وإلا فاتنا الوقت. فلابد من الذهاب إلى الجبال للاستطلاع، وبعده لن تجد الوقت لتحك رأسك. إيه، سوف يأتي عربيان اثنان فقط، أما نحن فنستعد جميعا، الآيل بأسره. ....

طيب إن مجموعتنا بانتظارك، فالفرسان، الدعاة يتوقون إلى رؤياك.

ـ حسناً، سوف أنسق مع الشيف.

ـ تحدث إليه، ولكن قل له إنك ستلتقي مع ابن صفك. وخذ بالحسبان أننا لن نستطيع أن نأكل ونشرب ـ ولو قليلاً ـ سيكون هذا في

المرة القادمة. هذا ما اجتمع عليه الرأي في مجموعتنا، فهناك أمور أهم.

ـ لا تقلق يا تاشتان فأنا أيضاً لست متحمساً جداً للشرب (كاد أن يتفاخر، بأنه شرب منذ عهد قريب كأساً مترعة بالفودكا في مطعم «يورو آسيا»، لكنه ما إن تذكر من يقف وراء هذا كله، حتى تلعثم من شدة الغضب). بالطبع لابد لنا من الجلوس والدردشة، فنحن أتراب وفي مدرسة واحدة درسنا.

ـ هذا صحيح يا أرسين. ثم إن واحداً من خمستنا هو المعلم السابق ساكسان، وأنت تعرفه، فلقد دَرَسْنا معاً. ألا تذكر كيف كنا نعيره بقولنا: ساكساغ أبو الشعر المنفوش، وبعد تخرجه من معهد التربية أصبح مدرساً للتربية البدنية.

ـ أجل أذكره، بالطبع.

ـ أما الآن فإن ساكساغاي أصبح سائس خيل، فكوبيكات التدريس لا تقيم أوده.

لم يحر آرسين جواباً، فلم يكن ثمة ما يقوله. أما تاشأفغان فقد استطرد:

ـ ساكسان إنسان جيد جداً، لكن القدر لم يرحمه. فلقد أمضى عامين في تجارة «الشنطة». إنه يتعذب ـ بالطبع. دعنا نجلس قليلا على المقعد، سأقول كلمتين عن ساكسان. تحلَّ بالصبر قليلاً. واسمعني.

ـ إنني جاهز. دعنا نجلس قليلاً.

ـ إن لدى ساكسان قصة، وليست بالقصة. يصعب تحديد ذلك، لكنه يتحدث عن ذلك كأنه في المحكمة، تحت القسم.

ـ وما هذه القصة؟

ورد تاشأفغان، بعد أن سكت قليلاً:

ـ إن تجارة الشنطة، كما تعرف، تقذف بالإنسان إلى أماكن كثيرة، ويبدو أن ساكسان سمع الكثير من الأقاويل، وهو الآن يناقش الأمور على طريقته. لسبب ما تراه شديد الحساسية تجاه البلدان العربية، النفطية منها، ويكره كل هذه الإمارات، التي تعيش كما في الجنة، فهي بحسب رأيه، تعيش متطفلة على استخراج النفط، ومصابة بالطاعون من أسعار النفط المجنونة. وكما يقول فهي تمتص دم الأرض، وتجني الثروات مجاناً.

ـ هذه الحالة معروفة للجميع، وهي حالة عالمية شاملة ـ علق أرسين سامانتشين ـ إن الغلبة للدولارات النفطية

ـ هذا صحيح، لكن ما يسمح به الأثرياء العرب لأنفسهم لا يراود أمثالنا نحن في الحلم. فهم ينظمون سباق السيارات الأحدث، وأين تعتقد؟ في رمال الصحارى.

ـ وأعرب أرسين عن دهشته ـ الواقع أنني لم أسمع بمثل هذا. لكن هناك في الواقع هواة السباق على الجياد، لكن السباق في الرمال أكثر صعوبة.

ـ لو اقتصر الأمر على ذلك، تصور يا أرسين، هذا ما حدثنا به ساكساغاي، نقلاً عن شهود عيان ثم إن التلفزيون عرض ذلك ـ لقد

وقفنا فاغري الأفواه، جاحظي العيون. فهؤلاء المتسابقون في سيارات الجيب، وأية سيارات ــ حتى الآن ليس لدينا على شاكلتها، حتى شيفنا لا يملك هذا النوع، ومن هناك جلبوا له واحدة، من الإمارات، كما يقال، أو من الكويت. وهكذا فإن هؤلاء المتسابقين لا يتنزهون، بل ينطلقون في سياراتهم السوبر جيب. بسرعة جنونية عبر الكثبان، وهم مثلنا يسمونها «تشوكو» ــ تارة يقفزون إلى حفر وعرة، وتارة يقفزون عالياً ــ كمن يتزلج على اللوح، فوق أمواج المحيط. ماذا يسمون هذا اللوح الأحمق؟

ــ أعتقد أنه لوح السورفينغ، وبعد؟

ــ وهكذا فإن آخر سيارة جيب تصل إلى نهاية السباق تُعد فاشلة، ويجب أن تعاقب، وهذا ما يقومون به فعلاً. حيث يسارعون، تصور، إلى صب البنزين على السيارة الفاشلة، ويضرمون النار فيها، بقصد التسلية، وهم يقهقهون، ويرقصون ويمرحون. حتى المتسابق الخاسر يشاركهم المرح، ويصبون الشمبانيا على أنفسهم، دون أن يشعروا بفظاعة تصرفهم. فغدا سيشترون سيارة جيب جديدة، وكأن شيئاً لم يكن، فهذا بالنسبة لهم لا يساوي قلامة ظفر، المهم أن يتسلوا. ويبرهنوا لأنفسهم أنهم ليسوا أولئك البدو، الذين كانوا يسيرون عبر هذه الرمال، على الإبل المسكينة، وهم يتوسلون إلى الله أن لا يضل الجمل طريقه، وإلا قضوا نحبهم في الرمال. كل ذلك يا أرسين لأنه لا نهاية لملايينهم وملياراتهم، التي تتدفق من الآبار النفطية، لكن لماذا يجري مثل هذا في الكون؟ لا أحد يريد أن يجيب على ذلك ــ البعض يحرق سيارات الجيب للتسلية، والبعض ــ نحن مثلا ــ لا يستطيع شراء الأحذية للأولاد، لكي لا يذهبوا إلى المدرسة حفاة.

ـ إنني أفهمك ـ رد أرسين سامانتشين بهدوء. لقد حركت جملة تاشافغان الأخيرة مشاعره، واستولى عليه الغم. إنه لم يتوقع مثل هذا الحديث. كان يعتقد أنهما سيثرثران عن كيت و كيت. ولكي يخفف قليلاً من غلواء تاشأفغان قال:

ـ على رسلك يا صاح، لا تحتد. إنني أفهمك، لكن لا داعي لهذا. لسوف يدفعون ثمن هذا في وقت من الأوقات، ففي جعبة الحياة الكثير من العبر.

لست أنا، فأنا أتمالك نفسي، لكنك لو رأيت ساكساغاي، وهو يتحدث عن ذلك، كيف يضرب السماء بقبضتيه. كم يكره هذا الجور الأرضي. بالكاد نستطيع كبح جماحه، ونعطيه والحق يقال، مئة غرام من الشراب.

ـ أجل، بالطبع. لكن دعنا لا نبالغ كثيراً ـ وربت أرسين على كتفه بود ـ أعتقد أن الناس في هذه البلدان إجمالاً عاديون، مهما كانوا أثرياء، أما هؤلاء الذين أسكرتهم الثروة فهم على الأرجح قلة. إن حسابهم عند ربهم، لكن، وكما ترى، فلسوف يصيبنا شيء منهم، فإذا ما جرى صيد النمور الرقط على ما يرام، حصل كل منا على شيء ما.

ـ أجل، إذا ما تم هذا، فذلك لأن شيفنا إنسان عملي جداً، وقد أسس لنا هذا البيزنيس التعاوني لسوف نرى. فحظ الصيد لا يرى، مثله مثل الريح ـ ولكي يؤيد فكرته، قرر أرسين سامانتيشين أن يضيف مازحاً:

ـــ هناك أيضاً من ينبغي أن نشكرهم، وننحني إجلالاً لهم ـــ أقصد النمور الثلجية الرقط، فلولا وجودها في الجبال ما كان هذا الصيد لَيَتُمّ، ولما كانت عقود بيكتور ـــ آغا.

ـــ هذا صحيح ـــ رد تاشأفغان بجدية تامة ـــ هذا يعني أننا نبيع النمور الرقط. .. وما العمل؟ فمعها لا تبرم العقود.

ـــ يا سلام عليك ـــ قال أرسين سامانتشين ضاحكاً ـــ لم أسمع بهذا من قبل ـــ إبرام العقود مع النمور الثلجية. يا سلام. ألا شكراً لك. سوف نرتاح الآن. موافق؟

ـــ **موافق**. لقد أخرتك قليلاً. لقد أوشك المساء أن يحل. إخلد إلى الراحة. لكن لا تنس، أرجوك رجاء حاراً، غداً سنلتقي. ولسوف نجلب جوادك معنا.

ـــ حسناً يا تاشأفغان. في المدينة يقال في مناسبة كهذه: سوف نحتفل بإشهار جوادك.

ـــ هكذا ـــ هكذا، إشهار.... ولسوف نبلغ الشيف أن هناك حفل إشهار ـــ وقبيل الانصراف سأل ـــ وهل لديك جزمة للركوب؟ إن لم تكن لديك جزمة ـــ دبرنا لك.

ـــ لا تقلق. كنت أعرف لماذا أنا قادم إلى هنا، ولذا فقد أحضرت معي جزمة قديمة. منذ سنوات وهي ترقد عاطلة عن العمل.

في نهاية ذلك اليوم، وقبيل أن يأوي أرسين بعد تعب النهار، إلى فراشه، الذي أعده له الأقارب في ركن الغرفة، اتصل به بالهاتف الخليوي الشيف بيكتور ـــ آغا نفسه، وأخبره أنه موجود في وهدة

داستوركان، عند أقدام الجبال، وهناك سوف يبيت الضيفان العربيان ليلتهما الأولى. ومن البديهي أن تجهيز محطة ميدانية ليس بالأمر السهل، خاصة بالنسبة لضيوف على هذا المستوى. واتفقا على أن يلتقيا غداً، بعد الغداء، ويبدأا العمل. كان لا بد من مناقشة استقبال الضيفين ـ الصيادين في مطار أولياتي بعد ثلاثة أيام. كان على أرسين منذ لحظة وصولهما أن يكون معهما بشكل دائم ليل نهار. هذا أيضاً ليس بالأمر السهل. الصيد أمر طبيعي، لكن من يعرف أي نوع من الناس هما، وأية طباعٍ وهوايات لديهما. وعلى كل حال فقد كان أرسين سامانتشين مستعداً للقيام بواجبه بكل نزاهة. هذا ما فكر به بعد الحديث الهاتفي، كما تذكر بشكل خاطف حديثه السابق مع تاشأفغان. ترى لماذا كان يغلي مرجل غضبه إلى هذا الحد؟ إنه لأمر غريب حقاً... وفي هذا الوقت من الصيف، في تلك الساعة نفسها كان الليل الدامس قد خيم على أعماق الجبال والوديان بين القمم الثلجية والسلاسل المتطاولة وأصبح الجو بارداً كما في الشتاء. ولاذت كل المخلوقات التي تعيش في تلك الأماكن، بالهدوء حتى الصباح. كانت الطمأنينة ضرورية، كل شيء في الطبيعة هاهنا كان مؤهلا لتلك الطمأنينة ـ فالنجوم الضخمة الساطعة تتألق في السماء، غير بعيد عن الجبال، ولم تعد الغيوم تتكاثف، بل امتدت على طول السلاسل، دون أية إشارة إلى المطر، والأنهار الصاخبة هدأت هي الأخرى، وعند أقدام أوزينغليش ستريمياني هبت الريح المنخفضة، وراح جابارس المنبوذ يروح ويجيء هاهنا من أجل استرداد السكينة، وهو يقفز فوق أكوام الحجارة، بحثا عن مكان مناسب لقضاء الليل. وهكذا لم يتمكن المسكين من اجتياز المضيق، وعلى الرغم من أن فصل الصيف تجاوز منتصفه، فإنه لا يزال يظهر هاهنا بين فترة وأخرى، يتسكع قليلا، ثم يختفي، ولا يلبث أن يعود من جديد، وها قد بقي هذه المرة أيضا للمبيت، ففي هذه الليلة أزعجته الطيور في الغابة بصياحها وصخبها المستمرين. وكانت بومة الليل تونكوكوك تزعق

بهذه الطيور، ولا تكف عن الصياح بها بصوت مدوٍ، لكن بلا جدوى...

أما ما أثار مخاوف الوحش أكثر فهو تلك الأصوات البعيدة. الأصوات الشجية. فمن أين تأتي؟ لو كان جاباريس يعرف أن العروس الخالدة، التي تطوف بالجبال، قد ظهرت ها هنا، العروس الخالدة إياها «أين أنت؟ أين أنت؟ رد عليَّ ــ هذه أنا ــ العروس الخالدة. إنني أنا من يناديك، إنني أجري إليك فأين أنت، أين» وبكت العروس الخالدة هذه المرة، وأنَّت وولولت: «أوي، ما الذي سيحدث الآن؟ ما الذي سيحدث؟ ما الذي سيحدث؟ أوي، أوي ما الذي سيحدث الآن؟ ما الذي سيحدث الآن؟» فما الذي أثار مخاوفها إلى هذا الحد؟ لكنها تعرف شيئاً. لم يتحمل جاباريس تفجُّع العروس الخالدة ولوعتها فنهض، وسار عبر الرابية، إلى الجانب الآخر.. لكن ما همه هو؟ علم ذلك عند الله وحده.

الفصل السابع

يبدو أن علم ذلك ليس عند الله وحده، بل وعند أحدهم، وإن لم يكن بشكل مباشر فقد كان ثمة أناس يخططون. وهم في مكان بعيد جداً، لشيء ما في الأماكن، التي تقطنها العروس الخالدة، وبالتحديد ــ لصيد النمور الثلجية الرقط في جبال تويوك ــ جار.

في تلك الساعة الصباحية كان أرسين سامانتشين قد نهض وحلق، وغسل وجهه ويديه تحت المغسلة الهادرة، التي لابد من صب الماء فيها باستمرار، والتي يربو عمرها على المئة عام. وفي اللحظة التي راح ينشف وجهه بالمنشفة النظيفة، وهو في غاية الانشراح وهم بالخروج إلى الساحة لأخذ حمام شمسي ــ كان الطقس رائعاً، وحين أطل من النافذة منذ قليل، أدهشته السلاسل الجبلية الضخمة بروعتها. كأنها رسمت بريشة فنان ــ في تلك اللحظة تردد رنين هاتفه الخليوي.

كان أول ما خطر بباله أن المتصل هو بلا شك الشيف بيكتور، لمتابعة حديث البارحة، وكم كانت دهشته كبيرة حين تردد في السماعة فجأة صوت يتحدث اللغة الإنكليزية بطلاقة تامة، مما أذهل أرسين: فهذا شيء يكاد لايصدق هنا، في أعماق الجبال النائية.

ـ صباح الخير. إنه الصباح عندكم، على ما أظن؟ عفواً. ألست السيد أرسين سامانتشين؟

ـ أجل، أَجل، أنا هو بالذات، مع من لي شرف الحديث؟

ـ إنني إلى حد ما زميلك ـ فأنا السكرتير الصحفي في مكتب العلاقات العامة للسيد حسن. واسمي روبيرت، أو باختصار ـ بوب لوكاس. يسرني التعرف إليك، ولما كنت تتقن الإنكليزية، وبشكل رائع، كما أرى، فحبذا أن تكون وسيطنا في التعامل مع السكان المحليين، فنحن نستعد للقدوم إلى مناطقكم بقصد الصيد هل تسمعني؟

ـ أسمعك بشكل ممتاز. اجل، بالطبع سوف أحاول أن أكون الوسيط بينكم. ومن أين تتصل الآن يا بوب المحترم؟

ـ كيف من أين، يا عزيزي أرسين؟ من هنا، من الإمارات، فأنت تعرف أن الضيفين سيأتيان مع مجموعة كبيرة من المرافقين، بمن فيهم الأطباء والطهاة. و لذا فنحن نجري الاستعدادات بدورنا. ـ لكن اتصالك الهاتفي إلى عندنا، في الجبال، شيء مدهش بالنسبة لنا، وهل سيكون بمقدورك الاتصال من هنا أيضاً؟ اعذرني يا بوب لكن كيف تتمكن من ذلك؟

ـ هذا في غاية السهولة يا أرسين المحترم. إنه الاتصال عبر القمر الاصطناعي. إن بوسعنا الاتصال بأية نقطة في العالم، من أي مكان، بفضل القمر الاصطناعي الخاص، الموجود على المدار الفضائي. في أي وقت، إلى أي مكان، ومن أي مكان، فها انا الآن أتحدث معك، وأنت ترد من الجبال الآسيوية البعيدة، بينما لا يخطر لنموركم الثلجية الرقط ببال أن الأقمار الاصطناعية تخدمها هي، الوحوش البرية، أيضاً، لكي نلتقي أثناء عملية الصيد. إنها مجرد مزحة، اعذرني...

ـ لا باس يا بوب المحترم، فليس الضحك بالأمر الضار لكن الالتقاء بالنمور الرقط يمكن أن ينتهي بشتى الأشكال.

ـ بالطبع الشيء المهم في الصيد هو الطرائد الوفيرة والنمور الرقط، مثلها مثل النمور العادية ـ سلعة بالوحدة، كلما زاد عدد الوحدات، ازداد حجم الأرباح. إن الصيد بالنسبة للضيفين العربيَّين هو رياضة، وجميعنا، نحن وأنتم، وهذا أمر مفهوم، معنيون بأن يكون الصيد وفيراً وأن يكون عدد جلود النمور كبيراً. فهذا يعود بالنفع علينا وعلى شركة الصيد «ميرغين»، فلسوف تكتسب الشهرة على الفور.

ـ أجل يا بوب، بالطبع.

وفي الوقت نفسه خطر له: يا سلام. لقد وصلت التكنولوجيا الإعلامية إلى الوحوش البرية، فهي ترصد أوجرتها من الفضاء. لو أن الوحوش البرية في الجبال عرفت أن الأقمار الاصطناعية في خدمتها، لكن ليس لخيرها أبداً.

تبين أن السكرتير الصحفي روبيرت لوكاس يحب الحديث وقريب إلى القلب حتى عن بعد. ولقد كان الحديث العملي في محله أيضاً. فقد ناقشا مختلف المسائل المتعلقة بخدمة ووصول الصيادين مع العدة. وكانت طائرة الضيفين تتناسب مع وضعهما الرفيعـ «بوينغ ٧٣٧»، والطاقم من الدرجة الأولى. لقد سجل أرسين سامانتشين بعض المعلومات المستقاة من هذا الحديث، في دفتره، لكي ينقلها إلى الشيف بيكتور. وكان قد تم التخطيط للقائهما في اليوم نفسه، بعد عودة الشيف من محطة داستوركان، إذ وعد بالاتصال حال وصوله وحتى ذلك الحين كان بالإمكان الالتقاء مع المطاردين الخمسة، مجموعة تاشأفغان، الذين وعدوه بجلب حصان الركوب، وعقد

اجتماع قصير. كان هذا اللقاء مهماً بالنسبة لأرسين سامانتشين، ليس فقط لأنهم جميعا كانوا زملاء دراسة: ثلاثة منهم ـ هو نفسه وتاشأفغان وساكساغاي الأشعث ـ كانوا في صف واحد. أما الباقيان فكانا أصغر منهم بعامين ـ ثلاثة لكن الأهم أنهم كانوا جميعا أتراباً، فقد سبق لهم أن جلسوا إلى المقاعد تحت سقف واحد. وبالمناسبة فان سطح المدرسة قد مال قليلاً وانخفض إلى حد كبير، وهذا ما لفت انتباهه لدى مروره البارحة من هناك. وفي كل الأحوال فإن المدرسة القريبة تبقى قريبة، لكن هذا أمر آخر.

على هذا النحو كان يفكر في ذلك الصباح. حين جاء تاشأفغان وساكسان الأشعث، وليس فقط بدافع الشعور بالأخوة المدرسية، بل وكما تبين، وبنية أخرى، لم يكن أرسين سامانتشين يعرف بها، بالطبع وفي الطريق قال تاشأفغان فيما يشبه المزاح:

ـ أرسين: ليكن في علمك يا صاح أننا نحن جميعاً، أبناء صفك، عزاب الآن.

ـ وقال أرسن بدهشة صادقة:

ـ ماذا تقصد، ماذا تعني بـ عزاب؟ ماذا جرى؟

ـ لا تتوقف، هيا بنا. الأمر عادي، الآن سأخبرك. أما ساكساغاي الأشعث فقد ابتسم. كمن يدرك ما وراء الأكمة. وقال، بعد أن هز رأسه:

ـ الجميع في الآيل يعرفون أننا عزاب الآن. وإلا لكنا استضفناك في البيت، ولما دعوناك إلى المدرسة.

ـ كفاكما مزاحاً.

ـ أبداً يا آرسين. عندنا، أنت إنسان كبير، فعن أي مزاح يمكن أن يدور الحديث؟ ـ أردف تاشافغان لا أحد في المدرسة الآن. إنها العطلة الصيفية و لقد طلبنا من الحارس ألاَّ يزعجنا اليوم، وأعطيناه ثمن الفودكا وهكذا فقد غادر إلى منزله، أما نحن فقد انتهزنا الفرصة، وقررنا أن من الأفضل لنا أن نجتمع في المدرسة. إن جيادنا هناك في الباحة. أما قولي إننا عزاب فذلك لأن أسرنا ـ الزوجات والأولاد ـ في الجبال الآن، لقد ارتحلوا إلى فوق، لقضاء الصيف ربما تذكر تلك الأماكن على ضفاف نهر أكساي. وهكذا فنحن نُصَيِّف هناك. ففي الأزمنة الغابرة كان الجميع يرتحلون للعيش هناك طيلة فصل الصيف، ولرعي المواشي على جايلوو. والآن قررنا. كما في الماضي، أن نصيف هناك ونقيم مع أسرنا وخيامنا.

ـ وما المانع ـ قاطعه ساكساغاي الأشعث ـ إنها الحرية. أذهب حيث يعن على بالي. فنحن لسنا في الكلخوز.

ـ يا حسرتي. طيب، سنتحدث عن هذا فيما بعد ـ قال تاشأفغان ـ يعني أن الشيف بيكتور آغا قد استدعانا إلى هنا بقصد الصيد. لسوف نكون مُطارِدين. إن لدينا كلابنا. أنت نفسك تعرف يا أرسين أنه ينبغي دفع النمور الرقط إلى تلك الأماكن، بحيث يمكن إطلاق النار عليها من المخابئ، وإلا يستحيل النيل منها وهي تربض في الشعاب، وإذا ما أقضَّ أحد مضجعها فقد تنقض عليه، لكي يعرف أين يحشر أنفه. وإذا ما حالفنا الحظ فقد نكسب نحن المطاردين أيضاً، و هكذا فقد توافدنا.

ـ وأعلنتم أنفسكم عزاباً مؤقتاً... ـ قال أرسين سامانتشين ضاحكاً. فقد أدرك جلية الأمر.

وغمغم ساكساغي ـ الأشعث:

ـ قريبا سنتخلى عن عزوبتنا. ونعود إلى الجبال نرعى القطيع، لكن بلا فائدة، لأنه لا يوجد طلب على المواشي في أي مكان، إننا نزداد فقرا على فقر، وإلا.

ـ لم يلحق أرسين أن يقول شيئا، فقد قاطعه تاشأفغان:

ـ حسنا يا ساكسان. سنتحدث عن هذا فيما بعد، وبشكل جدي أما الآن فلنفكر في شيء آخر.. ثم لاذ بالصمت، دون أن يكمل كلامه، وسكت ساكسان ـ الأشعث أيضاً. عندها شرع أرسين يحدثهما كيف اتصل به صباح اليوم من الإمارات روبيرت لوكاس، السكرتير الصحفي للسيد حسن وأخبرهما بموضوع الحديث.

لم يكن أرسين يتوقع أن هذا الموضوع سيحظى بمثل هذا الاهتمام من جانب رفيقيه، كانت المدرسة قد أصبحت على بعد عشر خطوات، أما هما فقد توقفا، وراحا يسألان عن الاتصال بالأقمار الاصطناعية بالتفصيل. عندهما كان هذا اكتشافا.

ـ يا سلام ـ قال تاشأفغان ـ هذا يعني أن بوسعهم الاتصال عبر قمرهم الاصطناعي إلى أي مكان وفي أي وقت وأن بمقدورهم. وهم في جبالنا، هناك في الوديان والمغاور، تحت الإنهيارات الثلجية، حيث لا يسمع أحد أحداً أن يتصلوا بالإمارات وبأوربا وأميركا؟ ياسلام.

ولسبب ما أبديا اهتماما كبيرا أيضا بأن طائرة الضيفين العربيَّين ستبقى تناوب في المطار طيلة الفترة، التي سيمضيها الضيفان في الصيد في الجبال، كأن هذا يمت إليهما بصلة. على الأرجح أنهما شعرا بالحسد، وقال ساكسان الأشعث، الذي كان شعره الأسود طويلا فعلاً، ويصل إلى كتفيه:

ــ يا سلام. طائرة «بوينغ» كاملة مع جميع الطيارين سوف تربض بهدوء بانتظار أصحابها.

حين كنت تاجر شنطة، لم يكن بالإمكان أن تتأخر دقيقة واحدة، وإلا فإن الطيارة تقلع في موعدها المحدد، ومن السماء تبصق على المتخلفين أما هنا فأية رفاهية، أطير متى يعن على بالي. تلك هي قوة الثروة، وأضاف تاشأفغان مستفسرا:

ــ هل يعني بقاء الطائرة واقفة أن بوسع الضيفين أن يسافرا في الوقت الذي يريدان؟ ليس لدي سوى حصان ــ هاهو في الباحة، أفعل به ما أريد: أربطه، إن أردت. أطلقه إن أردت. أنطلق على متنه، إن أردت.

وحاول أرسين سامانتشين أن يوضح:

هذا يعني أنهما اعتادا ذلك، يصعدان إلى متن الطائرة في الوقت، الذي يريناه مناسبا، فالطائرة جاهزة، والطاقم في مكانه.

ــ اقتربوا، وهم يتحدثون على هذا النحو، من المدرسة، التي سبق لهم أن درسوا فيها في الماضي، وهاهم أولاء الآن قد جاؤوا بمشيئة القدر، وقد جمعهم الحدث المنتظر ــ صيد النمور الثلجية الرقط. ثم إن الضيوف القادمين من البلدان البعيدة، قد انضموا بشكل لاإرادي

إلى مجرى الأحداث الجارية هنا، على الرغم من أن شيئا من هذا القبيل لم يخطر لهم ببال. منذ عهد بعيد لم يأت أرسين سامانتشين إلى مدرسته. كانت المدرسة تقع على أطراف الآيل، فكان يمر بجوارها، ويلقي عليها نظرة خاطفة، لكن أن يأتي إليها، أن يقوم ــ كما يقال ــ برحلة إلى ماضيه، فهذا لم يحدث أبدا. غمر الإحساس بالدفء قلبه ــ هاهي ذي المدرسة إنها هي نفسها، ولو كانت قد ريحت قليلا بفعل الزمن بسطحها العتيق، وكما كل السطوح من حولها وبأبوابها المائلة، وأطر نوافذها التي جفت، لكن المدرسة ما زالت هي نفسها. فها هي الباحة، حيث كانوا يتسابقون في الماضي، وهاهوذا الممر، وهاهي الصفوف، وإذا كان أرسين قد شعر في البداية بالحرج، حين اقترح تاشأفغان الاجتماع في المدرسة، بموافقة المدير، الذي غادر إلى مكان ما ــ فإن تاشأفغان لم يلبث أن أقنعه: أن أسرهم في الجبال، والمدرسة فارغة، عندها اطمأن أرسين سامانتشين، لا بل وفرح. ثم إن النهار أطل مشرقا، والمشهد الجبلي يطالعك أني نظرت، وفي البعيد تبرز القمم الثلجية، حيث تعيش النمور الثلجية الرقط، تلك التي كانت السبب وراء هذا كله. والطيور بأنواعها تحلق من حولك بأعداد كبيرة، ولم يكن أحد يزعجها هنا، وتراها تروح وتجيء، كما يحلو لها.

استقبل المطاردون الثلاثة من مجموعة تاشأفغان الأصغر عمراً، استقبلوا أرسين سامانتشين بالترحاب. كان الانضباط لديهم جليا: فتاشأفغان يصدر الأوامر كما في الجيش تقريباً: اذهب. تعال، قف هاهنا. هات، خذ، أغلق، افتح، وكانوا ينفذون ذلك بكل طيبة خاطر. وهذا بدوره أعجب أرسين، فعندما يجتمع شباب الآيل على هذا النحو، عادة ما يفرطون في تناول الشراب، أما هؤلاء فكانوا صاحين تماما. كل ذلك خلق جوا من الألفة والود. وبكل متعة طاف أرسين سامانتشين حول المدرسة، على متن جواده. كان الجواد قوياً، رمادي

اللون، ومسرجا بشكل متين. ولقد قدم تاشأفغان الجواد بنفسه بكل احترام:

ـ هانحن ياأرسين العزيز، وكما قلت لك البارحة، نقدم لك جوادك للركوب. حسنا فعلت أنك لم تنس أن تلبس الجزمة. أمسك الرسن، وامتط صهوته، ولسوف تجري برفقة العربيين على متنه، بينما نقوم نحن بدفع النمور الرقط نحوكم، العدد الذي تريدون.

وضحك الجميع.

ـ شكراً ـ أعرب أرسين عن امتنانه لأبناء دسكرته ـ ما دام الأمر كذلك فلسوف أسعى بدوري من أجل إرضاء العربِيَّين، إن هذا ضروري لنا.

ـ والآن دعونا نذهب لرؤية الصف. يالها من أوقات وأي مدرسين! والآن؟ لقد تشتت المدرسون، أما نحن فنصلي أن تقع النمور الرقط في مرمى السلاح. الآخرون يذهبون إلى الصيد بالطائرات، أما نحن فنسعى إلى بذل قصارى جهدنا.

هزَّ الجميع رؤوسهم. وراح أرسين يتلفت من حوله ـ السكون يخيم على الباحة، والمدرسة فارغة، والجياد تقف مربوطة، بينما الطيور تحلق فوق الرؤوس، كل شيء كان يدل على أن أرواح لم تكن الناس مطمئنة. والأمر بسيط: فما تحدث عنه تاشأفغان البارحة عرضا، يتحدث عنه الكثير من الناس بشكل أكثر نقدا، وأشد سخطا، وجميعهم على صواب ـ فلقد كانت الأمور على هذا النحو... فأنى ذهبت ترَ كومة من المشاكل. ولدى اجتياز الممر، لاحظ أرسين، وهو ينظر إلى الصفوف، التي كانت مفتوحة، أن المدرسة لم تعرف الترميم منذ عهد بعيد، وأن الغرف مهملة، وأن الشيء الوحيد الذي تم تجديده هو

المقاعد: فبدلاً من المقاعد الخشبية الخرقاء القديمة، ذات الأغطية القلابية، وضعت الآن الطاولات والكراسي، ذات المساند. والسبورات جديدة أيضاً ــ هذا ما بدا له..

نظر تاشأفغان إلى الساعة:

ــ إنها الحادية عشرة يا إخوان. الوقت يمر. دعنا نجلس يا أرسين في صفنا السابق ونتحدث.

ــ وما الداعي؟ الأفضل أن نذهب إلى عند شقيقتي، وهناك سنجلس مطمئنين. فالمكان يكفي.

ــ كلا ــ كلا يا أرسين، دعنا ندخل إلى هنا، إلى صفنا السابق، وعندها سأوضح لك شيئاً.

ــ حسناً، كما تريد، فأنا ضيفكم.

ــ ادخل. لنجلس إلى هاتين الطاولتين المتقابلتين.

جلسوا لدى النافذة المفتوحة، المطلة على الجبال، في صمت مطبق. حتى الآن لم يستطع أرسين سامانتشين أن يفهم ما الذي يريده بالتحديد أبناء دسكرته، الذين دعوه بهذا الشكل الغريب إلى المدرسة الخاوية. وعندها، وبعد إلقاء نظرة مركزة وثاقبة على الجميع، وبعد أن أطلق نظرة عميقة، وسَعَلَ قليلاً، بدأ تاشأفغان حديثه، المعد بشكل مسبق، على ما يبدو:

ــ اسمع يا أرسين لما أردنا أن نقوله لك.

ـ كلي آذان صاغية. لكن لماذا هذه اللهجة الصارمة؟ فنحن أصحاب، من قبيلة واحدة، هل حدث شيء ما؟ هل مات أحد من الأقارب؟ يبدو أن الجميع بخير، على حد علمي. ثم إننا جميعا درسنا في هذه المدرسة.

ـ كلا يا أرسين، ليس الأمر يقتصر على أين درسنا، أين عشنا. كلا، ليس كذلك أبداً. أنت ضيفنا، لكنك اليوم تحت رحمتنا، ولسوف نخبرك لماذا جئنا بك إلى هنا، وسنقول لك ما الذي سيحدث لاحقا.

ـ مهلاً ـ مهلاً ماذا يعني «إنني تحت رحمتكم»؟ أتيتموني بحصان للركوب ـ شكراً لكم، سأسافر إلى المدينة، ويبقى الحصان، فأنا سأسافر بسيارتي.

ـ من يعرف ما إذا كنت ستسافر، أم لا.

ـ كيف؟ ماذا تقصد؟ تحدث بصراحة...

ـ لهذا السبب نحن هنا. سوف يكون الحديث حاداً ـ كما السكين على العنق.

ـ يا سلام. ليأخذكم الشيطان جميعاً، هل تعتبرونني أحمقاً، أم أنك نفسك يا تاشأفغان قد جننت؟

ـ لا تغضب، أنا المخطيء في أن الحديث سار على هذا النحو ـ قال تاشأفغان، وبوجه قرمزي نهض من مكانه نصف نهضة وتحرك رفاقه بدورهم، وراحوا يتهامسون. وفي هذه اللحظة تردد من وراء النافذة فجأة نباح الكلب، الذي يقطن في باحة المدرسة: لسبب ما بدأ

كلب الحراسة هذا المعروف بأنه لا يهتم بكل من حوله، بدأ النباح بلا توقف.

ـ هيا اذهب، والق نظرة ـ أوعز تاشأفغان للمطارد، الجالس على الطرف ـ لا تدعِ أحداً يقترب، بحيث لا يكون في الجوار أحد، واطرد الكلب بعيداً. سامع؟ بحيث لا يكون في الجوار أحد.

هم أرسين سامانتشين، الذي أسقط في يده تماما، بالنهوض والانصراف، لكن تاشأفغان سبقه: وضع يده على كتفه، لمن يريد أن يقول شيئاً.ارتعش أرسين وحاول أن يزيح سنونوتان يده بحزم، وينصرف، لكن في هذه اللحظة بالذات،اقتحمت النافذة المفتوحة، مع نباح الكلب المستمر، سنونوتان، وهما تزقزقان مذعورتين، وتدوران تحت السقف، تماما على غرار ما حدث لعدة أيام خلت، في شقة أرسين ـ لكأنهما تريدان أن تنقلا خبرا ما، أو تحذرا من مغبة أمر ما. استولت الدهشة على أرسين، وفجأة استبد به هاجس خاطف ـ هل يعقل أن هذا تحذير من القدر، هل يعقل أنهما تلكما السنونوتان إياهما، تحاولان من جديد أن تقولا شيئاً بظهورهما؟

ـ هنا شعر أرسين أنه في وضع حرج، لا يحسد عليه. لم تسمح زقزقة العصفورين المستمرة، وتحليقهما السريع فوق الرؤوس، للمجتمعين بالحديث بشكل طبيعي. وبالطبع فقد عمدوا في البداية إلى طردهما، لكن السنونوتين عادتا، كما في تلك المرة. ومن جديد طردوهما، ثم أغلقوا النافذة، لكن السنونوتين استمرتا، لدهشة الجميع، تضربان الزجاج بأجنحتهما، وهما لا تكفان عن السقسقة بصخب، ومما زاد في الطين بلة أن الكلب، هو الآخر استمر لسبب ما في النباح بصوت عالٍ، وهو لا يكف يعود إلى الباحة، مهما حاولوا طرده. عندها اقترح ساكسان الأشعث:

ـ دعونا ننتقل إلى الجانب الآخر. صحيح أن الصف أصغر، لكنه أهدأ، وإلا فإن هاتين السنونوتين الحمقاوتين لن تكفا عن إزعاجنا. إنهما تعششان في مكان ما هنا، على هذا الجانب، ولذا فقد ثارت ثائرتهما. هيا بنا.

وهذا ما فعلوه. لكن أرسين سامانتشين أصبح إنسانا آخر ـ هادئا ـ متوتراً، متقوقعا على نفسه. لم يكن ينوي أن يناقض المطاردين، وتاشأفغان نفسه. والحقيقة أنه لم يعد يهتم بهم. فقد غمر روحه هاجس: ثمة شيء سيحدث في حياته، شيء ليس بالعادي أبداً، بل إنه مصيري، وربما كان كارثياً حتى، فما هو؟ لكن هل وهب أي كان القدرة على قراءة الغيب؟ وحين انتقلوا إلى صف آخر، وتخلصوا من السنونوتين الصاخبتين، قرر تاشأفغان، على ما يبدو، أن يتحدث مع أرسين على انفراد، فقال لمطارديه بلهجة آمرة:

ـ اسمعوا، دعونا أنا وأرسين نتابع حديثنا، أما أنتم، وكما اتفقنا: أن يكون الجميع في أماكنهم، وأن لا يزعجنا أحد، وأن لا يسمح لأحد بالمرور إلى هنا من أية جهة. أما أنت ياكولتاي فخذ الجياد، في هذا الوقت واحداً واحداً إلى المنهل، فهناك ساقية قريبة، كما تعرف، عند الصخرة الكبيرة.

وعلى الفور بدأوا ينفذون أوامره، كما في الجيش. من الواضح أن العقدة الأفغانية كانت ماثلة هنا.

ـ والآن يا أرسين لم يعد أحد يسمعنا. لهذا جئنا إلى هنا ـ لسوف أحدثك عن السبب والهدف مما قمنا به ـ قال تاشأفغان، ثم صمت قليلاً، بانتظار أن يسأله أرسين شيئا، لكن ذاك اكتفى بأن هز رأسه بصمت، حينها تابع تاشأفغان:

ـ أنت تعرف أكثر مني ماذا تعني العولمة، وكيف ينبغي لكل منا أن يرقص على أنغام هذا المزمار، لكي يبقى حياً.

ـ ألست تأخذ الأمور على نطاق واسع جداً؟ ـ علق أرسين سامانتشين ـ العولمة عملية عالمية شاملة. فادخل في صلب الموضوع.

ـ إنني أفهم الأمور على قدر استطاعتي. ليس سراً أن ثمة في العالم الآن أغنياء ـ يسمونهم، كما تعرف، الأوليغارشية. كأنهم سقطوا من السماء، الله معهم، لكن كيف نفهم أن الإله أصبح إله «البيزنس»، ومن حولك الكثير من ملايين البشر، الذين لا يملكون معاً فتاتاً مما يملك شخص واحد؟ كيف يمكن القبول بهذا؟ إن الدم يغلي.

ـ يفترض أن يكون الحل في المنافسة ـ رد أرسين سامانتشين.

ـ المنافسة على أنواع، إذا ما كان أحدهم أقوى وأغنى بكثير، فهل نرضخ للأمر؟ لماذا يستطيع هذان الصيادان العربيان، اللذان سيأتيان إلينا أن يشتريانا إذا ما أرادا عن بكرة أبينا لقاء ثمن بخس، ونحن مسرورون بإعداد النمور الثلجية الرقط لاستقبالهم؟

ـ إنك تسير في الدرب الخاطئ، ياتاشتانبيك، فالمنافسة تبدأ بالإنتاج. المهم هنا هو التكنولوجيا واليد العاملة. فإذا ما تمكنت من تحقيق النمو بحيث لا تتخلف.

لكن تاشأفغان قاطعه:

ـ ماذا تقصد بقولك إنني أسير في الدرب الخاطئ؟ إنني أسير في هذا الدرب، ولسوف تسير فيه معنا. كفى. منذ هذا اليوم سوف تكون

معنا، إذا كنت ترغب في البقاء حياً. ونحن اتخذنا قراراً لا رجعة عنه، سوف نأخذ العربيين رهينتين. مالك تحدق بي هكذا؟ هل تعتقد أن ذلك نوع من المزاح؟ أبداً لسوف يدفعان ثمن رأسيهما المبلغ، الذي. ..

ـ مهلا. مهلا، هل أنت في كامل عقلك؟ ياله من كلام فارغ...

ـ وهل تعتقد أنك وحدك الذكي؟ إن العقول، هي الأخرى، على أنواع. لقد فكرنا بكل شيء، وحسبنا الأمور بدقة، وليكن في علمك يا أرسين أنك ستبقى معنا مدى الحياة، مهما طال أمدها، ولم يعد لديك من مخرج آخر. سوف تكون المقدم كما في التلفزيون، الوسيط بيننا وبين الرهينتين، وسوف توجه تصرفاتنا.

ـ ماذا ـ ماذا؟ كلا، لقد جننت فعلاً، لماذا توجع رأسي بهذا اللغو؟ ألهذا الغرض جررتني إلى هنا؟

ـ لا تقلق. فلا أحد يسمعنا، أكرر ـ سوف تكون المقدم، الوسيط. ولسوف تبقى موضع فخرنا مدى الحياة.

ـ آه منك. ليأخذك الشيطان. ما هذا الكلام الفارغ؟ إذا كنت قد تعلمت في أفغانستان إصدار الأوامر ـ فهذا لا ينفع معي. اخرس قبل أن يفوت الوقت، وانسوا هذا اللغو. وكيف خطر مثل هذا لكم؟ هل تريدون إثارة فضيحة دولية؟ ألم يكفكم أن مدننا شهدت مظاهرات الشوارع دفاعاً عن الحرية والديمقراطية؟ وبالإضافة إلى ذلك هلا فكرتم بالآخرين ـ فهل تريدون دفع شركة «ميرغن» إلى الهاوية؟ ثم إن أخذ الرهائن ليس من شيمنا. ينبغي التفكير بتعقل.

ـ لا يجوز إثارة فضيحة دولية. لا يجوز إفشال شركة «ميرغن»، لا يجوز وضع السكين على نحر الملياردييرين العالميين، لكن تمريغنا في الفقر يجوز؟ إن ما يحدث في الحياة هو التالي:

لا يتسع المحيط لثروة الأغنياء، بينما يضيق المحيط عن استيعاب فقر الفقراء. أما بخصوص الشيم، فأنت على خطأ يا أرسين. هذا يعني أنك نسيت أن الحكايات تروي كيف حصل أسلافنا على الباريمطا (الفدية) لقاء الرهائن. فقد جلبوا قطعان الخيول والأغنام والماعز وبذلك وضع حد للنزاع، وعلى هذا النحو تم تقاسم الثروة.

ـ إن بالإمكان الحديث على هذا النحو طويلا يا تاشأفغان. البارحة بدت لي أفكارك مقنعة، لكنني لن أشارك في ما خططت له.

ـ بوسعك يا أرسين أن تفكر على هذا النحو أو ذاك، فأنت لا تدهشني بذلك. لكن منذ الدقيقة الأولى، التي ستعقب إختطاف الرهينتين، ستكون أنت من يتعامل معهما. سوف تنقل إليهما تعليماتي، لأن أياً منا نحن الخمسة، لا يعرف كلمة واحدة بالإنكليزية. والذنب في ذلك ليس ذنبنا. سوف نقف من حولهما والسلاح في أيدينا. أما الباقي فتقوم به أنت يا أرسين. سوف نسوق عاشقي الصيد هذين، اللذين جاءا لحسن حظنا، إلى المغارة. أما أنت فتعلن لهما أن الباريمطا (الفدية) هي عشرون مليونا. ولما كان عددنا خمسة، ومعك ستة. فإن نصيب كل منا هو ثلاثة ملايين وثلاثمئة ألف دولاراً. وذلك يكفينا لثلاث حيوات، أما بالنسبة لك فلا أعرف. ربما تتزوج أخيرا، وتعيش كما يعيش جميع الرجال، مع زوجتك وليرزقك الله الذرية.

ـ كفاك هراءً تعقل يا تاشأفغان بالسروف، وفكر. إنك تتحدث كما لو أنني وافقت، وعلى استعداد لتنفيذ أوامرك. لن أقوم بهذا العمل أبدا، لقاء أية أموال، فأنا لست إرهابيا.

ـ ونحن أيضا لسنا إرهابيين. فما إن تصبح الملايين العشرون في أيدينا ـ وهذا المبلغ عندهم كما الكوبيكين عندنا ـ حتى يصبح العربيان حرين، وأنت أيضا ستصبح حراً، لكن إلى أين تذهب حينها؟ عن هذا فيما بعد.

ـ والآن أيضاً أنا حر، ولن أكون السادس في عصابتك. كفى، انتهى الحديث، لا داعي للجعجعة بلا طحن.

ـ إنك مخطئ، فأنت لم تعد حراً. منذ هذه اللحظة أنت سادسنا.

ـ وإذا لم أرغب؟

ـ إذا لم ترغب، فلن تخرج من هنا، وسيكون قبرك هنا في هذه الباحة، في الزاوية، بعد المرحاض العام مباشرة. الأمخال والرفوش جاهزة، وفي غضون خمس دقائق ننتهي من دفنك. والسلاح لدينا جاهز. ليس عبثاً أن حياتي شوهت في الأفغان، وأنا بدوري شوهت الكثير من الأغراب. حتى إن لدينا مسدساً مزوداً بكاتم للصوت. وجميع شركائي يتقنون استخدام مختلف أنواع السلاح، بما فيها رمي القنابل. أما أنا في هذا المجال فمعلم ماهر، أقول لك بلا تواضع كاذب. وإجمالاً فإنك لن تغادر هذا المكان بالشكل، الذي أتيت به إليه، ليس لأننا نكرهك: أنت نفسك تدرك أنه ليس لدينا مخرج آخر. إنك الآن متورط معنا. نحن لسنا إرهابيين، ونحن ببساطة نأخذ نصيبنا من رأس المال العالمي، ولا أكثر من ذلك.

ـ كفى، لقد مللت، إنني منصرف.

ـ قف.لا تضطرني أن أكون جلاد ابن صفي.

ـ أجل للتو فكرت بهذا الأمر، هل كان بالإمكان أن يخطر ببالنا، ونحن نجلس في الدروس هنا، ونتسابق في الفرض، أن مثل هذا سيحدث بعد سنوات عديدة؟ ـ قال أرسين سامانتشين ذلك، ونهض، ثم دنا من النافذة، وفتحها.

ـ هل الجو خانق؟ ـ سأل تاشأفغان.

ـ أجل إن الهواء غير كاف ـ رد أرسين. والواقع أنه لم يفتح النافذة من أجل دخول الهواء الطلق، بل أملاً في أن تعود السنونوتان، وكأن بوسعهما إنقاذه. لكن الوقت كان يمر، أما هما فلم تعودا إلى الظهور. هذا يعني أن القدر سلك طريقاً آخر.

أما تاشأفغان، الذي ازداد تصلباً وعناداً، وهذا ما بدا جلياً في نظرته القاسية، فقد اندفع مقتحماً:

ـ اسمع. لا تعتقد أننا أغبياء، مجانين، فقد كنا نعرف أنك لن توافق، ولن تقوم بذلك لقاء أي شيء، فهذا عندك جريمة.

ـ إنه كذلك بالفعل ـ قال أرسين سامانتشين بحدة ـ إن الجريمة موجودة حتى في النية نفسها.

ـ ليكن. فكر كما يحلو لك. ومع هذا فسوف نقوم بذلك، وأنت ستذهب معنا، إما يداً واحدة بالمعروف، وإما بالإكراه، ولك أن تختار ما تريد.

ضرب أرسين سامانتيشين بقبضته على الطاولة، وكاد يصرخ بالعبارة المدرسية القديمة «ليتهم يلبسونك السروال من رأسك»، لكنه تمالك نفسه وقال:

ــ وإذا لم أرد بتاتاً؟

ــ لا تدق على الطاولة. مهما بلغت من الذكاء، فلن تستطيع جعلنا نتراجع عن قناعتنا، حتى لو جاء الإله بنفسه إلى هنا فلن نتراجع. ولا داعي للنقاش بهذا الشأن. سنكون في منتهى الغباء إن فوتنا نصيبنا الذي سقط من السماء. إن عشرين مليونا لا تلقى على قارعة الطريق.

ــ لا تلقى على قارعة الطريق. لكن من أين تعرف ياتاشتان ــ بيك ــ كما كان اسمك حين كنت شاباً طبيعياً ــ من أين تعرف أن هذا نصيبك؟ إن هذه سرقة مباشرة وعملية نصب واحتيال، فهلا فكرت إلى أين تجذف؟

ــ إلى هناك، إلى حيث يجذف الجميع، فقهاء القرن الحادي والعشرين، والأول في القطيع هو أنت نفسك. إلى تلك العولمة المنشودة، حيث لكل نصيبه من الثروة العالمية.

ــ هل جننت. فما دخل العولمة هنا؟ إن هذا شيء آخر تماما. لن أشرح لك، فليس هذا وقت الشرح لكن «عولمتك» شيء وحشي.

ــ إن لدينا مفهومنا. فلا تقلق.

ــ حسن وما هو؟ أن تأخذ بخناق أي مصرفي، وتهزه قائلا: لماذا حذائي مثقوب؟

ـ حُيِّيتَ، هل تدافع عن المصرفيين؟

ـ لو استطعت، إذن لوضعتكما كليكما في قارب واحد، ودفعته عبر الأمواج العاتية للعولمة، التي تكنون لها مثل هذا الإجلال.

ـ ماذا تقول: إنه لن يجلس معي في قارب واحد. ما حاجته إلى ذلك ـ إن لديه باخرة خاصة، تتسع لألفي راكب. إن للأغنياء عولمتهم ـ امتلاك الثروات عن بكرة أبيها، ولدينا عولمتنا ـ التقاسم، وانتزاع نصيبنا حيث وجدنا إلى ذلك سبيلاً. وإذا ما نزعنا من العربيين الفدية، بعد أن نختطفهما في الجبال، فهذا حقنا.

ـ اسمع يا تاشتان بيك ـ أفغان. إنني أعرف أنك لست بالأحمق، لكن كيف تستطيع التفوه بمثل هذا؟ حق ! حق السرقة؟ لست أفهم شيئاً.

ـ لا حاجة لذلك ـ قال تاشافغان لأرسين سامانتشين. إن الذي كان لا يزال ينظر من النافذة، قد أدار له ظهره، وتمتم دون أن يلتفت:

ـ لقد سمعت تعليقاتك بما فيه الكفاية ولم أعد أستطيع سماع المزيد.

ـ تستطيع، أم لا تستطيع، الأمر سيان، عليك أن تدرك يا أرسين أنك لم تعد قادراً على التنصل من هذا. إنك الآن في الفخ؛ الآن لم يعد هناك طريق عودة. تقول إننا لصوص؟ تذكر أسلافنا: فإذا ما رفض الجيران أن يدفعوا لهم لقاء المراعي والماء في الأنهار، كانوا يحتجزون الرهائن، ويحصلون على الفدية ـ قطعان الخيول والأبقار والأغنام والماعز. أما الآن فالأبعاد مختلفة. سَمِّنا كما تشاء ـ قطاع طرق، حرامية، لصوصاً ـ الأمر سيان عندنا، كما تقولون أنتم، أبناء المدينة. إن بوسعنا أن نحترم، أو لا نحترم بعضنا، نطيق أو لا نطيق

ـــ وهذا أيضاً سيان عندنا. إن المطلوب منك شيء واحد ـــ منذ الدقيقة الأولى بالضبط لظهور هذين الصيادين المليونيريين، اللذين لا يعرفان أين يضعان كنوزهما، أن لا تخطو خطوة واحدة إلا بأمري. لا تعتقد أنني سأكون في خدمة الشيف بيكتور، إن لدينا الآن صيدنا الخاص بنا ـــ البحث في الأجمات والخنادق، ودفع النمور الرقط إلى المكامن، وبينما تجري الأمور على قدم وساق، وبينما يستعد الصيادان ـــ الخانزان للتسديد على الوحوش الضارية، نقوم باختطافهما، ونسوقهما إلى المغارة، ونطالب بالفدية. لكل نصيبه ـــ كما يقال ـــ هل تسمعني يا أرسين؟ لست أثرثر بهذا كله جزافاً. بل لكي تعرف جلية الأمر تماما. إن هذا التوفيق لا يأتي حتى في الأحلام، إن الله نفسه يدعو لاقتناص... أفهمنا، تعاطف. وقم بعملك الترجماني بحيث تحظى بثقة الضيفين التامة. وهكذا فإنك، إذ تساعدهما، إنما تخدمنا، لكي نتمكن من الإيقاع بهما في شرك المغارة ـــ كل الأمل معلق عليك. هل تسمعني يا أرسين. هل تفهم فحوى كلامي؟

لم يحر أرسين جواباً، وهو يقف لدى النافذة. مطرق الرأس

ـــ اسمع، ولا تنطو على نفسك. لقد حالف الحظ خمستنا كثيراً لأنك منا وفينا، من الآيل، فأنت تفهمنا، ونحن نفهمك. ومن حسن الحظ أيضا أن لدى الضيفين مثل هذه الهواتف، التي تعتمد على الأقمار الاصطناعية. فحين سيتصلان من المغارة بذويهم، الموجودين عند أفريقيا تقريباً، سيكون بوسعنا أن نعرف طبيعة حديثهما من خلالك. وأن ننسق تصرفاتنا. وبدونك لا نستطيع أن نفعل شيئاً..

هل فهمت أخيراً؟ لماذا أنت ساكت يا أرسين؟

ــ ليس لدي ما أقوله ــ رد أرسين، ولاذ كلاهما بالصمت. «دويني أردوندابي» ــ «هل العالم في مكانه»؟ بشكل لا إرادي طفت على سطح ذاكرته هذه الجملة، التي طالما سمعها في طفولته على لسان أبناء قريته، بخصوص الأوضاع المعيشية المختلفة. أجل ظاهريا كان العالم في مكانه، بما في ذلك المدرسة، حيث وجد نفسه بهذا الشكل غير المعقول. أجل إن الوسط المحيط يمكن أن يبقى على حاله قروناً، لكن العالم من الداخل، في الروح البشرية يمكن في الوقت نفسه أن يتداعى تماما. كما اقتنع بالتجربة الشخصية، ولذا فإن أحداً يعود يتساءل مرة ومرة: «دويني أردوندابي؟» ــ «هل العالم في مكانه؟».

وعلى غير انتظار، في مثل هذا الوضع الرهيب، خطرت له أفكار غريبة، حيث راح يتساءل: ترى أين هي العروس الخالدة الآن، وهل تعرف أن العالم ليس في مكانه؟ ثم هل تعرف بذلك آيدانا ساماروفا، وتشعر بالقلق؟ من المستبعد، فهي بالطبع مشغولة بما هو أهم. لكن هل تعرف المخلوقات الجبلية بما ينتظرها في الأيام القادمة، أولا يراودها الشك في أن «العالم لم يعد في مكانه»؟ على الأرجح أن النمور الرقط تجوب في هذا اليوم المشمس الكثبان والوهاد الغابية، إلى حيث لا تصل القدم البشرية، عبر محمياتها، وهي تتربص بالفريسة التالية، بينما ترقد الإناث مع الصغار، على الأرجح، تحت الشمس الحارقة، دون أن يخامرها الشك هي الأخرى، أن «العالم لم يعد في مكانه».. ومن فوقها تحلق الصقور الجبلية أزواجاً، بشكل صارم وبلا صخب، بلا صياح لا لزوم له. فما الذي تتفحصه في العلى، فوق الجبال؟

ما الذي تنتظره وبماذا تتنبأ؟ أما أن «العالم لم يعد في مكانه» وأن محنة آتية، محنة لم يسبق لها مثيل، وأن الناس هم من سيأتي بها.

ثمة فكرة أخرى كانت تعذبه: فعلى بعد خطوتين عن يمينه، يقف تاشتان بيك ــ تاشافغان، ابن صفه السابق. إنه هو المذنب في أن العالم أصبح «ليس في مكانه»، وكان من المفروض أن يكن له الكراهية الأقسى، لكن لسبب ما فإن أرسين سامانتشين كان على الأرجح يأسف لأن هذا ينوي القيام بهذا العمل الإجرامي، وهو على مثل هذه القناعة بأنه على صواب. كان الأجدر به أن يمارس عملاً آخر، لكن سبق السيف العذل، وكل الدلائل تشير إلى أن القطار قد غادر. إن سحر العشرين مليون دولار أقوى بكثير من هلوسات ألف من الشامانات.

وكما لو أنه حزر ما يدور بخلده، فقد قطع تاشتان أفغان حبل الصمت:

ــ اسمع يا أرسين، يمكن أن يفكر المرء إلى أن يدب الشيب في لحيته، لكن مهما فكرت، فإن وضعك غير قابل للرجوع، لقد اجتزت العتبة، وما عليك الآن إلا أن تصون نفسك.

ــ لماذا تقرر أنت من يبقى حياً، ومن لا يبقى حياً؟ من الذي خولك هذا الحق؟

ــ ذلك لأنك في الوضع، الذي لا يحتمل إلا مخرجين: إما أن تكون معنا، ونحصل نحن جميعاً، وأنت في عدادنا، على حصتنا، وإما أن تنصرف، وتشي بنا. وحينها، وأقول لك بصراحة سينالك انتقامنا ــ الموت. إن بودنا كثيراً أن تبقى حياً، لكن البت في ذلك يعود إليك نفسك.

ــ عن أية حصة تتحدث! أعود فأقول إنها ليست حصة. إنها جريمة وعملية سطو.

ـ هذا يكفي. في الحرب ينتصر من لا يقف مكتوف اليدين. اصغِ بانتباه إلى خطة عملنا. لا علاقة لنا، لخمستنا، بوصول الصيادين ـ الضيفين البارزين، ولا باستقبالهما، ولا بالترحيب بهما. نحن كخدم الكيزاك: أضرمتم النار ـ انقلعوا من هنا. لكننا فرسان، ولسوف تبقى مع الضيفين يا أرسين ليل نهار. اعمل بوجدان، ولا تفكر بنا، فنحن سنذكِر بأنفسنا، وعندها سيكون لكل حادث حديث. لكنْ حين تعطى إشارة الهجوم، وأنا من سيعطيها، ينبغي أن تكون جاهزاً، نحن في صف واحد. بعد الوصول سيأخذ الضيفان الرفيعان قسطاً من الراحة عند عمك بيكتور، وفي اليوم التالي ينقلان إلى محطة كولومتو في الجبال، حتى منتصف الطريق في جيب بيكتور والسيارات الأخرى، وبعدها ـ على الخيول[1]. كل شيء تم تدبيره وإعداده، ولسوف تكون الخيول مسرجة، وفي وضع الجاهزية التامة. ينبغي أن تفهم يا أرسين أنني إنما أحدثك بهذا كله كي تدرك الوضع مثلنا. فنحن بدون ترجماتك نكرة، كما أن الأمر لن يتم بدوننا أيضاً. فكيف، وأين، ومتى نقوم بالاختطاف؟ وبأي شكل نطالب بالفدية؟ ألا تريد أن تعرف ذلك؟ ألا تريد؟ ما بالك ساكت؟

ـ لا أعرف، سأخبرك فيما بعد.

ـ لكنني قبل ذلك سأخبرك بما لدينا. السلاح من النوع الممتاز، سلاح خفيف ـ هذا واضح. فلا أحد يصطاد النمور بيدين خاويتين، والنمر الأرقط الثلجي في الجبال أشد هولاً من مختلف النمور والأُسود. هاك انظر، ففي السيركات بأنواعها ترى النمور والأُسود والذئاب وغيرها من الوحوش، وهي تقفز وترقص على أنغام المزمار، لكنك لن ترى نمراً أرقط ثلجيا مروضا واحداً في أي سيرك

[1] روث الخيول: يستخدم كوقود.

أبداً.. وبالمقابل فإن جلد النمر الأرقط ثمين جداً، ولهذا، وكما تعرف، أداروا هذا (البيزنيس) كما يكتب في الورق، «النخبوي من الجبال الشاهقة» ألا شكراً للنمور الرقط على وجودها. طيب، مالك ساكت؟ حسن، ابق صامتاً، أنت تعتقد، بالطبع، أنني أثرثر كثيراً. ربما لكن لابد أن يعرف المرء عمله، بحيث لا يتعثر بشيء. فقد يصدف أن يتعثر المرء بالنملة، فيهرب الفيل. أليس الأمر مضحكا لك يا أرسين؟

ـ حتى الآن لا.

ـ والآن هاك شيئا ما حول: كيف، أين ومتى سيتم الاختطاف. هناك جزء آخر في هذا الشأن ـ يجب أن تأخذ بالحسبان أن مجموعة من مكبرات الصوت قد أرسلت من الكويت لتسهيل عملية الصيد في الجبال، لكي يتم التخاطب عن بعد، فالهواتف هنا لا تنفع، وهكذا فقد عثروا على هذا الحل: سوف نتخاطب من جبل إلى جبل كما في أثناء المظاهرات في الساحات، التي نشاهدها بالتلفزيون ولمكبرات الصوت هذه اسم آخر، ألا تعرف ما هو؟

ـ بوق

ـ كلا، إنه اسم آخر

ـ ميغرافون؟

ـ صح. سوف يكون لديك بوق ـ ميغرافون خاص بك، إن لدى كل منا واحدً. ننطلق على الجياد ونصيح في البوق. كل الأحاديث والإيعازات أثناء الصيد سوف تترجم إلى الإنكليزية ومن الإنكليزية فورا. ولن يكون بوسع النمور الرقط أن تجد مفرا لها، وستصاب بالطرش على الأرجح لكن الهدف من حديثي هو أن كل شيء سوف

يتوقف عليك. فما إن تعلن ذلك، ما اسمه، هناك كلمة بهذا الخصوص ــ لسوف أخنقك أيها الحقير، إن لم تنفذ كيت وكيت. .. ــ قطب تاشتان ــ أفغان جبينه. كان أرسين سامانتشين يدرك أنه إنما يقصد كلمة أولتيماتوم، ولم يكن يريد أن يقولها له، لكنه وجد أن لا مندوحة من قولها:

ــ أهي أولتيماتوم[1].

ــ أجل بالطبع. كانت تدور على طرف لساني، لكنني لم أستطع إلى تذكرها سبيلا. صحيح أن الوقت غير مناسب للمزاح، لكن أحد أقيننا الشباب يقول: «إن جوادي أولتيماتوم، وأنا أمتطيه، فليركع من أقابلهم أمامي» شيء سخيف لكن «إن جوادي أولتيماتوم» أعجبني. أقول هذا بالمناسبة وهكذا فإن المهم هو أولتيماتوم، بحيث توجه الضربة القاضية للمختطفين على الفور. بعدها نزْرِبُهما في المغارة، نجردهما من السلاح، ونخلع حذاأيهما ــ فليحاولا الهَرب حافيين، عبر الصخور.. ومن جديد أريد أن تفهم يا أرسين: إذا لم نحصلَ على ملايينا العشرين، فجرت المغارة بواسطة لغم مضاد للمشاة، زرعته هناك.

ــ هل زرعت اللغم في المغارة؟ صاح أرسين سامانتشين من هول المفاجأة.

ــ أجل كنت أقوم بهذا العمل في أفغانستان. وهذا هو أولتيماتومي. تدفع عشرين مليونا، تخرج، وإلا سيأتي الانفجار على كل شيء. ما لك تنظر على هذا النحو؟ إنني إنسان طبيعي، وأنت تعرف ذلك، لكن مثل هذه الفرصة لا يمكن أن تسنح في جبالنا إلا مرة واحدة، ولن

---

(1) Ultimatima tum كلمة ألمانية من اللاتينية ultimus وتعني هنا الإنذار الأخير

تتكرر أبداً. لسوف تهرب النمور الرقط إلى خلف المضيق. طيب، لنعد إلى موضوعنا. لماذا أقول إن كل شيء سوف يتوقف عليك؟ لأنه سيكون عليك أن تنقل كل الأوامر والتعليمات عبر مكبر الصوت، باللغة الإنكليزية، بلغتنا، وبالروسية بالطبع. التي يعرفها الجميع، الكبير والصغير. والواقع أن من سيقوم بالصيد هما شخصان فقط ـ الضيفان، وأنت إلى جانبهما باستمرار، أما نحن الخيالة الخمسة فسنكون على الجوانب. بينما يكون جميع الباقين في الخلف. ولسوف يتوسل عمك إلى الله أن يوفقهم. فدعه يتوسل، وفي هذا الوقت نقوم معاً يا أرسين، وبإيعاز مني، بزَرْبِ الضيفين في المغارة، نجردهما من السلاح. والشيء الأهم، نطلب أن تكون فدية الأسيرين ـ الباريمطا ـ على الطاولة، كما يقال بأوراق نقدية «كاش» خلال أربعٍ وعشرين ساعة. يوم بكامله يعطى لتنفيذ الأولتيماتوم، ونشترط فوراً أنه لن يكون هناك تمديد، إما النقود «كاشاً»، وإما الرأسان «كاشاً». ها أنت ساكت يا أرسين، لست براض عن هذا، إنني أفهمك، لكنني أوضحِ لك ما تود أن تعرفه على الأرجح ـ كان تاشافغان مصيباً فعلاً في الكثير من تخميناته ـ أنت تريد أن تعرف كيف يمكن القيام بذلك عملياً؟ سوف تجري الأمور على الشكل التالي: إنهما يحتفظان في مصارفهما الشرق أوسطية شتاء وصيفاً، نهاراً وليلاً، بالمليارات الكاش في خزن خاصة. إن مليون دولار بالنسبة لهما مبلغ تافه. سوف توضع النقود في فترة خمس دقائق أكداساً، في كل كدس خمسة ملايين، في أربع علب، بقياس ستين في خمسة وثمانين. ولسوف يعادل وزن كل علبة عشرين كيلو غراماً، فيكون الوزن الإجمالي ثمانين كيلو غراماً. كيف تنقل؟ بالطائرة، تسع ساعات طيران. ما عليهما إلا إصدار الأمر، فينفذ كل شيء في الحال. لكن كيف يمكن نقل هذه المعلومات، وهما في مغارة في الجبال؟ أنت نفسك تعرف ـ عن طريق الهواتف، الموجودة معهما باستمرار، والتي يمكن الاتصال من خلالها إلى أي مكان، حتى إلى

الفضاء الكوني، وسوف تكون أنت من يراقب عمليات الاتصال، فابق إلى جانبهما دائماً، ولا تغب عنهما لحظة واحدة. إنك ما تزال صامتاً يا أرسين، لا تريد أن تتدخل في هذه الفضيحة، بالأحرى في هذه الجريمة النكراء؟ لكنني أعددت لكل شيء حسابه، وفكرت بكل شيء، كما ترى. ولسوف أبلغ مرامي، وإذا ما اعتبرت ذلك شيئاً منكراً، بوسعك أن تتخلى لنا عن حصتك فلن نرفضها. هذا الأمر يعنيك أنت وحدك. ألا تزال على صمتك؟ طيب، لكي لا تبقى لديك أية شكوك بأن هدفنا ليس صعب المنال، أقول لك أيضاً إننا وضعنا الخطة، التي سنزرب فيها الضيفين في المغارة. ففي المقطع الأول بالقرب من كولومتو، سيكون عليهما أن يتمركزا في المنخفض، القريب من المغارة. بحيث يتمكنان من رؤية المكان من حولهما. وأعتقد أن مجموعتنا ستتمكن، حتى ذلك الوقت، من دفع أحد النمور الرقط الثلجية إلى هناك، ولقد اكتشفناه منذ فترة طويلة، وأطلقنا عليه لقب «أبو الرأس الكبير والذيل الطويل..».. فلديه رأس هائل، كما البدر المكتمل، وذيل في منتهى الطول، يصل حتى غاربه. لقد أمضى هذا الوحش الصيف كله يتسكع تحت أوزينغليش، وكأنه بانتظار شيء ما. ولسوف يكون هو أول من ندفعه، حيث سنصيبه بجرح خفيف، بحيث لا يكون سريعاً في جريه. وسنكون جاهزين لدفع هذين الأوسع ثراء في الشرق الأوسط، إلى المغارة، حيث يبيت الرعيان، وهم في طريقهم إلى المراعي. دعهما يمكثان فيها قليلاً. وعندها يا آرسين، أردت أم لا، عليك أن تقوم بالمهمة الأهم. إنك أنت من سيعلن أولتيماتومنا للضيفين. أما نحن فنحاصر المغارة، حاملين الرشاشات، ونبقى قائمين على الحراسة. ولقد أعددت الشباب، ودربتهم، وما عليك إلا أن تقول للخان زادات: إن على كل منهما أن يدفع فدية قدرها عشرة ملايين دولار، في ما لا يزيد عن أربع وعشرين ساعة، وإن هذا هو الشرط الوحيد لبقائهما على قيد الحياة. بعدها تخرج من المغارة فوراً، وتصيح باللغة الإنكليزية أولاً ومن ثم بلغتنا: إن

الضيفين العربيين قد اختطفا. وإن شروط الفدية قد عرضت عليهما ـ لا تذكر الرقم بصوت عالـ وتعلن حالة الطوارئ، فلا يسمح لأي كان، لا للأشخاص المحليين، ولا للغرباء بالتحرك ولسوف تطلق النار على كل من يقوم بأدنى محاولة للاقتراب من المغارة، ولن يرحم أحداً. وإذا لم ينفذ الشرط قبل مضي الأربع والعشرين ساعة..

لم يتمكن آرسين سامانتشين إلا بعد جهد جهيد من التحلي بضبط النفس، وهو يصغي إلى حديث ابن صفه السابق وعن نواياه القاتلة. لكن إيقاف الآلة، التي أدارها القدر، لم يعد ممكناً. ومن الغريب أنه وهو يدين تاشأفغان، لم يكف في الوقت نفسه عن الإعجاب بمدى دقة وحسن تدبير هذه العملية، غير البسيطة أبداً، لاختطاف الرهينتين. لكنه أسف، وهو يراقب الإشارات العاصفة لصديقه القديم، وعينيه المتوقدتين عزماً وتصميماً وأسف أن مثل هذه الطاقة، ومثل هذه القناعة ليستا مكرستين لعمل صالح. وفي الوقت نفسه مرت في رأس آرسين أفكار أخرى رهيبة وعجيبة. فلقد شعر برغبة عارمة في أن يكون ذاك الإيرتاش كورتشال اللعين في هذه المغارة، مع الرهينتين، ليس أن يكون هناك فقط، بل وأن يكون آرسين نفسه قد ساقه إليها، وهو يرفسه في مؤخرته. كان التفكير بذلك مخجلاً مذلاً وغير مجد، ومع هذا فقد كان يفكر به وكان بوده لو يقشعر خوفاً هذا البيزنس مان ـ شو، المتعجرف المحتقر، الذي وضع العراقيل في طريق العروس الخالدة وآيدانا ساماروفا، ولن تقبل منه أية فدية، ولا كوبيك ـ ولينل رصاصة في جبينه.. كما خطر له أيضاً أن السنونوتين لم تزقزقا بمثل هذا الصخب عبثاً، فهما إنما كانتا تحاولان تحذيره، وها قد وقع المحذور، شيء مضحك ومحزن.. أين أنتما الآن أيتها السنونوتان؟..

كان النهار يقترب من منتصفه، وتاشأفغان لا يتوقف عن الحديث ــ ربما كانت تلك رغبة لاشعورية في تبرير فعلته، ومحاولة إضافية لإقناع نفسه بنفسه ــ وها هو الآن يتطرق إلى موضوع نتائج اختطاف الرهينتين.

ــ على الأرجح إنك يا أرسين تعتقد أننا نتلهف للحصول على الغنيمة، وأننا لا نعرف ماذا سنفعل لاحقاً بهذه العلب الأربع من الدولارات. وأنه ما إن يتم إطلاق سراح الرهينتين حتى ينقض علينا جميع عناصر القوات الخاصة، المرابطين في الجوار. هذا مفهوم. لكن لا تقلق يا أرسين فلقد خططنا لهذا أيضاً، سوف يكون لدينا كاحتياط سبع ساعات من الوقت المحايد. هل تريد أن تعرف معنى الوقت المحايد، وما جدواه؟

ــ حاول أن تشرح لي، وإن كان هذا الحديث عندي كما الحصاة في الكلية، فلقد كان بودي أن أتحدث وإياك عن أشياء أخرى، لكنك دخلت إلى خندقك، ومن هناك رحت تطلق النار، دون أن ترى من حولك شيئاً.

ــ إذا كنت في الخندق، كما عبرت أنت، فإنك أنت أيضاً معنا في الخندق نفسه الآن. ولسوف نقوم بالدفاع معاً. أما فيما يخص الوقت المحايد فإليك ماسأقوله. حين نحقق هدفنا، ونؤتي بفدية الضيفين العربيين إلى شعب كولومتو، بالقرب من المغارة نفسها، ونقتنع أن كل شيء على مايرام، حينها تخرج إلى التلة، ومعك مكبر الصوت ــ الميكرفون، وتصرخ بملء صوتك باللغة الإنكليزية ولغتنا، أننا نعلن وقتاً محايداً، مدته سبع ساعات. حيث تبقى الرهينتان في المغارة سليمتين معافيتين، ولديهما الماء والطعام، بينما نغادر نحن إلى حال سبيلنا. كما تعلن خطر الدخول إلى المغارة والخروج منها،

بدءاً من هذه اللحظة، حيث تبقى مزروعة بالألغام الشيشانية الخاصة، وهي ألغام موقوتة لا تفقد مفعولها إلا بعد سبع ساعات. وسوف تكرر هذا ثلاثاً. ستكون هذه كلمتنا الأخيرة. دعهم ينتظرون، أما نحن فسوف نبتعد في هذا الوقت بعد أن نضع العلب في حقائب من المشمع (وهي جاهزة لدينا) ونحملها على حصانين، علبتان على كل حصان. والجوادان جاهزان ـ إن لدى الشيف بيكتور خيولاً ممتازة. إنهما الجوادان، اللذان سنأخذهما من العربيين. ولسوف نندفع جميعاً مع الجوادين المحملين باتجاه مضيق أوزينعيليش على عجل. لقد درسنا كل الطرق جيداً، ولا يوجد أي خطر. وقبيل الوصول إلى القمة سنجد بانتظارنا قافلة أسرنا، وقد جاءت من أماكن الاصطياف. وهذا أيضاً أمر تم الاتفاق بشأنه، فلا داعي للقلق إذن.

كان أرسين سامانتيشين صامتاً. وكلما ازداد تمعناً في هذه الخطة التخريبية المشؤومة، والموضوعة بإتقان، ازداد قناعة بأنه هالك لا محالة. فلم يعد بالإمكان التهرب من مجموعة تاشأفغان بالرفض بكل بساطة، وبعدم الرغبة الشخصية في المشاركة في مشروعهم. وفَهِمَ حين كشفوا له عن خطتهم، إنما قيدوه من يديه ورجليه وهم على أبواب الدخول إلى الجحيم معاً.

ـ لا داعي لهذه المعاناة ـ قال تاشأفغان ـ صحيح أن الأمر لا يخلو من المجازفة، لكنه يستحق ذلك. ثم إنني أدعوك إلى هذا الأمر بصدق، بلا خداع، وبصراحة تامة. هذا ما يحدث في الجبال، إذ تحلق عالياً، ربما سنكون مثل هذه الطيور.

وهزَّ أرسين رأسه وكتفيه:

ـ لست ألح على أي أمر. سأفعل ما تقول، لكنني أفكر بطريقتي.

وفي هذا الوقت رنَّ جرس هاتفه الخليوي فجأة. فارتعش كلاهما.. ومما زاد في تيقظ تاشتان أفغان بشكل خاص أن أرسين بدأ يجاوب بالإنكليزية، فاقترب أكثر، كأن بوسعه أن يفهم شيئاً، وراح يتمعن باهتمام في وجه أرسين. الذين انتعش فجأة، وعاد إلى طبيعته، إن من حيث الصوت، وإن من حيث تعبير وجهه. استمر الحديث قرابة الخمس دقائق. وبعد أن أغلق الهاتف، وأوضح لتاشتان أفغان، الذي لم يفهم من حديثه سوى «أجل يا بوب، حسناً يا بوب» إن المتصل هو روبيرت لوكاس، السكرتير الإعلامي لحسن، الذي أبلغه أنه من المقرر أن تصل في الخامس عشر من تموز المجموعة التحضيرية، التي تضم ثلاثة أشخاص، وستجلب معها أكياس النوم الجديدة، الخاصة بالتسلق في المناطق الثلجية الشاهقة، بالإضافة إلى عدة الصيد الأخرى. وأن ذلك سيؤكد بفاكس يرسل إلى شركة «ميرغن». وعلى الطائرة نفسها سيصل مصوران سينمائيان لتصوير المناظر الطبيعية وعملية الصيد نفسها، من أجل الفيلم المنتظر. وطلب لوكاس استقبال الجميع في المطار.

ــ ها أنت ترى أن الأمور بدأت ــ قال أرسين بلهجة عملية ــ لابد من السفر بعد غدٍ إلى المطار في أولياتي، ولسوف نتحدث عن هذا لاحقاً مع الشيف ــ ولكي ينهي الحديث مع تاشتان أفغان بشكل ما. تمشى قليلاً في غرفة الصف، بعد أن أطلَّ من النافذة أضاف مفكراً: لقد حان الوقت يا تاشتان ينبغي أن ألتقي بالشيف قريباً.

ــ لكنه سافر إلى داستوركان. ولما يعد بعد، على الأرجح.

ــ لابد أن يعود عمَّا قريب ــ قال أرسين سامانتشين بلهجة غير محددة ــ وإجمالاً أعتقد أننا دردشنا معاً بما فيه الكفاية. والآن لابد من الانكباب على العمل.

ـ أجل، أجل، بالطبع. لكن بين الأعمال المتنوعة هناك الأعمال الأكثر أهمية. لكي لا تبقى لديك أية شكوك، أقول لك كلمة أخيرة يا أرسين: كل شيء يجب أن يتم حسب خطتنا، فقط على هذا النحو، وليس على نحو آخر أبداً. ما الذي يدور في رأسك، هذا من شأنك، لكنك ملزم أن تكون جاهزاً لتنفيذ أوامري ـ إن هذا كما الدقيقة، السابقة للموت، ولا تعتقد أنني أثرثر، أو أنني مجنون، فأنا في كامل عقلي وقوتي، إنك الآن مقيد إلينا. لست أحقرك، على العكس، فأنت كإنسان أكبر مني وأهم، لكن للضرورة أحكامها ـ لا مفر من تنفيذ أوامري فوراً. وليس بوسعك أن تعلن الرفض، فقد سبق السيف العذل. ونحن لم نستدعك إلي هنا، فقد جئت إلى الآيل بملء إرادتك. ولا تنسَ: نحن لسنا لصوصاً، وإن كنا سنصبح إيَّاهم في نظر الجميع غداً، كل ما في الأمر أننا نأخذ حصتنا، وليس ثمة من مخرج آخر.

ـ حسن ـ قاطعه أرسين سامانتشين ـ أنت ترى أنني قد أصغيت إليك بكل انتباه. إنك ترغمني، وعليَّ أن أقرر بنفسي.

ـ إنني أفهمك، لو كنت مكانك، لقلت الشيء نفسه. لكنني أكرر أننا لن نتراجع. سيحصل كل منا على حصته، وأنت أيضاً، لكن ليس قبل أسبوع من سفرنا. حين سنصبح على الجانب الأفغاني من بامير[1] إن مسألة وصولنا إلى هناك على شكل قافلة مهمتي أنا. فأنا أعرف هذه المناطق، ونحن الآن في الصيف. ولسوف نجتازها، لست أشك في ذلك، ولذا فنحن نصطحب أسرنا. ولا يمكن تركها، وإلا أنزلوا بها العقاب بسببنا. الأمر عندك أسهل، فأنت عازب. المستقبل لا يزال أمامك، لكن كل شيء لا يزال أمامك. كما سبق أن قلت، فإن أسرنا ستنتقل عشية خطف الرهينتين إلى تحت قمة أوزينغيليش لكي تصبح

[1] بامير: سلاسل جبلية عالية على الحدود السوفيتية ـ الصينية والأفغانية يصل ارتفاعها إلى أكثر من ٧,٤ كم.

على طريقنا، لكن أيّاً من أفراد أسرنا الخمس لا يعرف شيئاً عمّا يجري في وادي كولومتوز فهذا الأمر لا يخصهم، سوف نجتاز الحدود، وهناك بين القرغيز ـ الأفغان، سوف نعثر على ملاذ لنا. أما فيما يخص الأولاد فسوف يحصلون مع الزمن على التعليم العالي في الصين، الهند أو الباكستان، سيما وأن المال سيكون متوفراً.

ورنَّ جرس الهاتف من جديد. كان هذا الشيف بيكتور نفسه.

ـ اسمع، أين أنت الآن؟ ما الأخبار لديك؟

ـ إنني الآن في المدرسة. لقد جئت إلي هنا مع تاشتان أفغان، لنتذكر سنوات الدراسة، ولقد جلبوا لي حصاناً جيداً. وأنا مسرور يا بايكي. الأخبار هي: اتصل روبيرت لوكاس السكرتير الإعلامي. بعد غد ستصل المجموعة التحضيرية ـ ثلاثة أشخاص ومصوران سينمائيان. أما الضيفان نفسيهما، فبعد يومين من وصول هؤلاء. أجل عما قريب سوف أجيء إلى المكتب، ونناقش الأمور كلياً. لا تقلق، فكل شيء سيكون على ما يرام. كل شيء يجري حسب البرنامج.

يبدو أن تاشتان أفغان قد اطمأن حين رأى أن أرسين لم يلمح للشيف ـ عمه بيكتور بيكتور ـ أبداً عما يجري معه هنا. أما أرسين سامانتشين فقد قال بلهجة لا تكلف فيها:

ـ تفضل، إن الشيف يأمر بالحضور، هناك كومة من الأعمال، وأنت تعرف. هيا يا تاشتان، إنه الموضوع، فأنا ذاهب.

ـ حسن. إذن لا تنسَ. ستكون هناك إشارة خاصة ـ في اليوم الموعود سوف أرتدي سيدارتي العسكرية، وهي سيدارة سوفيتية، ذات حافة وإطار أحمر. إذا ما كنت في السيدارة فهذا يعني أن عليك

أن تمتثل لأوامري في كل صغيرة وكبيرة. واضح؟ واسمع باهتمام أيضاً ــ لا تحاول أن تفشل عمليتنا، وإلا كانت العاقبة وخيمة، فنحن لن نتورع على القيام بأي شيء إما أن نحصل على الفدية، وإما لقي الضيفان حتفهما، إما في الصيد أو في المغارة. ولك أن تبنى استنتاجك على هذا الأساس. وإذا ما فهُت بكلمة واحدة لعمك، ساءت الأمور أكثر ــ عندها سنرمي الجميع بالرصاص، ولن نبقي على أحد. أما إذا ما حاولت الهرب، وغسل يديك، فإننا سنلحق بك في الطريق. وإن لم نتمكن، وصلنا إليك في المدينة.. إنني أرجوك أن تفهم أنني لا أهددك، وأنا ميسور في حياتي ــ ليس ثمة من مخرج آخر، لقد انتهيت، ولن أضيف كلمة واحدة. والآن انتظر، لندع رفاقي يدخلون إلى هنا، ناد الجميع، تعالوا إلى هنا.

ــ ولماذا؟ ــ سأل أرسين بدهشة.

ــ ستعرف الآن.

وللحال دخل الشباب الأربعة. الذين ظلوا طيلة هذا الوقت يحرسون المدرسة والباحة الفارغة. وحين دخلوا الصف، ووقفوا في نسق واحد، قال لهم تاشتان أفغان، بلهجة آمرة، وهو يشير نحن أرسين سامانتشين:

ــ أبلغكم: لقد ناقشنا كل شيء، وتم حل المسائل كلها، أما الآن فليقترب كل منكم، وليقل المطلوب. كان ساكسان ــ الأشعث أول من خطا نحو أرسين:

ــ هكذا فقط. وليس بأي شكل آخر ــ قال، ثم ابتعد جانباً، ومن ثم حذا الباقون حذوه:

ـ هكذا فقط، وليس بأي شكل آخر.

ـ هكذا فقط، وليس بأي شكل آخر.

وفي الختام سأل تاشتان أفغان أرسين:

ـ والآن يا أرسين؟ هل كل شيء واضح؟

ـ هكذا بالضبط! كما في الجيش: الأوامر لا تناقش.

ـ أما عندنا في أفغانستان فكانوا يقولون: بدون أمر لا تعيش. حتى إلى عند الصبية لا تذهب. نحن الآن ستة. والآن إلى العمل. إن لدى أرسين مشاغله. سيكون ساكسان في الارتباط معي. أما أنتم الثلاثة ـ كولتاي. جيلكيش وجندوس، فإلى الاستطلاع مع المبيت، على أن تعودوا غداً عند الظهر. فتشوا عن الأماكن، التي يسهل العثور فيها على الوحوش، أما «أبو الرأس والذيل الطويل»، ذاك الذي يتسكع عند المضيق، فلا تزعجوه، إذا ما رأيتموه. فقط اختاروا أسهل الدروب. إلى دفعه عبرها للاقتراب من وادي كولومتو. وخذوا معكم السلاح الكامل من أجل حماية الخيول. والأهم أن تحددوا الأماكن، التي سنقف فيها، مزودين بالمناظر المقربة، عند بداية الصيد، والآن إلى الأحصنة. ثم لا تنسوا أن تعطوا المفاتيح للحارس. إنه يسكر في كل مكان، اعثروا عليه.

على هذا النحو افترقوا في باحة المدرسة. فقد أخذوا معهم جواد أرسين، أما هو فقد سار في الشارع نحو مكتب الكلخوز السابق، حيث يقع الآن مكتب شركة «ميرغن»، وحيث كان بانتظاره الشيف بيكتور ـ آغا. ولم يكد يقطع مسافة قصيرة، حتى لحق به تاشتان

أفغان على جواده، ثم ترجل عن صهوته، وسار إلى جانبه. ممسكاً الحصان من المقود.

عاد يتحدث عن الموضوع نفسه، ويحذر: إذا ما حدث طارئ فإن الجميع سيلقون حتفهم ـ بنيران الرشاشات عن كثب، أما إذا ما جاءت الفدية، فلن تسقط شعرة واحدة من رأس أحد.

الفصل الثامن

على هذا النحو سارا معاً في ساعة الظهيرة تلك، عبر الشارع الرئيسي المنحدر في آيل/ تويوك ــ جار/ الجبلية، كانا يسيران في أعقاب الحديث الصعب، بدون أن يتوصلا إلى اتفاق، إنهما ابنا صف واحد، حتى أنهما متشابهان في طول القامة وعرض الأكتاف. كانا يسيران باتجاه مكتب الكلخوز السابق، وشغلهما الشاغل التفكير في عاقبة الخطة ــ أرسين سامانتيش، الذي لم يرضخ للأمر وتاشتان أفغان، الذي اعتقد أنه تمكن من إرغام أرسين على الاشتراك في مؤامرتهم.

وكان من شأنهما أن يتابعا ذلك الحديث المشؤوم، لولا ظهور فارس، يجري نحوهما خبباً، وقد تبين أن الشيف بيكتور أرسله وراء تاشتان أفغان لكي يبلغه بضرورة القدوم إلى المكتب لتلقي مهمة جديدة. ولقد ترجل الفارس ــ واسمه أروزكول ــ فلم يكن من اللائق البقاء على صهوة جواده، بينما يسير على قدميه شخص مثل أرسين سامانتشين، الذي هو في الوقت نفسه ابن أخ بيكتور غان سامانتشين نفسه. وهاهم الآن يسيرون ثلاثة ــ أرسين بين جوادين، يقود كلاً منهما فارسه.

ولقد كانت تلك، كما اقتنع فيما بعد، مشيئة القدر بالضبط ــ السير على قدميه في تلك الساعة عبر آيل/ تويوك جار/.

كانوا يسيرون بهدوء، يتبادلون الحديث عن كيت وكيت، ويسلمون على من يصادفون من أبناء قريتهم، السابلة منهم، وراكبي الحمير، ولقد أطل العديد من أبناء الآيل من دُورِهم، وسلموا عليهم، فأرسين سامانتشين كان بالنسبة لهم شخصية مشهورة. وكان الكثيرون يتفاخرون بأنه ينتمي إلى تويوك ــ جار. وبالقرب من أحد البيوت همت إحدى العجائز بالنهوض قليلاً من جلستها قرب البوابة لكي تسلم عليهم، وتوقفوا هم بدورهم، وفي هذا الوقت، وكأن الأمر مدبر، ظهرت من مكان ما امرأة شابة نشيطة وفي يديها آلة تصوير. كانت ذات قامة هيفاء، ووجه في منتهى اللطافة. سمراء قليلاً، ذات ابتسامة مرحة، وعينين متوقدتين، وهي على الأرجح لا تعيش هنا، كما تدل على ذلك تسريحتها وبنطال الجينز والكنزة الرياضية، المشقوقة قليلاً.

ــ مرحباً، شيء جميل أنكم تسيرون مع بعض، أنتم الثلاثة. أرسين ــ آغا في الوسط، وأنتما على الجانبين، مع جواديكما. يا لها من ترويكا ممتازة. اسمحوا لي أن أصوركم، سوف تكون الصورة رائعة. إنني أعدكم بهذا. كلا، لا تقفوا، تابعوا السير، سأسبقكم قليلاً. هل تعرفون أن لديَّ آلة تصوير رقمية.

ــ رقمية؟ ــ دُهش أرسين سامانتشين ــ أوكموش (يا سلام).

ــ إنني مكوكية، اسمي إِليس. وأنا من آيل تيومين المجاورة، وعندي أخت هنا، وهي مريضة. هكذا، هَكذا، اقتربوا من بعضكم، هلا قصرتما رسني الجوادين. هكذا، تماماً. وأنا في طريقي إلى «ميرغن« أيضاً.

وبينما انطلقت بهمة ونشاط، وهي لا تكف تؤشر لالتقاط صورة لهم. وفجأة شعر أرسين سامانتشين بارتياح مفاجئ، كأنما بوسعها أن تلامسه عن بعد، وتشفي روحه، وتحررها من هذا العبء القاسي، من العذاب، الذي أثقل كاهلها في أعقاب الحديث مع تاشتان أفغان. وحينها أدرك في لحظة خاطفة مدى أهمية أن «يكون العالم في مكانه» من أجل الإحساس بالثقة. ولهذا كان بوده أن تصور وتصور، ولهذا فقد تذكر اسمها منذ المرة الأولى ـ إِليس، المرتبط بمفهوم الذكريات والانطباعات. ولقد جعله هذا الاسم نفسه يشعر بالانفراج بفضل بهائه وإيجازه.

وفي هذا الوقت طلبت منهم إِليس أن يتوقفوا. وراحت تعرض على شاشة آلة التصوير ماالتقطت من صور. «انظروا، كم هي رائعة. ترويكا من الفرسان». وسُرَّ الجميع، وعلق تاشتان أفغان بقوله: «يا سلام على التكنيك المعاصر» أما أرسين سامانتشين فقد نطق باسمها:

ـ شكراً يا إِليس. دعينا نلتقط صورة جماعية، لكن من سيكون المصور؟

ـ أوي، يا للروعة. إنني أتوق لأن تلتقط لي صورة معك للذكرى ـ صاحت إِليس وحين رأت شاباً يمر بهم، طلبت منه: ـ اسمع يا بلاباش. صوّرنا. اضغط على هذا الزر.

وافق الشاب بكل طيبة خاطر. حينها وقفوا أمام العدسة جميعاً: أرسين وإِليس في الوسط، بينما وقف الآخران على الجانبين، مع جواديهما. وعلى الفور أحس أرسين، وهو يقف معها، جنباً إلى جنب، بلدونة جسدها ولطافته، وتمكن من الالتصاق بها أكثر، ولم

تحاول الابتعاد، بل التصقت به للحظة، وحين ضغط الشاب على الزر، قال أرسين على عجل:

ـ شكراً لك يا بالاباش، لكن دعنا نكرر ذلك مرة أخرى ـ ومن جديد ذابا في لحظة المغناطيسية.. ومن ثم راحوا يتأملون الصور الملتقطة. وكانت إليس في غاية السرور:

ـ يا لها من صور رائعة يا أرسين ـ آغا، هذا ما لم أحلم به أبداً.

وسأل أرسين، وهو يتفحص الصور على الشاشة الصغيرة:

ـ ماذا بشأن الصور يا إليس، هل سيكون بالإمكان الحصول عليها؟ ومتى؟

ـ بالطبع يا أرسين ـ آغا، سأحاول أن تكون جاهزة في الأيام القادمة. إنك لن تسافر الآن؟

ـ ليس بعد. فنحن هنا في عمل لدى شركة «ميرغن«.

ـ وأنا بدوري سأكون هنا في الأيام القادمة، فقد كلفوني في «ميرغن» بالتقاط الصور للشركة وللضيوف. كما كلفني الشيف بإحياء حفلة غنائية آيلية للضيوف، بعد عودتهم من الصيد. وسوف تقوم الصبايا بالغناء. ومن آيل ـ تيومين سيأتي الأقين بيالي، وبودي أنا أقدم أغنية على إيقاع الكوموز.

ـ هكذا؟ إذن ستكون هناك حفلة؟ إذا ما تمت فسوف نسمع بدورنا.

ـ وتابعوا طريقهم معاً، وسأل أرسين بالمناسبة:

ـ إليس، هل أنت مصور محترف؟

ـ أوي، كلا، ليس تماماً. إنني أمينة مكتبة سابقة. ففي الماضي درست في معهد التربية. وقد كانت لدينا حافلة، ننقل فيها الكتب عبر الناحية، وكنا نطلق على تلك الحافلة اسم بيبليوس باص. فيما بعد توقف كل شيء، وتمت كما تعرف خصخصة الحافلة، أما فيما يخص الراتب فأنت تعرف بنفسك، فليس بالإمكان أن يعيش المرء على خمسة عشر دولاراً في الشهر، وهكذا فقد اضطررت لمزاولة أعمال أخرى.

ـ مفهوم ـ تمتم أرسين، أما تاشتان أفغان فألقى عليه نظرة ذات معنى، وهو يود ـ دون شك ـ أن يقول: أرأيت كيف هي الأحوال. الناس يحصلون على خمسة عشر دولاراً، أما هنا فعشرون مليوناً، ومع هذا فأنت تحرن.

رحل أوروزكول، وقد دهش أرسين سامانتشين أن تاشتان أفغان لم يمتط حصانه، وينطلق إلى الشيف بيكتور بسرعة. لكن هذا لم يكن مستعجلاً. وفكر أرسين: فليكن. لم يكن يرغب في أن يتذكر ما حدث بينهما منذ فترة قصيرة جداً، لم يعثر على الكلام، المعبر عن ذلك إذا ما سقط اثنان في بئر، فكيف يمكن أن يخرجا منها، إذا كان أحدهما يشد نحو الأسفل، والآخر نحو الأعلى؟

هل يُعقل أن إليس شعرت بسليقتها بشيء ما، فظهرت فجأة، لكي تخفف، دون أن تدرك، من عذابه ـ وهو الوحيد، البائس، اليائس، الذي وجد نفسه في هذا الوضع، رغماً عن أنفه؟ كيف يمكن أن يتخلص من تعقب القدر اللجوج؟ «ابتعد عن هذا المكان، ولا تفكر» هذا ما كان يقنع به نفسه من شدة يأسه، محاولاً نبذ المعاناة، التي

تضني قلبه، ولقد ازداد ثقة أن إليس، التي ظهرت إلى جانبه فجأة، والتي لا يخامرها الشك في شيء، إنما جاءت لكي تنقذه.. وفي الطريق راحت تحدثه بكل طيبة خاطر عن طبيعة عملها، فهي تمارس تجارة الجملة المكوكية. تأخذ القطار من أولياتي حتى ساراتوف. ومن هناك تسافر بالطائرة إلى موسكو. وهناك تشتري السلع الرائجة المختلفة بسعر، وتجلبها لتبيعها للتجار بسعر آخر. حيث تحصل على نسبة ربح، قدرها عشرة إلى خمسة عشرة بالمئة، وعلى هذا النحو تكسب لقمة عيشها. إن صحتها تسمح لها حتى الآن. وكل ما حدثته به كان يؤثر عليه، ولسبب ما، بشكل يدعو إلى الطمأنينة. أما لماذا وكيف، وما الذي حدث له فجأة، فهذا ما لم يستطع أرسين سامانتشين أن يوضحه لنفسه، فما الذي جذبه إلى هذه المرأة الساحرة التي التقاها للتو، على غير انتظار؟ إنه لم يعرفها بعد، لكنه رأى فيها الوعد بالحب والحماية، الحماية التي جاءت في اللحظة، التي كان فيها بأمس الحاجة إلى البقاء رابط الجأش، محافظاً على ذاته في وجه الخوف والضعف. كان بوده الآن أن يسافر وإياها في سيارته «النيفا» إلى المدينة ــ وأن لا يعود إلى هنا حتى منتصف الليل. وهناك الأضواء والموسيقى.

أثناء السير عبر دروب القرية كان كل شيء يرحب بهما الكلاب تجري، المداخن الصيفية تطلق دخانها، وأصحاب البيوت يطلون، ويلقون التحية مرحبين.. الشيء الوحيد، الذي لحق أرسين أن يقوله لها، وهما في طريقهما إلى مكتب الكلخوز السابق، هو أن تخاطبه بضمير المفرد ــ «أنت»: فالفرق في العمر ليس كبيراً، ولذا فمن الأنسب أن يتم التخاطب بينهما بضمير المفرد «أنت» أو «أنتِ» كما لحق أيضاً أن يسألها قبيل الدخول إلى المكتب، عما إذا كانت ستمكث هنا طويلاً، فردت إليس بقولها:

ـ لسوف أنتظرك يا أرسين الوقت المطلوب.

ـ أما هو فقال:

ـ لحسن الحظ أنك موجودة..

كان ثمة عدد كبير من الناس في المكتب وفي الحوش والشارع. الآيل كله كان مشغولاً بالحدث الموعود ـ وصول الصيادين الأجنبيين. كانت تسود المكان حركة دائبة، غير عادية، والأولاد يتراكضون أمام المكتب جيئة وذهاباً. ويقال: إن أحد أتباع الديانة (التينغريانية)، أي عبدة السماء، دعا أقرباءه أن يتوسلوا إلى جبال أوزنيغيليش كي تعمل الرياح الجبلية على إنجاح الصيد، فتطرد النمور الرّقط الثلجية من جحورها. ولم يتوان شيخ الآيل عن توجيه اللوم لهذا التينغرياني، فالتوسل يجب أن يكون إلى العلي القدير، إلى الله، لا إلى الرياح. لكن كل هذا، وكما يقال: لا يقدم ولا يؤخر، ففي شركة «مورغين» كان الشيف بيكتور يترأس اجتماعاً ليس فقط للتحضير للصيد نفسه، بل ومن أجل تأمين إقامة بطانة الضيفين الرفيعين، والسهر على خدمتها. وبكل ارتياح أشار كبار السن إلى أن هذا الاجتماع هو الأول من نوعه في الآيل، بعد الاجتماعات الكلخوزية، التي عادة ما كان يشارك فيها الرجال والنساء، والتي طواها الماضي التاريخي للأسف، هي والاشتراكية الطيبة الذكر. كما راحوا يمزحون بقولهم: إن هذا الاجتماع إنما عقد «بتوجيه» من النمور الرّقط الثلجية العظيمة. البعض كان منكباً على العمل بالفعل، والبعض الآخر كان يتسكع في الجوار من باب الفضول، لعلّ وعسى أن يكلف بشيء ما. أعجب هذا الجو أرسين سامانتشين. فمنذ عهد بعيد لم يلتق الكثير من أبناء قريته، وهاهو الآن يلتقي بهم. شيء واحد كان يحزنه ويعذبه، وهو أن أبناء قريته يكنون الكثير من

التقدير لتاشتان أفغان، وأنه يحظى لديهم بالشهرة والنفوذ. ولقد كان يتصرف بما يتناسب وذلك: كأنه لم يكن يُخْفِ في سريرته أي شيء من شأنه أن يجعل جميع الحاضرين عما قريب، يقفون كالمصعوقين. وحين ترددت الأهزوجة، التي ألفتها نساء الآيل عن تاشأفغان، لم يجد فيها أرسين ما يدعو إلى الضحك:

هيه أفغان، هيه أفغان.

اهدني قافلة.

إذن لقبلت بك زوجاً.

ولأنجبت لك الأولاد.

لن آخذ كوبيكا واحداً.

فقط أعطني ما يكفي للطعام.

هيه قافلة، هيه قافلة.

هيه أفغان، هيه أفغان.

وفكر أرسين سامانتشين بينه وبين نفسه: المهم أن لا تتحول هذه المزحات الآيلية البريئة إلى أنواع فولوكلورية تراجيدية أخرى..

وفي هذا الجو الذي لا يزال ملائماً، والذي يخفي خطراً لا عهد لهذه الأماكن بمثله، فإن ظهور إليس الرائع (كما وصفه لنفسه) وكيف وقع في حبها، مهما بدا ذلك رخيصاً، منذ النظرة الأولى، كل ذلك لم يكن برأي أرسين سامانتشين سوى إشارة من القدر. فجاءت في تلك

اللحظة بالذات، التي أتت فيها الوحدة الطويلة على الأخضر واليابس في روحه، فحولتها إلى صحراء قاحلة. على هذا النحو كان ينظر إلى ذلك اللقاء، الذي أصبح خشبة إنقاذ له بالفعل في أحداث ذلك اليوم. أما أبناء قريته فلم يروا في هذا الحدث شيئاً مميزاً، لافتاً للنظر حتى أنهم لم يولوه أي اهتمام، ولم يعطوه أية أهمية فإليس غالباً ما تأتي إلى هنا لزيارة أختها، وليست غريبة فهي من القرية المجاورة ــ تيومين ــ آيل، أي الآيل السفلى. (وهنا تساءل بينه وبين نفسه عما إذا كان اسم المنطقة تيومين السيبيرية مشتقاً من هنا). وأثناء مناقشة شؤون الصيد مع عمه الشيف بيكتور الملتحي، كان أرسين في وادٍ آخر، ويتساءل: هل يخرج إلى الشارع الآن، وينادي إليس، ويأخذها من يدها، ويجريان إلى بيت أختها، ويركب وإياها «النيفا»، ويقطعان الجبال والوديان إلى المدينة، إلى عالمه، المألوف لها، كما تشير كل الدلائل. كذلك توقف ذاهلاً أمام خاطرة ــ ففي لحظة واحدة طوى النسيان آيدانا وشيفها المشؤوم كورتشال، وانطفأت ذبالتهما في وعيه، وأصبح مشغولاً عنهما.. يبدو أن المعشوق يغيب في الظلام، وأن العدو يغيب في الظلال..

ما أروع أن يسافر فعلاً مع إليس إلى المدينة، وأن يتأرجحا على أمواج الموسيقى والأضواء، كأنهما وسط المحيط، فيا لها من سعادة. ستوب (قف). وماذا عن الوعد، الذي قطعه لعمه، وعن واجبه كقريب، هذا الواجب، الذي كان وراء قدومه إلى هنا؟ كلا، كَلا، لن تذهب إلى أي مكان. وهناك أيضاً تاشتان أفغان والرهينتان الأجنبيان، والمغارة، التي أعدها لهما. صحيح أن هذا لا يزال مجرد تهديد، لكن من يدري إلى ماذا سيتحول غداً؟ فما العمل؟ ثم إن أحداً لا يهتم.. آه لو عرفوا..

* * *

لكن كان ثمة من يتعذب ويقاسي الأمرين، وهو لا يكف عن الأنين والتوجع تحت ثقل الوحدة والخوف. إنه جابارس، الرابض تحت قمة أوزينغيليش. ففي الأيام الأخيرة كثر ظهور الفرسان، الذين يمعنون النظر في شيء ما بوساطة مناظير يضعونها على عيونهم ويصرخون في الأبواق، بأصوات ترتجف من هولها الجبال. وها هم أولاء ثلاثة جاؤوا على خيولهم، ومن جديد راحوا يراقبون ويتصايحون. أما هو وبدلاً من أن يختبئ في مكان ما، فقد ظل في مكانه، برأسه الضخم وذيله الملقي على ظهره، والواصل إلى غاربه.. لو عرف جابارس أن الخيالة رأوه، وأنهم يطلقون عليه اسم «ذو الرأس الكبير والذيل الطويل»، وأنهم يقولون: ها هو، إنه لا يزال يتسكع هاهنا..

وهنا زأر جابارس بأنين خافت: «لماذا أنتم هنا. لماذا؟ ما الذي ترومونه هنا؟ لا تزعجوني. عما قريب ستتداعى الجبال، وستسوء عاقبتكم أنتم أيضاً..».

وقبيل حلول المساء فقد أرسين سامانتشين القدرة على الصبر. كان يشعر برغبة عارمة في أن يبتعد مع إليس، ويكون معها على انفراد. ولقد تبين من خلال حديثه مع الشيف أنه ليس مشغولاً مساءً، وأن وجوده الدائم، وعمله كمترجم سيبدأ في اليوم التالي. فمنذ الصباح يجب أن يسافرا معاً إلى مطار أولياتي، لاستقبال المجموعة التحضيرية مع المصورين السينمائيين، ومن ثم، وبعد يوم، الصيادين نفسيهما. وهكذا اتفقا على التفاصيل، التي سجلها أرسين في دفتره، واتجه نحو باب الخروج، حين لحق به تاشتان أفغان:

ـ اسمع يا أرسين، تذكر، إذا كنت منصرفاً ـ غداً سيجلبون لك جوادك فليبق مسرجاً دائماً، أمام منزل أختك..

ـ حسناً، فليجلبوه. لقد سبق أن امتطيت صهوته..

ـ ومتى نأتيك بالسلاح؟ إنك مخصص ببندقية، ثم إنك سألتني عن مسدس، سوف يؤمن أيضاً، كما سنعطيك بندقية آلية. هذا بالإضافة إلى مكبر الصوت ذاك. البوق الذي سبق أن تحدثنا عنه.

ـ الأفضل ألاَّ يأتوا به اليوم، بل غداً، مساءً، حوالي الساعة السادسة، بعد عودتنا أنا والشيف من أولياتي، على أن يسلم السلاح لي شخصياً.

ـ بالطبع لك شخصياً، وسوف توقع على الاستلام، حسب توجيه الشيف. وأنت ماذا اعتقدت؟ أجل يا أرسين، وهناك الشيء الأهم، دعنا نبتعد قليلاً.

وابتعدا إلى خلف الناصية، ثم راحا يتمشيان ببطء، جيئة وذهاباً.

وبدأ تاشتان أفغان:

ـ الشيء الأهم الآن، سوف نفترق. وعلى الأرجح أننا لن نلتقي إلا في الجبال، على هضبة مولوطاش، إلى حيث ستأتي مع الضيفين. بينما سنكون نحن مقيمين هناك. لابد من التطواف، ومن تسلق الصخور، على الخيول هنا، وعلى الأقدام هناك. لكن ما إن أرتد سيدارتي العسكرية، ذات الإطار الأحمر ـ تلك التي بقيت لدى من أفغانستان، كما سبق وذكرت لك ـ حتى تبدأ تنفيذ كل ما تؤمر به. لا تنسَ: السيدارة على الرأس هي أمر. شعر أرسين سامانتشين بطنين في أذنيه، وتدفق الدم إلى رأسه بغزارة:

ـ اسمع. هلاَّ فكرت قليلاً بهذا الذي دبرت! توقف قبل أن يفوت الوقت.

ـ ماذا تقول! هل يزعجك أن يحصل رعاتنا على عشرين مليوناً من هؤلاء الطفيليين العالميين؟

ـ التوزيع لا ينبغي أن يتم على هذا النحو.

ـ أجل، من خلال الثورات والإصلاحات ـ وحتى هنا أنت وشطارتك. كلا لن أنتظر.

ـ لكن ما تريد القيام به عمل إرهابي! افهم ذلك في النهاية.

ـ وليكن، فنحن نأخذ حصتنا.

ـ لن ندخل في الجدل الآن. لكن ما دبرت هو كارثة ماحقة لنا جميعاً. فلديهما حراسهما، وسيراق الدم حتماً.

ـ لاتقلق، ففي كل الأحوال نحن لن نمسك بأذى، إذا ما ترجمت كلامنا إلى الإنكليزية.

ـ لست أقصد نفسي، إن قلت أم لم أقل، اسمع، لست في وارد تحديك للمبارزة.

ـ للمبارزة، فلتكن المبارزة. أأنت مستعد لأن تحرمنا من نصيبنا من هذه العولمة؟

ـ لقد عدت. دع العولمة وشأنها، حتى ولو كنت على حق برأيك.

ـ طيب، ما دام الحال كذلك يا أرسين ففكر بأمرك، وأنا سأفكر بأمري، فلا يزال هناك وقت. ثلاثة أيام بكاملها. إن سيدارتي جاهزة. والآن إلى الغد ـ وأردف تاشتان أفغان، وهو يغادر، بعد أن التفت، ومسد شعره:

إنني أدرك شعورك. لو أننا رحنا نتبادل الشتائم وإياك الآن على مسمع من المنطقة بأسرها، إذن لارتحت قليلاً. لكن هلا فكرت بي أنا، وبماذا يجري لي. بودي أن أغرق نفسي، لكن لابد من العيش. وما دمت سأعيش فلتكن عيشة هنية، وكفى هؤلاء الشياطين، ألا تباً لهم، استهزاءً بنا. ليس لدى الأولاد من ثياب يرتدونها للذهاب إلى المدرسة، فقر مدقع، إننا نحن الرعاة نتضور جوعاً، على غرار أولئك الذين تطلقون عليهم بومج[1]، ألا فليعرف الأوغاد، أولئك الذين تلحسون مؤخراتهم في الجرائد، ليكن في علمهم أننا سوف نأخذ الآن بخناقهم، هم الأغنياء.

ـ وأنت تعتقد أنك ستأتي لابساً السيدارة، فتعيد الأمور إلى نصابها؟ إنك بذلك تزيد الأمر سوءاً.. إن نظرتك إلى العالم خاطئة.

ـ ألا تباً لها، للمشاكل وللنظرة.. ولسوف تكون السيدارة على رأسي.

ـ فكر في الأمر ملياً، قبل أن تضعها.

ـ فكر أنت. طيب، إلى اللقاء.

---

[1] البومج: الفقراء المشردون، الذين يعيشون في الشوارع، ويحصلون على الطعام من القمامة.

على هذا النحو افترقا، وهما أكثر قلقاً وتوتراً، دون أن يعثرا على الوفاق والتفاهم فيما بينهما، وإن كانا يعيان بالسليقة أن مصيرهما مشترك، ويحدسان بطبيعة ما سيحدث هناك في أغوار جبال تيان ـ شان، حيث تقطن في الوديان والمنخفضات والوهاد النمور الرقط الثلجية، التي يمكن أن يكون لها عن غير قصد ضلع في عملية الخطف. لكن من أين للنمور الرقط الثلجية أن تعرف هذا، حتى ولو كانت تتمتع بموهبة التفكير والمحاكاة؟..

وعلى العموم، فإن أرسين سامانتشين لم يكن يفكر بشيء من هذا القبيل في تلك اللحظة. ربما لأنه استسلم للوهم الخاطف. وحين بقي لوحده، تنفس الصعداء بعمق وفرح، كمن تمكن من الطفو على السطح، ونجا من خطر الغرق وأحسَّ بدفق في العواطف الجديدة، لكن هل يمكن للحب أن يظهر هكذا فجأة، بلا مقدمات، وأن يتدفق في ساعة واحدة؟ أم أن هذا إسعاف سريع أرسله القدر إلى روحه، التي يتهددها خطر وحشي ـ خطر المشاركة في عمل إرهابي؟ وكما لو أن إليس كانت تعرف ما الذي يجري له، فقد كانت بانتظاره، وها هي تناديه من النافذة:

ـ أنا هنا يا أرسين.

هذا بالذات ما كان يحتاجه سريعاً، تلاقت مخيلتاهما وتناغمتنا ومن ثم تفاهمت عيناهما على، أن تذهب في الحال إلى بيت أختها، أو يجلس هو في «نيفاه» منتظراً عند البيت، لينطلقا بعدها معاً، بعيداً.. على غير هدى.. وكان ما أثلج صدره هو أنها تشاطره إحساسه. وحين توقف أرسين قرب البيت، كانت إليس جاهزة. خرجت والبسمة تعلو محياها، وكيس السفر على ظهرها، وبيديها تمسك غيتارها، وتضع بطانية من القطيفة على كتفها.

انطلقا، وهما جالسان جنباً إلى جنب، تتملكهما السعادة، التي كانت تزداد تدفقاً، كلما نظر أحدهما إلى الآخر. كانت «النيفا» المخلصة تحملهما على عجلات السعادة، عبر طريق السعادة، مع أن العالم كله بقي على حاله، إلاَّ أنه أصبح عالماً آخر، عصياً على الإدراك المبتذل. أما هما فراحا يمتعان النظر به. كل شيء بدا فيه، في هذا العالم المتقلب بلون آخر، كما لو أن اللوحة الفنية أُضيئت من نقطة مختلفة. راحا، وقد أسكرتهما السعادة الغامرة، ينظران حولهما بانشراح. كأنهما طفلان لا شخصان راشدان ــ امرأة تجاوزت الخامسة والعشرين. ورجل تجاوز الثلاثين وكان فيما مضى قد رأى الكثير من الخير والشر، ومرَّ في الأعراس، في الفضائح، وفي الطلاق، وها هو الآن قد تحرر من أدران الماضي، وبُعث للحياة من جديد. وكما الشباب الساذج، لم يريا الآن شيئاً إلا عاطفة الحب، التي سيطرت عليهما، لم يكن ذلك وهماً، ولا خداعاً للنفس، بل وهبة القدر التي تأتي على حين غره، كإلهام للروح والجسد، ولذا فقد كان كل ما يريانه، في القريب والبعيد، في الجبال، والآفاق، وفي الشمس والنهر، وفي الطريق المفروش تحت العجلات بسعادة، كل هذا كان يبدو لهما في تلك اللحظة عظيماً، رائعاً ومريحاً فقط لمجرد أنهما منطلقان معاً على غير هدى. ولما كانت إليس تجلس إلى جانبه، وهي تشع لطافة، فقد استنتج أرسين سامانتشين أن الحب، إذا ما كان متبادلاً، فإن عدالة الحياة السامية، الساهرة على الأقدار البشرية تكمن في هذا الحب بالذات. يقال إن الرومانسية، الخالية من التراجيديا، ساذجة ولذا فهي خادعة، لكن هذا ليس صحيحاً، فلدى الرومانسية نمط آخر من الإدراك، شمس أخرى، وسماء أخرى، لكن رؤية هذا العالم لم توهب إلا لمن وُهِب الحب، ومن هنا القول المأثور: الحب هو إلهام الروح.

كأن عبئاً ثقيلاً انزاح عن كاهل أرسين، ولقد دهش هو نفسه من حدوث ذلك. أن يتعذب، أن يؤنب نفسه، أن يَكُنَّ مثل هذا الكره لذلك

الشيطان إيرتاش كورتشال بسبب آيدانا.. أن يقع في شراك تدبير تاشأفغان الوقح والمشؤوم.. وفجأة، بلقاء إلِيس يمَّحي كل شيء، سبق، فإليس، في ساعة واحدة، صارت جزءاً لايتجزأ منه. وتملكه اعتقاد أنها أُرسلت لإنقاذه، لإبعاده عن شفا الهاوية.

وأما إليس، التي كانت تشاطره إحساسه الشاعري بشكل مطلق، والتي أسكرتها السعادة دون أن يربكها ذلك أبداً فقد قالت:

ــ انظر يا أرسين، هذه الجبال كانت تنتظر حبي، وأنا غالباً ما كنت أجيء إلى هنا أنتظر بدوري، إن لم يكن بمقدوري أن أصدق أن هذا ما سيحدث.. فالناس في الآيلات هنا يعتقدون أن العروس الأكثر خلوداً تجوب هذه الجبال.

ــ لا تقولي هذا يا إليس، وإلا أجهشت بالبكاء.

ــ أُوْيْ، إمسك المقود جيداً ــ قالت وهي تضحك، يا له من مشوار رائع.

إذاً ما كان العاشقان سعيدين، فلا يهم أبداً ما الذي حدث في حياتهما قبل ذلك. كلُ شيء يلغى ويوضع في أرشيف القضايا المغلقة، لأن الحياة تبدأ من جديد، من نقطة انطلاق جديدة ــ هذا ما كان يدور في مخيلة أرسين. المهم أن لا يصيب نفسه بعين الحسد. لكن، ومهما تمتع بمثل هذه المثالية، فقد كانت تتسلل إليه خلسة الفكرة القائلة إن عين التراجيديا الساهرة تتربص بالسعادة بلا كلل، وهذا ما يحدث الآن، فالقلق الجدي لا يكف يعاوده:

ما الذي سيحدث للضيفين العربِيَّين، إذا ما أخذهما تاشتان أفغان رهينتين فعلاً؟ سأحاول من جديد أن أثنيه عن عزمه، لكن ما العمل،

إذا رفض؟ هل ينبري للدفاع حاملاً البندقية الآلية (لقد وعده الشيف بيكتور ببندقية آلية، هو أيضاً)؟ هل يرمي المُختَطِفين بالرصاص، ثم يرمي نفسه؟ على مرّ العصور لا يطيق الفقراء الأغنياء، بل يكنون لهم الكراهية، وهم أكثر منهم بملايين المرات، والتناقض الغريب أنهم في الوقت نفسه يودون أن يكونوا من أصحاب المليارات. واجمالاً فإن بمقدور المرء أن يفكر كما يحلو له، لكن ما العمل، ماذا نفعل؟ إننا جميعاً موثوقون بوثاق واحد. ليس لدى أفراد مجموعة تاشأفغان الآن ما يفقدونه، وهم مستعدون للقيام بأي شيء من أجل النقود المجنونة. لقد أصبحوا وحوشاً. لكن فريسة الوحوش تأتي من الطبيعة، أما فرائس أمثال هؤلاء فتأتي من الجرائم. وكما يقول تاشتان أفغان: لا تنتظر، بل اقتنص، ما دامت الفرصة سانحة. إيه لعن الله الشيطان، فابن صفه السابق هذا يصبح وحشاً بسبب بلاد الأفغان، وهو الآن يكره العولمة، وعلى استعداد لأن يقتل أيّاً كان. تباً. انسَ. إبصق على كل شيء..

ثمة حياة أخرى، بدأت عجلتها تدور فجأة، إذ تحوّلت عنده في ذلك اليوم إلى واقع جديد.عرّجا في البداية على محطة الوقود المحلية الوحيدة، الواقعة على أطراف الآيل، حيث تعيش أخت إليس الأخرى وإلى حيث كانت إليس غالباً ما تتردد أثناء تنقلاتها المكوكية. وبعد أن عبأ الــ «نيفا» بالوقود، تابعا طريقهما. وفي أثناء خروجه إلى الطريق العام، أدار أرسين سامانتشين السيارة كما لو أنهما ينويان السير بين الجبال، باتجاه طريق المدينة، ثم ضغط على الكابح، وتوقف للحظة، وراح يفكر بصمت؟ وسألت إليس:

ــ ماذا جرى يا أرسين؟ هل نسير إلى تلك الجهة؟

ظل صامتاً، بعد ذلك هزَّ رأسه ــ ثم ابتسم، وهو يحدق في عينيها مباشرة، وقال، إما مازحاً، أو جاداً:

ــ إذا كنت لا تمانعين يا إليس، فإنني أريد أخذك إلى المدينة.

ــ هكذا إذن؟

ــ أجل، أريد أن أخطفك، كما في الزمن الغابر. فما رأيك؟

ــ وما الداعي؟

ــ بودي أن نكون معاً.

ــ الصحفي الخاطف. هذا يعني أنني أصبحت مختطفة، أنا وغيتاري؟ ــ قالت إليس، وهي تضحك بسرور ــ ثم أغمضت عينيها ورددت: يا سلام.. حلم رائع. إذن هيا اهتم بالمقود، وإلا فإن السيارة لا تعرف أي درب تسلك.

ــ اتفقنا إذن؟ لكن حتى ذلك الحين سنبقى في الجبال، كما أردنا. وهنا وجه السيارة نحو أقرب واد، نحو الدغلة، المجاورة للنهر.

وكل ما جرى لاحقاً يُذَكِّر باللقطات السينَمائِية الخاطفة. فقد وصلا بسرعة إلى المكان المبارك، وبسرعة حطا الرِحال، دون أن ينسيا أخذ الغيتار من السيارة. وفي هذا الوقت كانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب، وراحت الألوان الليليكية تتولد بين الجبال، مبشرة بالبرودة الأولى. كان الصيف قد نضج، كان النهر الجبلي يجري باندفاع عبرَ الصخور الملساء.. وبسرعة أضرما ناراً صغيرة من أغصان الدغلة الجافة. كانت إليس حاذقة جداً وماهرة جداً في إعداد

كل شيء. وعندَ ضفة النهر مباشرة، وفي لحظة غرق أحدهما في الآخر، وتعانقا، ثم حلقا في السماء الصافية، التي حنت عليهما، ومتعت النظر بمرآهما. أما هما فلم يعودا هنا. أصبحا في الفضاء الكوني نفسه، الشاهق واللانهائي، بعدها عادا دفعة واحدة إلى الأرض. حيث كان كل ما يحيط بهما في الطبيعة، كل عشبة وكل ورقة في حالة حركة معهما: فالأغصان فوق رأسيهما تميل نحوهما تارة، وترتفع أخرى، والأزهار من حولهما تتمايل مع هبات الريح تارة، وتارة تتسمر، طيعة، في انسجام هذا التناغم بخاصة في سمفونيا النهر الجبلي، المندفع بشكل عاصف، فوق الصخور البراقة للمجرى الحاد. كان النهر يصخب، يغلي، يتأوه، يئن، وفجأة يتسمر للحظة بمجراه كله، لكي يعود إلى الالتصاق بضفتيه بنشوة. كانت الشمس لا تزال تسطع في الأعالي، وتغسل قمم الجبال بضوئها الوهاج. والطيور تجمدت في تحليقها، ولاذت بالصمت. وحتى جرذان الحقول، توقفت عن الجري. وحركت رؤوسها. وأرهفت آذانها، وراحت تنظر بإعجاب بعيونها المتلألئة. أما العاشقان فقد اندفعا نحو النهر، وانغمسا في مجراه العاصف، وراحا يرشان بعضهما بالماء الحي. فكانا في غاية الروعة، جسمين ووجهين مرحين. بعد ذلك عادا إلى مرقدهما الفردوسي، تحت ظلال الأشجار، وبدت الشمس وكأنها تجلس على أطراف الجبال.. أما العروس الخالدة، التي أحست بقلبها بسعادتها، فقد جرت نحوهما، وهي تطير من جبل إلى جبل، وما إن سمعت غناء إليس، على إيقاع الغيتار، حتى توقفت على القمة، وراحت تصغي، وتبكي، وتردد همساً: «وأنا أيضاً كنت أحلم بهذا.. فأين أنت، أين أنت يا صيادي؟ ومتى. متى سأعثر عليك؟»..

وحين تعبا، جلسا، وتحدثا جدياً عن أمور كثيرة، دون أن يتطرقا إلى أي شيء في حياتهما السابقة. فلقد بدأ حساب الزمن عندهما منذ هذا اليوم، منذ هذه الساعة. بدآ الحديث بمزحة:

ــ هل تعرفين ــ قال أرسين ــ أني أفكر في أن يصبح اسم هذا الوادي الآن وادي إليس. فما رأيك بهذا؟ لسوف أتقدم بهذا الاقتراح إلى الجمعية الجغرافية.

ــ جرب يا أرسين، وسنرى كفة من سترجح، لأنني أنوي بدوري تقديم اقتراح بأن يطلق عليه اسم وادي أرسين. إننا اليوم، أنا وأنت، كالأطفال. دعني أناديك بإسم أرسين بيك، بينما تنادينني أنت باسم إليس غول، مثلما كانوا ينادونني في طفولتي.

تحدَّثا عن أمور كثيرة، حتى عن السياسة، مهما بدا هذا الموضوع غير مناسب في مثل هذا الظرف الحميمي جداً. لكن السياسة كلية الوجود لا تترك أحداً وشأنه الآن، وبشكل طبيعي تطرق الحديث إلى قلة الطلب اليوم على المنتجات الحقلية والحيوانية، ولذا يعم الريف الفقر والبطالة، وما يقترن بالبطالة من الموبقات: السرقة والسكر، وتعاطي المخدرات. وإزاء هذا الوضع، غير القابل للعلاج، تشبث الناس بـــ(بيزنس) شركة «ميرغن» للصيد ــ حيث يتوفر العمل، وحيث تدفع الأجور، مما عاد بالفائدة على الكثيرين. ثم إن أبناء القرية مسرورين بقدوم الصيادين الأجانب الأغنياء. قالت إليس إن الاعتراض على ذلك من شأنه أن يثير استياء الأقارب: وسيقولون ــ إنها هي نفسها (تتمكوك). وتكسب شيئاً ما، أفلا يحق لنا نحن أن نكسب قليلاً؟ إن عمك إنسان عملي كبير، كم من الخير يقدم للناس، لكن ما الذي سيحدث غداً؟

ـ صحيح أنني اندفعت إلى هنا، وفور استدعائي، لكن قلبي ينفطر يا أرسين ـ تابعت إليس ـ هاك، إمسك الغيتار. بودي أن أغني لك مدى الحياة ـ قالت وهما يستعدان للعودة إلى تويوك جار ـ كم يحلو الحديث عن البيئة، أما نحن..

ـ أجل أنت على حق يا إليس، إنني أفهمك، فأنا نفسي أتعذب ـ قال أرسين موافقاً ـ كم نتحدث عن هذا ـ يمكن تأليف ملحمة، لكن ما إن تفوح رائحة النقود حتى ترانا لا نتورع عن أي شيء، وما همنا بالبيئة. لكنك عبثاً تلومين نفسك، فأنت لم ترتكبي وزراً، ولن تشاركي في الصيد نفسه، بل في الترفيه، أنت وغيتارك، بينما سأضطر أنا للمشاركة مباشرة في هذا العمل الصيدي، إذ سبق أن وعدت شيفنا بيكتور، لأن ذلك من واجبي كقريب، وليس بوسعي التراجع.

ـ إنني أفهمك يا أرسين، يا عزيزي. هلا عانقتني، فأنا أشعر بسعادة كبيرة ـ وقبلا بعضهما من جديد ـ لكن حتى لو رفضت، ولم تأتِ إلى هنا، إلى الجبال، فإن الطبخة كانت ستطبخ حتى بدونك..

ـ مهلاً، مَهلاً، ألا تباً لبيزنيس «ميرغن»، لكن هذا يعني أنني كنت أعرف مسبقاً، إن قلبي حدثني أنني سألتقي بك، هذا يعني أنني إنما جئت من أجلك يا إليس.

ـ أوخ، لكم انتظرت أن تقول هذا. وأنا بدوري إنما جئت إلى هنا من أجلك يا أرسين. كل الدلائل تؤكد ذلك.

ـ ها هنا يصدق القول المأثور: «رب ضارة نافعة» وفي كل الأحوال فإن نمورنا الثلجية الرقط هي من يستحق الشكر، فهي من جمعنا هنا ـ قال أرسين ضاحكاً.

ـ فعلاً ـ الشكر للنمور الرقط ـ ومن جديد تعانقا وراحا يقبلان بعضهما ـ اسمع يا أرسين، هل تعرف أنك أنت النمر الأرقط، وأنا النمرة الرقط.

ـ وما المانع؟ إن الأمر لكذلك حقاً.

وهنا خطرت له فجأة فكرة رهيبة، جعلته يتسمر للحظة من شدة الهول: «ما الذي سيحدث لنا إذن، ما دمنا نحن أيضاً نمرين؟

جاءت الجملة، التي قالتها إليس من باب المزاح، زخماً قوياً للدخول في حديث بالغ الجدية. ففي الأيام الأخيرة كانت إليس نهباً لقلق كبير، لكنها لم تحدث أحداً بذلك، من أن بيزنيس الصيد يكاد يصبح في الآيل الجبلي أسلوب الوجود الرئيس. فلم يعد الإنتاج الزراعي مهماً للسكان أهمية صيد الحيوانات البرية. وإذا ما استمر الأمر على هذا المنوال، فإنه لن تمضي سنوات عدة من بيزنس الصيد هذا، حتى تختفي كل الحيوانات والطيور الجبلية، حتى آخر حجلة. فماذا سيصطاد الناس عندها، بعد أن يقضوا وبالدرجة الأولى على النمور الرقط الثلجية، دون أن يقيموا الإنتاج السلعي المحلي في ظروف السوق الجديدة؟

ـ لكم أتعذب يا أرسين، لكنني لا أجرؤ، على قول هذا لأحد. حتى أنني أردت الخروج عند قدوم الصيادين العربيين، حاملة يافطة «ارفعوا أيديكم عن نمورنا الرقط الثلجية، لا تمسوا وحوشنا، لكن حتى التفكير بهذا غير ممكن. حتى أهلي، الآيل كله، سوف يرجمني بالأحجار، ولن يسمحوا بإفشال هذا البيزنيس، فلم يبق لديهم من شيء، عدا تنظيم الصيد للأجانب. كلا، لن يفهموني، ولن يرحموني، أليس هذا صحيحاً يا أرسين؟»

ـ أجل، هذا هو الحال الآن، أوافقك. لكن الأمر يستحق اللجوء إلى ذلك في المرة القادمة، فلا بد من التصدي لهذا البيزنيس ـ الصيد. حتى في أفغانستان يجري البحث عن زراعات بديلة للحد من زراعة المخدرات. وحول هذا الموضوع يكتب الكثير الآن.

ـ اعذرني يا أرسين أنني بادرت إلى هذا الحديث، غير المناسب، على الأرجح، في الوقت، الذي فتحت أبواب السعادة أمامي، وتلاقت روحانا على هذا النحو. لكنني، وكما تعرف، أسافر إلى العديد من الأماكن، بحكم طبيعة عملي المكوكي، وأرى أن الجميع يتكيفون بطريقة ما مع اقتصاد السوق، لكن ليس ببربريتنا نحن هنا في الجبال. حسن، اليوم سوف نحصد محصولنا بفضل الأجانب، لكن ماذا بعد؟ سوف نكتفي بالصيد، ونتوقف عن العمل ـ حينها سنجد أنفسنا قريباً في الفراغ، وسط الطبيعة الميتة. عفواً.. لقد استغرقني الحديث.. إنني أحبك.. هل تصدق؟

ـ أجل. ولا داعي للاعتذار يا إليس، فالحديث ذو شجون، وبوسعي أن أضيف إليك الكثير، لكن لنؤجل ذلك الآن.. ولننطلق فقد حل المساء، ولسوف نتحدث عن العمل لاحقاً. وميلاد حبنا اليوم هو موسيقى تصدح من جديد في حياتي.

ـ دعني يا أرسين أجلس في الخلف مع الغيتار، كي لا أزعجك في القيادة، ولسوف أعزف بصوت هادئ الألحان المختلفة، القديمة والجديدة. هل توافق؟

ـ جداً. فلتكن هذه حفلة لي وحدي. سوف أسمع، أفكر و.. أشكر القدر.

ـ على ماذا؟

ـ عليك يا إليس..

ولو أنها عرفت ما يحاك في الخفاء، لو أنها عرفت كم بذل أرسين سامانتشين من جهد لكبح جماح نفسه عن أن يطلعها على الخطة الرهيبة، التي نضجت لدى مطاردي النمور الرقط، وعن أن تاشتان أفغان عدو العولمة المتعصب، يتهيأ لارتداء سيدارته العسكرية، إشارة الأمر باختطاف الرهينتين وعما يمكن أن يتمخض عن هذا كله، وكيف يمكن أن ينتهي.. وعن الفخ.. ألا تباً لـــ(بيزنس) الصيد! فقد ربط الجميع ــ البشر والوحوش في عقدة واحدة قاتلة.

لكنه لم يجرؤ، حتى في نشوة المصارحات الغرامية، أن يطلعها على ذلك.

كان النهار يميل إلى الزوال. وإذا كان صحيحاً أن الطبيعة تكرم وفادة العشاق، فلقد أحسا بذلك عملياً. ففي طريق العودة، وكمكافأة لهما على الحب، سارت في ركابهما كل بركات العالم المحيط. استقبلت الجبال، وهي تتسربل بثياب المساء، أفول النهار بهدوء وعظمة، راحت تذوب في طلائع غبش المساء، وتمّحي ملامحها بالتدريج، وتفقد حدة وصراحة البروزات الصخرية. وفي السماء الصافية، فوق الذرى، بدت الغيوم الناصعة البياض تتضافر بشكل أخاذ. لقد مر ذلك النهار بلا رياح، بلا مطر، وبلا قيظ حارق. حقاً كان نهاراً رائعاً، لا نظير له، جاء لإسعادهما. بعد النزول إلى المنخفض أصبحت «النيفا» تسير بتؤدة، فلم يكن ثمة داع للعجلة ــ فلقد كان بود هذين الاثنين الساحرين أن يطيلا أمد المشوار، الذي لم يكن يُعني لهما مجرد تمضية وقت، بل كان موعداً، أرسلته السموات، موعداً عزيزاً على كليهما، ومهماً لكليهما إلى درجة أن كل شيء سقط دفعة واحدة من سياق حياتهما ــ لقد شكل النهار الحالي بداية

حياة جديدة. فهل هذا فأل خير؟ وما الذي ينتظرهما منذ نهار الغدر بالضبط؟ لكنهما لم يفكرا بذلك بعد ــ ففي نشوة الحب، التي عصفت بهما قبيل الفراق الوشيك، لم يكن بوسعهما إجمالاً أن يفكرا بأي شيء، باستثناء السعادة، التي هبطت عليهما فجأة.

راحت إليس تعزف على الغيتار بهدوء، وهي تجلس في المقعد الخلفي، وأرسين يصغي، وهو يقود «نيفاه» عبر الطريق، التي طالما سلكها، والتي بدت له الآن غير مألوفة، لأنه يسلكها الآن، وهو إنسان آخر، برفقة حبيبته للمرة الأولى، ربما لهذا السبب لم يرغب في صرف انتباهه عن الطريق، والدخول في التأملات الجدية. وبين الفينة والأخرى كانا يتبادلان المزاح، بالأحاسيس والمشاعر يفهمان بعضهما سريعاً ولا حاجة للكلام.

ــ وماذا لو استدرت بالسيارة، وسافرنا إلى المدينة؟ ما رأيك؟ ــ سألها أرسين، وقد التفت نحوها للحظة، فاقتربت إليس منه قليلاً، وردت بصوت منخفض، يكاد يكون همساً:

ــ ولو إلى نهاية العالم.

في هذا المزاج الرائع دهش أرسين سامانتشين لأمر بالغ الغرابة: فالأفكار المشؤومة، التي ظلت تلاحقه باستمرار حول الانتقام، تقهقرت بالتدريج، وشعر بالرغبة في أن ينساها إلى الأبد «ليأخذه الشيطان ذاك الكورتشال». بوسعي، بوسعي أن أعيش حتى بدونها، بدون آيدانا «المتنجمة[1] كم كنت تافهاً ومغفلاً. كفى. نقطة. إن لدى الحياة أفراحاً أخرى» ــ هذا ما خطر له. كما خطر له أيضاً أن:

---

[1] أي التي تحولت إلى نجمة.

«العروس الخالدة» لن تنسى مع هذا. والآن بوسعي أن أُباشر العمل بقوى جديدة..».

كان أرسين سامانتشين يفكر بشكل جدي وثابت بالزواج من إليس. فكل الدلائل تشير إلى أنهما يناسبان بعضهما، من حيث طبعهما ورؤيتهما للحياة. إنها امرأة قرأت بما فيه الكفاية، مدبرة وجميلة، ولا شك أنها نشيطة جداً، ما دامت تمارس تجارة (الشنطة)، ففي هذه التجارة لا يمكن أن تجلس كما التاجرة خلف السماور. وبالمناسبة فهذا من شأنه أن يخلصه من تأنيب أهله واستيائهم. كان سيسر بشكل خاص الشيف بيكتور ــ آغا «العم تشرشيل»، كما يسمونه في الآيل أحياناً، وأخوه أرداك، وأبناء وبنات أعمامه وأخواله وعماته وخالاته. لكن الأهم من ذلك كله، بالطبع هو مدى استعدادها هي، إليس لمثل هذا التحول في حياتها، فقد تكون لديها مشاكل. إن عليه، كرجل، أن يكون المبادر، ينبغي عليه أن يطلب يدها.. بالطبع يمكن أن يفاتحها بالأمر ــ ليس من باب المزاح، كما حصل منذ فترة قصيرة، بل بشكل جدي ــ الآن، ما داما موجودين هنا، بناء على طلب شركة «ميرغن» ــ هذا ما كان يدور بخلد أرسين، وهو يصغي إلى عزف إليس. لكن الحياة، التي تطالب بالمكافأة على السعادة، نصبت حاجزاً في طريق نواياه. فمهما حاول أرسين سامانتشين منع نفسه من التفكير بما يدبر تاشتان أفغان وأزلامه، والتخلص نهائياً من هذه الأفكار، فإنه لن يستطع إلى ذلك سبيلاً، على الرغم من أنه حاول إقناع نفسه بأن تاشتان أفغان لن يلبث أن يرعوي، ولن يجرؤ على القيام بمثل هذه المغامرة الغريبة، على الرغم من الغنيمة، المتعددة الملايين التي تتراءى أمامه، وسيتمكن من التغلب على الرغبة في انتهاز الفرصة، التي لا تسنح إلا مرة واحدة في الحياة، ويدرك، ليس فقط المصائب، التي سيجرها على قريته، بل وكم سيؤثر ذلك سلباً على سمعة بلاده.

قد يبدو ذلك مبتذلاً. لكن في كل مرة تضطر فيها إلى حل مشاكلك الخاصة المعقدة تقتنع أن عالمنا منظم بشكل عجيب فهو منذ بدء الخليقة مقمط بالتناقضات، ويظل مضغوطاً داخلها إلى الأبد.

إن تاشتان أفغان يتصور نفسه معادياً للعولمة لكن معاداتها لديه هي أسلوب الإرهاب. يا للمبرر الذي عثر عليه. كان من شأن الماركسيين أن يؤيدوه. وليس عبثاً أنه قال عرضاً إنه ينبغي أن يظهر في الجبال **تشي غيفارا** الخاص بنا. لكن أين هو من **تشي غيفارا**، وجرب أن تقنعه وسيل الدولارات كفيل بجرف كل ما يصادف في طريقه من أفكار ومبادئ. لقد فقد المسكين رشده. وبالفعل فمن يريد أن يعاني من الفاقة طيلة حياته؟ لكن كفى.. ليبصق على كل شيء، ويختفِ. إنما إلى أين تذهب، كيف تنجو بجلدك، وماذا عن الآخرين؟ وراحت الأفكار المستحيلة تتوارد إلى ذهنه. ومن أجل إسعاد إليس خفف سرعة السيارة، وسألها بجدية مصطنعة:

ــ وماذا يمكن أن تقولي إذا بقيت لأسباب ما أعيش في الجبال، ناسكاً في مغارة؟

لم ترتبك إليس، وردت، وهي تلتصق بمؤخرة كتفه:

ــ إذا كنا معاً فأنا موافقة.

ــ إنني جاد في كلامي يا إليس. انتقلي إلى هنا، إلى جانبي، لنتحدث، فما زال أمامنا قرابة العشرة كيلومترات.

أوقف «النيفا»، فقفزت إليس على عجل، وجلست في المقعد الأمامي، وعلى الفور ازداد دفء الروح.

ـ حقاً تحلم بالحياة في مغارة؟

ـ ومن يعرف؟ الأفضل أن تقولي لي كيف وافقت فوراً على السكن معي هناك؟ ألا تخافين الحياة البدائية؟

ـ ألا تلاحظ يا أرسين أنني أريد كثيراً جداً أن أحظى بإعجابك؟

ـ وأنا أريد أن أنال إعجابك.

ـ ما دام الأمر كذلك فسوف نعيش في الجبال، ويحب أحدنا الآخر.. لكن هلا أخبرتني ما العمل، الذي سنقوم به حين سنبدأ حياتنا في المغارة؟

ـ سأنكب على التأمل. ولسوف ألقي عليك المحاضرات. هناك نوع من الأديان يعرف باسم التينغريانية، أما أتباعه فيعبدون السماء.

ـ إذا ما عرف رجال الدين عندنا بذلك، جاؤوا وسدوا عليك باب المغارة. وماذا ستفعل حينها؟ لكنك لن تبقى هناك وحدك، فسأكون أنا إلى جانبك.

ـ إذن فليس ثمة ما أخشاه، أما فيما يخص رجال الدين عندنا فلديهم من الأعمال ما يكفي، ولن يهتموا بأحد النساك، فاهتماماتهم ذات طابع كوني.

ـ أما اهتماماتي فستقتصر عليك. هذا يعني أنك أنت كوني.

ـ وبماذا ستتجلى اهتماماتك؟

ـ بودي أن يكون لدينا طفل، صبي، سوف أقوده من يده، إلى محاضراتك في المغارة، لكي يسمعها منذ نعومة أظفاره.

ـ إنني على استعداد، ولسوف أتوسل إلى السماء أن يحدث هذا. أعذريني يا إليس، ربما يكون هذا السؤال غير مناسب، لكن بودي أن أعرف هل سبق أن أنجبت أولاداً.

لم ترتبك إليس أبداً، وردت باختصار:

ـ كلا، كنت أتمكن من تجنب ذلك.

ـ لا داعي لتجنب ذلك لاحقاً.

ـ لن أفعل. على العكس، سوف أتوسل إلى السماء بدوري أن ترزقنا صبياً رائعاً.

ـ وإذا ما كانت صبية فلن أكون أقل فرحاً.

ـ وأنا أيضاً، فالفتيات أذكى منذ الصغر.

ـ إنه أمر واضح. هكذا فقد تم الاتفاق على كل المسائل، ولم يبق، كما يقال في هذه الحالات، إلا التوقيع على بروتوكول النوايا ـ قال مازحاً.

وهنا قاطعته قائلة:

ـ بروتوكول النوايا الرائعة.

ـ سوف نجهز البروتوكول.

تراءت أطراف القرية من بعيد. وكان الظلام قد خيّم، وأضيئت الأنوار في كل مكان. وعلى حين غرة تردد رنين جرس الهاتف.

ـ أوي، إنه هاتفي ـ انتفضت إليس ثم انحنت فوق المقعد الخلفي، حيث كانت سترتها، وأخرجت الهاتف من جيبها.

ـ نعم؟ أهذه أنت يا زينب؟ آ. الواقع أنني كنت في الجبال في مكان يقع خارج التغطية، أما الآن فإنني في تويوك ـ جار. أجل، إنني مصغية. نعم، كنت بانتظار جواب على فاكسي، وماذا هناك؟ يوم التاسع عشر؟ أبهذه السرعة؟ طيب. سوف أفكر، واتصل بك. أجل أجل، بكل تأكيد. بعد حوالي ساعتين. مع السلامة يا زينب. بعد أن أعادت إليس الهاتف إلى جيبها، أوضحت أن زميلتها في (بيزنس) تجارة الشنطة قد اتصلت من تشولغان، في ضواحي أولياتي. إنهنّ أربع، وإليس أكبرهن، مثل عريف زمرة الطلائع سابقاً. فثمة في ساراتوف مركز لتجارة الجملة بكميات صغيرة، وعليهنّ أن يسافرن إلى هناك، حيث لديهن عقد لشراء البضائع المختلفة، التي يقمن لاحقاً بتوزيعها على الدكاكين المحلية والبارات الصغيرة.

ـ هل ينبغي أن تسافري؟ ـ سأل بقلق. هل تريدين أن أوصلك؟

ـ كلا، لا تقلق. سوف نأخذ القطار من أولياتي، لكنني كنت أعتقد أن ندعى إلى ساراتوف بعد أسبوع، ويبدو أن علينا أن نسافر غداً.

ولاذت بالصمت. أوقف أرسين السيارة. فعلى حين غرة اقتحمت الأمور اليومية حياتهما الفردوسية الرائعة والقصيرة. قد يبدو الأمر عادياً فلكل منهما شؤونه واهتماماته. ومع هذا فقد شعرا وكأنهما هويا من السماء على الأرض. وعلى كل حال فإن هذا لم يستمر أكثر من دقيقة، فقد أعلنت إليس:

ـ سوف أتصل يا أرسين، وأقنع زميلاتي بأن يسافرن هذه المرة إلى ساراتوف بدوني.

لكن أرسين لم يكن يريد أن تتعرض لأية تعقيدات، لا داعي لها.

ـ لست أعرف كل التفاصيل، لكنني أعتقد يا إليس أنه لا داعي للإخلال بالاتفاقات.

ـ أرسين ـ قالت، بعد أن لامست كتفه ـ إنني على استعداد للقيام بكل شيء من أجلنا.

كانا يفهمان بعضهما كزوج النورس فوق البحر ـ بالأصوات، بأقل حركة من الأجنحة. ومع هذا فقد أحسّ أرسين بضرورة أن يقول لها، والأصح أن يلمح لها، قبل أن ينزلها عند بيت أختها، أنه لم يعد يستطع التفكير بحياته اللاحقة بدونها. لكنه لم يكد يطفئ المحرك حتى تردد رنين الهاتف من جديد، وهذه المرة كان هاتفه هو. إنه الشيف نفسه. بعد أن سأله أين هو الآن، أخبره أن الأقيم (مدير المنطقة) جانيشبايف نفسه قد وصل إلى تويوك ـ جار: فالبروتوكول ينص على أن يكون مدير المنطقة على رأس من يستقبل الضيفين البارزين، ويرحب بهما، ولهذا فقد أصرَّ الشيف على أن يأتي أرسين سامانتشين إلى المكتب على جناح السرعة، فقد كان لابد من الاتفاق مع الأقيم نفسه حول تفاصيل السفر في الصباح إلى مطار أولياتي.

على هذا النحو عادت الأمور والمشاغل اليومية تخترق عالمهما الساحر. وكان لابد من الإسراع. واتفقا على أن يبقيا على اتصال دائم بالهاتف. ومن أجل التأكد من صحة الرقم اتصل بها آرسين، فرنّ جهاز هاتفها.

ـ يا إليس باطيروفنا المحترمة ـ قال بلهجة مفعمة بالوقار ـ اعذريني على هذا الإزعاج. أنا المدعو آرسين سامانتشين لسوف أتصل بك باستمرار، لأنه لا حياة لي بدون ذلك. فماذا تقولين يا إليس يا طيروفنا؟

وردت إليس باطيروفنا، وهي تضحك بهدوء:

ـ نعم يا آرسين سامانتشين المحترم، وأنا بدوري لن أكف عن الاتصال بك. ولسوف أنتظر اتصالاتك بفارغ الصبر. شكراً لك يا موهبان موهباتوفيتش ـ يا حبيبي الحبيب.

وبعد أن أغلقا جهازي الهاتف، نظر كل منهما في عيني الآخر، وكأنهما يفارقان بعضهما إلى الأبد. ـ لسوف أنتظر ـ قال آرسين سامانتشين مودعاً.

ـ وأنا سأنتظر ـ ردت إليس.

دار حول السيارة، وفتح لها الباب، ومن جديد وجدا نفسيهما وجهاً لوجه في شبه الظلمة، على أطراف الساحة. وفي هذه اللحظة اقتنع نهائياً أنه لن يكون بمقدوره بعد الآن أن يعيش بدونها.

وقالت له:

ـ ليست لدية أية رغبة في السفر. سأحاول إقناع زميلاتي.

ـ حاولي يا إليس، فقد تنجحين، وإلا فإن بمقدوري أن أصبر ثلاثة ـ أربعة أيام. ولن أسافر من هنا من دونك.

ـ ربما أسافر من ساراتوف إلى بيشكيك مباشرة؟

ـ سوف أنتظرك في المحطة، ما عليك إلا أن تتصلي. إذا ما انتهى الصيد بسرعة فذلك شيء آخر، أما إذا تأخر فهذا شيء آخر.

ـ أجل. إنني فاهمة.

وتعانقا بقوة وحنان.

ظلت إليس تلوح بيدها لسيارة آرسين سامانتشين «النيفا« إلى أن اختفت عن الأنظار، أما هو فلم يرفع نظره عن المرآة الجانبية، وهو يرى صورتها فيها تصغر وتصغر. وتتحول إلى خيال. ولم يكد يبتعد قليلاً حتى تذكر فجأة ـ فشعر كمن سقط في هاوية: ما الذي سيحدث إذا ما اختطف [الأميران] فعلاً؟ ليس بوسعه أن يخبر أحداً، حتى هي.. فإذا ما فعل، فإن الانهيار الثلجي المدمر سوف يجرف كل ما في طريقه، ولن يبقى من شركة «ميرغن« ولو ذرة غبار، وإن لم يفعل، فتلك هي الطامة الكبرى.. فما العمل؟

حين وصل آرسين سامانتشين إلى المكتب، واتجه إلى غرفة الشيف، رأى تاشتان أفغان أيضاً بين المساعدين، فبادر ذاك إلى تحيته:

ـ مرحباً يا آرسين، وصلت؟ هيا بنا، فالشيف يمل الانتظار ـ وتأبط ذراعه، وكأن شيئاً لم يكن، ثم سأله عند الباب: ـ هل تعرف اسم الأقيم؟ اسمه واسم أبيه(1)؟

ـ كلا، لست أعرفه جيداً.

---

(1) بالروسية لا يمكن أن تخاطب من لا تعرف إلا باسمه واسم أبيه، احتراما.

ـ كارتشوبيك ألطايفيتش. جانيشبايف كارتشوبيك ألطايفيتش. هل حفظته؟ واسمع أيضاً ـ يبدو أن الأقيم قد أعد عقابين ذهبيين، كهدية للضيفين من مديرية المنطقة.

ـ فهمت. وأنت ماذا تفعل هنا؟

ـ وكيف لا، فأنا لست مجرد مطارد، والشيف يستدعيني باستمرار عندما تكون هناك أمور هامة كهذه.

ـ واضح.

ـ وكيف كانت نزهتك مع إليس؟

ـ وما شأنك أنت؟

ـ دعك من هذا، فهي فتاة جيدة. تناسبك تماماً.

وهنا دخلا الغرفة. وكما تقتضي الآداب فقد سلم آرسين سامانتشين على الأقيم أولاً ـ وهو رجل بدين وقور، يرتدي بدلة رسمية وربطة عنق، لا يبدو عليه أنه تجاوز الأربعين إلا قليلاً. وتذكر أنهما سبق أن التقيا مرتين في مكان ما، في مؤتمرين. بعد ذلك حيا عمه بيكتور. وكان الأقيم هو الذي افتتح الحديث:

ـ إننا بانتظارك يا آرسين، إذ لابد من التشاور حول بعض الأمور.

ـ إنني جاهز يا كارتشوبيك ألطايفيتش. إن عملي هو بالدرجة الأولى الترجمة. سأكون مترجماً فورياً.

ـ أعرف، أعرف وفي هذه الحالة لا يمكن الاستغناء عن المترجم. لكنك بالنسبة لنا يا آرسين لست مترجماً فقط، إن لديك مثل هذا القريب بيكتور آغا «تشرشيل ـ آغا» فكن به فخوراً. ففي الماضي كان بيكنا يدير الكلخوز بحزم، والآن كل الصيد في يديه: بدءاً من الكباش الجبلية البرية، وانتهاءً بالنمور الرقط. أما بالنسبة للإعلام فأنت فيه من الخانات.

ضحك الجميع للنكتة، بعد ذلك بدأ الحديث الجدي، وكان الأقيم أكثرهم مشاركة في إبداء الرأي. في البداية قرر أن يستشيرهم بشأن حفل إهداء العقابيين الذهبيين (فالأثرياء العرب من عشاق الصقور والنسور الجبلية، وسيكون من دواعي سرور الضيفين أن يأخذا طائري الصيد الأوزينغيلسيين إلى ديارهما) سوف تقدم الهدية في احتفال مهيب، حيث يغطى رأس العقاب، ويقدم من على يد ممدودة إلى يد الضيف، المغطاة بكف جلدي طويل. لكي لا يحدث الطائر، لا سمح الله، أي خدش ببراثنه للضيف العالي المقام. ولكن السؤال هو التوقيت الأفضل لتقديم الهدية: هل يقدم العقابان للضيفين لدى وصولهما إلى تويوك ـ جار أم عند مغادرتهما، بعد انتهاء الصيد.

هنا سارع تاشتان أفغان إلى الإدلاء بدلوه، قائلاً: إنه من الأفضل عدم إلهاء الضيفين عن الشيء الأساسي ـ الصيد، وأن تقدم الهدية لهما في النهاية، قبيل سفرهما، مع مراعاة المراسم كلها. ولقد أيده في هذا الرأي الشيف بيكتور، والباقون جميعاً، وبدوره اقتنع الأقيم جانيشيايف بهذه الحجة. وأضاف تاشتان أفغان بحماسة: إن عملية الإهداء يجب أن تتم حسب العادة القديمة، بحضور الشامان وهو يؤدي طقوس الصيد.

إن لدينا مثل هؤلاء الشامانات ــ كاملات، ولسوف يؤدون تعاويذ العقبان أيضاً. ولا شك في أن الضيفين سيرغبان في معرفة فحوى هذه التعاويذ، فتترجم ذلك يا آرسين الى الإنكليزية. ربما تستمع مسبقاً إلى أحد الشامانات، لكي لا تضيع في الفنون الشامانية.

ــ حسناً، سأفكر بذلك ــ قال آرسين سامانتشين بصوت لا يخلو من التوتر، وهو لا يفهم ما الذي يجري.لتاشتان أفغان «هل يعقل أنه غير رأيه؟ يا لها من سعادة إذن. لكن ماذا لو أنه يخدعنا؟«.

أما تاشتان أفغان، كما لو أنه أحس بارتباكه، فقد عمد إلى صب الزيت في النار، إذ راح يحدث بايكي عن أحد الشامانات، الملقب بـ (شمالباش)، أي ذو الرأس الطائش:

ــ إن لدينا في تويوك ــ جار يا كاتشوبيك ألطايفيش شامانا، لا يمكن أن تعثر على مثيل له في أي مكان. إنك يا بيكتور آغا تعرف شمالباشان ــ فأومأ ذلك برأسه، وهو يبتسم ــ وأنت يا آرسين سمعت به على الأرجح؟ الجميع في الآيل يعرفونه من الصغير إلى الكبير. فإذا أطلق العنان، فلا نجاة منه، إذ لا يكف عن الرقص والقفز والشخير والعويل:

هل يعقل أنكم لا ترون

إلى الجبال، وهي تتداعى؟

هل يعقل أنكم لا ترون

إلى الأشجار، وهي تتساقط؟

هل يعقل أنكم لا ترون

إلى النهر يجري إلى الخلف

كل هذا من صنع يدي

ولسوف أسوقكم جميعاً كالقطيع

وفي الحظيرة كما النعاج أزربكم

فارتموا على أقدامي، وأسقطوا

وإن لم تفعلوا فلا تزعلوا

إنني ــ شمبالباش، وأنا قادر على كل شيء.

وضحك الجميع. أما جانيشبايف فسأل بمرح:

ــ إذن أنت تعتقد أن بالإمكان تقديم هذا الشمبالباش إلى الضيفين؟

لكن الشيف بيكتور خان رد بحزم:

ــ أبداً. لا يجوز السماح له بالاقتراب منهما. فالشمالباش سوف يقفز، يصرخ، ويثير المخاوف، ثم إنه ليس بالإمكان ترجمة هلوساته. فما رأيك يا أرسين هل هناك حاجة لمثل هذا الهرج؟

ــ الترجمة ليست مشكلة لكن تسليم العقابين احتفال مهيب، ولا داعي لشغل الاهتمام، فالعقبان طيور جدية وليست ببغاوات..

ومن جديد قهقه الجميع، ثم مالبثوا أن انتقلوا إلى الأعمال مباشرة. وكان الليل قد خيّم على الكون في الخارج. وأما الشيف بيكتور فقد فرغ للتو، وهو ينفث دخان سيجارته، على غرار تشرشيل، من اطلاع مدير المنطقة على كامل الخطة، التي أطلق عليها لسبب ما اسم «خطة الجابارس» ولقد سجل الجميع في مفكراتهم «خطة الجابارس» بنداً بَنداً: استقبال الضيفين في المطار، مواكبتهم حتى تويوك ـ جار، المبيت في جناح الضيوف، أما الحراس فسيبيتون الليل في المكتب، حيث يجتمعون الآن، النهوض في الصباح، والاستعداد للانطلاق إلى الجبال. وفي الجبال أصبح المعسكر الصغير جاهزاً، حيث نصبت للضيفين خيمتان خاصتان، وتم تأمين كل ما يلزم لضمان راحتهما. ومن أجل الوصول إلى الوادي تم تجهيز السيارات، من قطر على متن طائرة شحن. حين يصبح الطريق الجبلي غير سالك بالنسبة للسيارات، سيمتطي الجميع صهوات الجياد، والجياد أصبحت جاهزة. وتمت بيطرتها بالشكل المطلوب. أما في المرحلة الأخيرة فلابد من التقدم سيراً على الأقدام، وتسلق الصخور والمخابئ، لكن ذلك من اختصاص الصيادين الهواة ولقد انشرحت صدور جميع من حضر اللقاء مع مدير المنطقة حين أُنْبِئُوا بأن كل بنود «خطة جابارس» مدفوعة الأجر، وأن كل أنواع النفقات قد أخذت بعين الاعتبار، بما فيها ثمن الوقود، أجرة الخيول، العدة، وحتى الخشب اللازم لإضرام النار. كانت تلك خطة عمل حقيقية، تركت انطباعاً قوياً لدى التويوكجاريين: فلقد أدركوا الآن بدورهم معنى السوق، كل خطوة لها ثمن. أصبح مزاج الجميع رائقاً.
أما مدير المنطقة فقد استفسر، بدافع الفضول، من الشيف بيكتور:

ـ إن الخطة متقنة جداً يا بيكي أكساكال، لكن من أين هذا الاسم «جابارس»؟

وقال الشيف بيكتور مبتسماً، وهو ينفث دخان سيجاره:

ــ هناك أغنية عن الجابارس، والجميع عندنا يعرفونها. حتى أنك يا أرسين كتبت عنها في إحدى مقالاتك على ما أظن؟

ــ أجل يا بيكي، كان الحديث يدور حول الفولكلور.

وهكذا يا عزيزي كارتشوبيك ألطايفيتش، فقد تذكرت الآن بعض أبياتها، ولسوف أحاول إنشادها:

ها هو الجابارس يقفز طائراً إلى الجبل.

ها هو الجابرس يأخذ بخناق فريسته.

إن الجابرس مسرور أبداً بفريسته.

لقد وهبته الطبيعة الكثير من القوة.

مثل هذا الجبروت أتمناه لكم.

ليكن بين الناس لدينا.

جابرسنا، جابرس الباسل..

وصفق مدير المنطقة بكفيه قائلاً:

ــ هكذا إذن. أمر شيّق جداً، يعني يا أكساكال بيكي أنك أنت هو الجابارس الباسل؟

وهزّ الشيف كتفيه قائلاً:

ـ ليس تماماً. ففي مجال (البيزنس) ربما أكون قد تمكنت من القيام بشيء في ربوعنا، لكن الجابارسات ـ البواسل هم الشباب. إن تاشتان أفغان سيكون ذاك الجابارس الباسل، إذا ما عثر على النمور الرقط الثلجية، ودفعها نحونا.

ـ شكراً، شكراً تمتم تاشتان أفغان بارتياح.

ـ ثم إن لدينا جابارساً ـ باسلاً آخر ـ إنه هذا الفقيه في كل اللغات، أرسين، ابن أخي.

ـ أي جابارس أنا؟ إنني مساعد ـ مترجم لعدة أيام، والمترجمون لا يمكن أن يكونوا بواسل ـ قال أرسين سامانتشين من باب المزاح.

وضحكوا. كان جو المرح والود الصادق يدل على أن حملة صيد النمور الرقط الثلجية موفقة في بداياتها، ولم يبق إلا ظهور الشخصيات الرئيسة على خشبة المسرح، بعدها سيتضح ما إذا كان الحظ سيبتسم لهم، فهذا بدوره يتوقف على تدبير القدر، ليس قدر الصيادين وحدهم، بل وقدر أولئك الذين سيتم صيدهم. حتى الآن لا يزال كل شيء يجري على ما يرام.

غادر مدير المنطقة جاينشبايف، وهو في مزاج رائق. ولقد قرر أن يأتي لاستقبال الضيفين الوجيهين في المطار مباشرة، وهناك سيرحب بهم باسم المنطقة، أما حفل تسليم العقابين فسوف يتم التنسيق بشأنه لاحقاً ـ فلا أحد يعرف كم يوماً سيستغرق الصيد.

وهنا أوضح الشيف بيكتور باحترام:

ـ فيما يتعلق برد الهدية من جانب الضيفين العربيين، فهذا من شأنهما، ويعود إليهما، فالضيوف ضيوف.

جميع الحاضرين خرجوا في وداع مدير المنطقة، الذي قال لهم مودعاً:

ـ شكراً. لقد شربنا الشاي وتحدثنا، وعلي أن أعود، فقد تجاوزت الساعة الثامنة ـ هنا نظر إلى ساعته ـ كم مر الوقت بسرعة، وذلك لأنني استمعت كثيراً، واستفدت من التشاور معكم. أما فيما يخص «خطة الجابارس» فيمكن القول: إنها استراتيجية كاملة. والآن إلى اللقاء يا بيكتور أكساكال، إلى اللقاء في المطار. تمنياتي لكم بالنجاح.

ودعوا بعضهم بالعناق، وشد كل منهم على يد الآخر. ولقد دهش أرسين سامانتشين من انشراح بني قريته، وخطر له أن البيزنس يلعب دوره هنا أيضاً. فإلى جانب كل شيء كانوا يعلقون الأمل على سخاء الضيفين ـ الثريين النفطيين ـ ولذا فقد كان الجميع يحاول غريزياً أن يبرز مساهمته في الأمر، بمن فيهم رئيس الإدارة المحلية. لكن هذه في نهاية المطاف حالة طبيعية مألوفة. أما تصرف تاشتان أفغان فكان مدهشاً بالفعل. فلقد كان في منتهى الاهتمام والنشاط والوقار، إلى درجة أنه ما كان يمكن أن يخطر ببال أحد أنه يدبر مثل هذه المغامرة، وهي مغامرة سوقية إلى حد ما. تُرى هل استيقظ ضميره؟ «عسى ينتهي كل شيء على خير» ـ فكر أرسين سامانتشين بأمل بينه وبين نفسه. لكن المخاوف لم تفارقه، كان يريد أن يتأكد، أن يطرح السؤال بصراحة، لكنه لم يتمكن من ذلك بعد. أضف إلى هذا أنه كان قلقاً على إليس، وكان يريد الاتصال بها، لكن لابد قبل ذلك من الحديث مع تاشتان أفغان. بعد وداع مدير المنطقة والشيف بيكتور، اتجه تاشتان أفغان إلى مرابط الجياد، حيث يقف

جواده أيضاً. وقد اقترب أرسين سامانتشين منه في اللحظة، التي فك فيها رباط الجواد، وهم بامتطاء صهوته.

ـ اسمع ـ أوقفه أرسين ـ ماذا قررت بشأن سيدارتك العسكرية؟ هل تعتمرها؟

ـ لا تقلق، فكل شيء سيكون على ما يرام.

ـ ماذا يعني ـ على ما يرام؟

لقد قلت لك لا تقلق. كفى، فأنا على عجل.

وابتعد تاشتان أفغان تاركاً ابن صفه في حيرة. فكيف يمكن أن تفهم كل هذا؟ للتور بدا وكأنه نادم، وخرّ على ركبتيه كما يقال ـ أمام السماء.

ـ إلى هذا الحد كان لطيفاً ووقوراً، لكن ها هو الآن لا يريد حتى الحديث. إلى حد لا يمكن فهمه، فهو لم يتمكن بسهولة من التخلي عن الخطة المغرية، ولقد تطلب منه ذلك جهوداً جبارة لكبح جماح نفسه، فلا غرابة أن يندفع قليلاً، لا ضير في ذلك، المهم أن يكون قد ثاب إلى رشده، والأفضل أن يصبح جابارساً ـ باسلاً في الصيد.

ولم يكن أرسين سامانتشين نفسه في وضع يحسد عليه، كان يشعر بالضيق حين يعود إلى الواقع إذ لم يلمح أحد، ولو مجرد تلميح، إلى الضرر، الذي يلحقه (بيزنس) الصيد هذا بالبيئة، لا أحد يهتم بذلك. حتى هو نفسه اضطر أن يلوذ بالصمت بتواضع بسبب صلة الرحم، التي تربطه بصاحب هذا البيزنس الفريد من نوعه، والذي حقق مثل هذا النجاح الباهر. إن اقتصاد السوق يصطاد بشباكه ليس الناس فقط،

بل وأرواحهم. لقد روى لهم الشيف بيكتور خان القصة التالية. فبين العديد من أبناء القرية، الذين توافدوا نهاراً لمتابعة الأعمال، كان ثمة رجل عجيب، يحمل فكرة غريبة، إذ أن صيد النمور الرقط الثلجية برأيه شيء تافه، وقال: «دعونا نفكر بشيء آخر، فبالإمكان بيع ثلج جبالنا» وأعرب الشيف بيكتور عن دهشته من هذا اللغو الفارغ، لكن ذاك راح يؤكد: كل شيء في العالم اليوم يباع ويشرى. إن ثلوج جبالنا هي الماء في الأنهار. إن حياة آسيا الوسطى بأسرها تتوقف على ثلوجنا الأبدية. علماً أن الجبال جبالنا، والثلوج والجبال الجليدية لنا. كل المزروعات المروية في السهول، كل المحاصيل والمناهل لم تسقط من السماء، بل كلها من عندنا، ولما كان الأمر كذلك فدعونا نطالب بثمن الماء. لماذا يباع النفط والغاز ومواد الطاقة المختلفة بمثل هذه الأسعار الفاحشة، دون منح التسهيلات لأي كان، بينما نعطي نحن مجاناً مياهنا، التي لا حياة في السهول بدونها، دون أن يقول أحد لنا ولو مجرد شكراً؟ إنهم هناك في الأسفل لا يعتبروننا نحن الجبليين بشراً. إذن فما الداعي لمطاردة النمور الرقط؟ فلتقم شركة «ميرغن» ليس بتقديم خدمات الصيد فقط، بل وببيع الماء، نكسب جميعنا الربح من هذا. على هذا النحو طرح الرجل هذه الفكرة، السوقية بدورها، بكل حماسة واهتمام، وكان لا بد من تهدئته، وإقناعه بأن الماء هبة من الله، خصَّ بها الجميع. كان من شأن هذا الحادث أن يكون نوعاً من النكتة، لو لم يكن يحتوي في أساسه على معايير السوق للزمن المعاصر.

على هذا النحو كان أرسين سامانتشين يفكر، حين جلس إلى مقود السيارة. ودون أن يشغل المحرك، راح يضغط على رقم إليس. كان هاتفها مشغولاً. إذن فهي لا تزال تتحدث مع زميلاتها بخصوص أمورهنَّ المكوكية. كان بوده أن يسمع صوتها. وحين راح يفكر بـــ«خطة جابارس»، خطر له أن إليس كانت الإنسان الوحيد، من بين

جميع من تحدث معهم في ذلك اليوم، الذي خطرت له فكرة التصدي لصيد النمور، البربري. صحيح أنها كانت تدرك أن أبناء قريتها لن يؤيدوها، لأنها تحُول بينهم وبين كسب رزقهم. ومع هذا فإن واقع وجود ولو إنسان واحد مهتم بهذا الأمر يدعو للارتياح. كان بود أرسين أن يسمعها وتسمعه، فراح يحاول الاتصال بها، لكن عبثاً. لقد آن أوان عودته إلى بيت شقيقته، حيث ينتظرونه، وغداً منذ الصباح، سيكون السفر مع الشيف بيكتور إلى المطار، بعد ذلك التحضير لوصول الضيفين الكبيرين، ثم التحرك إلى الجبال، على العجلات، أولاً ومن ثم على الجياد، وبعد ذلك الصعود مشياً عبر المنحدرات، الصدوع، الكثبان إلى أماكن النمور الرقط، وأخيراً يبدأ الصيد نفسه، ورصد الوحوش واليد على الزناد، كان الشيف بيكتور يعرف ذلك كله جيداً، لذا فقد كان متحمساً جداً لمشاركة أرسين في العمل. «ليس كل مترجم صالحاً لتسلق الجبال، أما أنت ففي عنفوان قوتك. كان الفرسان في أسرتنا أشداء دائماً والحمد..» والواقع أنه كان على حق، فلقد كان أرسين نداً للضيفين العربيين، صحيح أنهما كانا متسلقي جبال مدربين ومع هذا، فسوف نرى..

ولقد وجدت هذه العملية، التي بدأت باندفاع، تتمتها في عذابات إليس ومعاناته، فهي لم تتمكن من إقناع زميلاتها في (البيزنس الكوكي) بأن يسافرن بدونها، ولا أن يؤجلن السفر إلى ساراتوف. كانت إليس تعاني الأمرين، وهي لا تفارق الهاتف، ولا تكف عن شحنه، خوفاً من أن يغلق، ويحرمها من الاتصال بحبيبها، فغداً عليها السفر إلى ساراتوف.

كم سبق لها أن طافت أرجاء العالم، وكم حملت من الأكياس الثقيلة، المعبأة بالبضائع الرخيصة! وكم من العذاب عانت في السفر. فقد كان رجال الأمن والجمارك في القطارات والمخافر ينتزعون آخر كوبيك

لديها. ومع هذا فلم يسبق لها أن فارقتها الرغبة في السفر. حتى أن رغبة مجنونة تماماً خطرت لها – أن تذهب إلى النمور الرقط في الجبال، حيث تلتقي هناك حبيبها بين الصيادين، وتقول له وهي تجري للقائه، إنها كانت بانتظاره، وأنها على استعداد للذهاب معه، ولو إلى نهاية العالم. أما في الواقع فقد كان ينبغي عليها أن تقوم بواجبها تجاه زميلاتها في العمل. فلقد سافرن إلى كل مكان هنّ الأربع معاً – زينب وامرأتان أخريتان من قريتين مجاورتين، فقط على هذا النحو كان بوسعهن حماية أنفسهن من اللصوص، فكم من المكوكيات اختفين لأنهن كن يعملن بمفردهن، أضف إلى هذا أن لديها هي وحدها، إليس، وثيقة رسمية للمرور عبر المخافر الحدودية، أما الأخريات فكن معاونات لها، وهذا يعني أن عليها أن تسافر بكل تأكيد.

بكت إليس بهدوء تلك الليلة، وتوسلت إلى الله أن لا يحرمها من السعادة، التي وهبها لها.. وحين تردد الجرس المنشود، وحين غمرتها المشاعر من جديد، وحين حدثها بأموره، وحدثته هي بأمورها، وحين وعد كل منهما الآخر باللقاء القريب، حينها فقط شعرت أن روحها رُدَّت إليها.

كان القمر فوق الجبال في تلك الليلة بدراً. وإلى القمر الكبير بالذات، المحاط بآلاف مؤلفة من النجوم الصغيرة في السماء الصافية، وجه الجابارس المنبوذ زئيره العالي. كان يشكو للقمر حنينه، لكن القمر لم يحر جواباً. كان عليه أن يذهب إلى مكان ما، قريب من النمور

الرقط الأخرى، وبدلاً من ذلك لا يزال قابعاً تحت قمة أوزينغيليش ــ ستريمياني، كما المسحور. وعلى الرغم من أن أولئك الفرسان الثلاثة قد ظهروا لليوم الثاني في الجوار، فإن الجابارس المتجهم لم يولِ ذلك أي اهتمام. دعهم يضربون في المكان، فما دخله هو. لكن عبثاً، فهم إنما كانوا يراقبونه هو بالذات، «أبو الرأس الكبير والذيل الطويل»، بواسطة مناظيرهم المقربة.

الفصل التاسع

ضمنت «خطة جابارس» البيكتورية فعلاً سير العمل حسب البرنامج، بلا توقف. ولابد من تقدير حسن التنظيم، فقد كانت الخطة فعلاً في غاية الدقة والتفصيل، لذا فقد جرى التنفيذ بلا أي خلل، ويمكن القول إن كل آيل تويوك ـ جار قد ساهم في تدابير التحضير للصيد وتنفيذه. وفي هذه الأيام كان جميع القرويين، من كبيرهم إلى صغيرهم، ينتظرون بفارغ الصبر انتهاء عملية صيد النمور الرقط الثلجية بنجاح، والحصول على المكاسب الخيالية. كان الآيل في هرج ومرج، والجميع يتمنى للضيفين البارزين النجاح الباهر. وحدهما النمور الرقط لم تكن تدري بما يحاك لها، وبما ينتظرها عما قريب.

وبالمقابل فقد جرت الأمور كما أمِلَتْ شركة «ميرغن» بنجاح، وكانت كل المحادثات مع الضيفين تجري على مدار أربع وعشرين ساعة بواسطة أرسين سامانتشين. لقد اقتنع الشيف بيكتور نفسه أنه بدون أرسين ما كان بالإمكان إنجاز مثل هذا العمل المثمر، لذا كان يوجه الشكر لابن أخيه كلما سنحت الفرصة. «أقول لك أيضاً يا أرسيننا العزيز إنك، فور بدئك الحديث مع الضيفين، ينتعشا، كالأزهار بعد المطر. وعلى الرغم من أنني لا أفهم كلمة واحدة، إلا أنني أرى ذلك في عيونهما» ولم يكن الشيف يبالغ في قوله. فمنذ

الترحيب الأول.. ومن ثم في الطريق من المطار، كان الضيفان العربيان، ومساعدهما يتحدثون عن المسائل الهامة، وبفضول النوايا الحسنة. وبدوره فقد كان أرسين سامانتشين يشعر بالمتعة، على الرغم من العبء الثقيل، كان مضطراً للترجمة على مدار اليوم إلى الإنكليزية والروسية والقرغيزية. وإلى حد كبير كان الفضل يعود إليه في تنفيذ المرحلة الأولى ــ وصول المجموعة التحضيرية، ومن ثم الضيفين نفسيهما ــ بشكل منظم وحضاري، بعيداً عن الأمور الزائدة.

ولقد تبين أن الضيفين شابان اجتماعيان، يكادان يكونان من عمر واحد، يتحليان بالتفكير العصري، رياضيان، بوجهين ذكيين، أحدهما خريج كمبرديج والآخر ــ أوكسفورد. بينما كان حسن ذا شاربين أسودين كثيفين، كان ميسر حليقهما. كانت كل الدلائل تشير إلى أن صيد الوحوش الضارية لم يكن يشكل لهما وسيلة للبطولة، بقدر ما كان ضرباً استثنائياً من الرياضة.

كبداية كانت هذه المعلومات والملاحظات كافية تماماً. وبدوره راح أرسين يحدث الضيفين عن البلاد، عن هذه المنطقة الجبلية، عن مناخ الجبال الشاهقة، عن السكان المحليين عن التقاليد والعادات الشعبية.

وصلوا إلى تويوك ــ جار في موكب. في الطليعة، كان الشيف بيكتور خان في سيارته الجيب، ومن خلفه سيارة الــ «همر»، التي تقل الضيفين مع أرسين سامانتشين بصفته مترجماً ومرافقاً مستشاراً، ومن ثم السيارات الأخرى، التي تقل الحراس والخدم والمصورين التلفزيونيين.

جميع سكان تويوك ـــجار اندلقوا إلى الشوارع. وهم يرحبون بالضيوف ويحيونهم. أما الصّبْيان، الذين أذهلهم منظر الـــ «همر»، فقد راحوا يجرون على طرفي الطريق، يرافقهم نباح الكلاب. للمرة الأولى يرون مثل هذه السيارة، ولم يستطيعوا أن يصدقوا أن مثل هذه الأعجوبة تسير عبر قريتهم، ولم تقتصر الدهشة على الصبيان، بل شملت بعض الكبار: كانوا يتوقعون أن يروا المليونيريين، لكنهم لم يروا إلا شابين عاديين في بدلتي رياضة.

كان النهار قد بدأ يميل إلى الغروب. وقد أُنْزِل الضيفان، لدى وصولهما، في الغرف، المعدة لهما. وبعد استراحة قصيرة، قُدِّم العشاء، وحين عرضت الفودكا عليهما رفضا، ثم أوضحا مازحين، أن سبب رفضهما يعود إلى أنهما لا يمكن أن يسمحا لنفسيهما بمثل هذه المتعة، إلا بعد انتهاء الصيد، وحين تكون جلود النمور الرقط الثلجية، التي تعد ذات قيمة عالية في الشرق، غنائم في أيديهما. وبالمناسبة، في مجرى الحديث روى أرسين سامانتشين للصيادين العربيين أسطورة العروس الخالدة. كان ينوي أن يأتي على ذكرها فقط، لكنه لم يدرِ إلا وهو يثير قلقه هو وقلق الضيفين. فلقد تأثرا إلى حد كبير بمأساة العروس والعريس، التي جرت بسبب الحسد والكراهية، الكامنين في النفس البشرية منذ الأزل، ومما زاد في تأثرهما بشكل خاص أن العريس كان صياداً بارزاً، وأنه قدم جلود النمور الرقط الثلجية لوالدي العروس، كأفضل هدية، علماً أن بنادق الصيد لم تكن قد ظهرت بعد. واستفسرا عما إذا كانت عادة تقديم جلود النمور الرقط الثلجية لا تزال قائمة حتى الآن. هذا يعني أن فراء النمور الرقط هو ثروة طبيعية من الدرجة الأولى، مثله مثل فراء النمور والفهود. وقد رأى أرسين سامانتشين أن حبهما للمعاشرة ليس فقط نوعاً من الفضول، بل ودليلاً على الود الذي ترتاح إليه النفس. وفي مجرى الحديث سألاه، عما إذا كان قد زار البلدان

العربية، وإذ عرفا أنه لم يزر حتى الآن إلاّ مصر، دعواه لزيارة بلادهم، وأعطياه بطاقتي الزيارة، وهما يؤكدان أنه سيستقبل على الرحب والسعة، وستنظم له من باب الصداقة ــ زيارة المخيمات البدوية. ومن البديهي أن أرسين شكرهما من كل قلبه، لكنه لم يتطرق في حديثه إلى المسائل الاجتماعية والسياسية الملحة، على الرغم من أنه، كصحفي، كان يود سماع رأيهما بخصوص المواضيع الحيوية، فمن المرجح أن لديهما وهما من الشخصيات البارزة مفهومهما لهذا العالم، لكن ثمة قضايا عالمية شاملة، غير مرتبطة بالمفاهيم الاجتماعية والسياسية، كالقضايا البيئية على سبيل المثال، فللوهلة الأولى قد تبدو محلية بحتة ــ ثمة في مكان ما شيء ما يجري، لكن هذا لا يخصنا، أما في الواقع فإن أي تغير بيئي ينعكس في خاتمة المطاف على طبيعة الأرض كلها. كان يود أرسين أن يتحدث مع الضيفين حول العديد من الأمور، لكن عمه بيكتور أكد له أن «المهم في (بيزنسنا) بالدرجة الأولى هو كرم الضيافة ــ إنه التأدب واللباقة.. لا داعي لتجاوز حدود اللباقة فليكن الضيف مسروراً، مطمئناً ومرتاحاً. كانت الأمور مقبولة لولا الكابوس، الذي يضني روح أرسين سامانتشين، والذي يراوده باستمرار.

ــ إنه تاشتان أفغان المخبول. يبدو أنه شعر بالندم، يبدو أنه استكان.. هذا ما كان واضحاً من طبيعة سلوكه، لكن.. قبيل الذهاب إلى الفراش، خرج الضيفان إلى الساحة ليتنفسا الهواء الطلق، وراحا يتفرجان على (البانوراما الليلة) ــ القمر البدر، النجوم المتلألئة، السماء الصافية، ومن تحتها ــ الذرى الثلجية العملاقة، المحدبة والغامضة.

وسأل حسن، وهو يشير إليها بيده:

ــ على الأرجح يا سيد أرسين أن الصياد ــ العريس كان يصطاد في تلك الجبال؟

ــ أجل هناك كان يعيش، وهناك كان يصطاد ــ رد أرسين سامانتشين.

ــ وسأل ميسر بدوره:

ــ والعروس الخالدة هنا أيضاً طافت وبكت؟

ــ أجل. وهي ما زالت حتى يومنا هذا تبحث عن عريسها الصياد وتناديه.

ــ مسكينة ــ قال حسن بأسى، أما ميسر فقد أدلى بفكرة طريفة:

ــ ربما يكون العالم بحاجة إليها بالشكل الذي هي عليه بالذات؟ لو أمكننا أن نصور من علٍ بالكاميرا التلفزيونية فتاة تجري عبر الجبال، فنانة، إذن لكان بوسعها أن تصبح شخصية رمزية.

ــ فكرة جميلة ــ قال حسن مؤيداً ــ أن تعلن العروس الخالدة حامية الحب والإخلاص، ولسوف تكون قريبة من كل شخص، فتراجيديا الحب موجودة دائماً، ما رأيك بهذا يا سيد أرسين؟

ــ منذ عهد بعيد والحلم بــ «العروس الخالدة» يراودني، ليت ذلك بالإمكان.. إن أفكارك تزيدني حماسة وأنا متأثر جداً بتطابق الأفكار.

وهكذا وعلى غير انتظار، عادت فكرة «العروس الخالدة» إلى الظهور، واتفقوا على الحديث بهذا الشأن بعد الصيد، بكل هدوء وتفصيل. بعد ذلك ودعوا بعضهم:

ـ ليلة هانئة.

ـ حتى الصباح.

بعد عودته إلى منزل أخته تمشى أرسين في الساحة قليلاً. ولقد ترك نقاش الضيفين انطباعاً هاماً لدى أرسين سامانتشين. لم يكن يتوقع هذا. لقد تجلى تأثير التعليم الأوروبي، ومع هذا فقد تساءل بدهشة: كيف بمقدورهما أن يجمعا في وقت واحد بين الموضوعات السامية وبين حب الصيد؟ لكن أوان النوم قد حان.

* * *

كل الكائنات الحية في الجبال كانت غافية في تلك الساعة، وقد تجلببت بعتمة الليل الهادئ، وحده الجابرس، الرابض تحت قمة أوزينغليش ستريمياني لم يجد إلى النوم سبيلاً، وكان لا يكف عن الزئير متوعداً القمر، وعن عض يده، وقلبه يحدثه بخطر وشيك، لا يعرف مصدره.. ومن جديد تردد الصوت نفسه من بعيد، فهي أيضاً، العروس الخالدة، لم تعرف إلى النوم سبيلاً.

* * *

وثمة من كان يفكر في تلك الليلة بالحبيبة الأرضية، كيف هي إليس هناك؟ هل أدركت القطار، الذاهب إلى ساراتوف مع صاحباتها؟ إن كن قد تأخرن عنه فسوف يترتب عليهن الانتظار يوماً بكامله، فالقطارات الآن نادراً ما تسير، حيث انتقل الجميع إلى السفر بالطائرات. في الصباح اتصلت إليس، ولم يتمكنا من الحديث بعد ذلك. لم تكن هناك دقيقة فراغ واحدة، ومن جديد تذكر ذاك الذي لا ينسى ـ ما حدث بينهما في الوادي، عند ضفة النهر، حيث كانا

سعيدين جداً معاً، وكان بوده لو تتكرر لحظة السعادة المباركة تلك مرة ومرة..

انصرم الليل. وعند الصباح بدا الطقس متجهماً قليلاً، ومن مكان ما تراكضت السحب فوق الجبال. وكانت الريح الخفيفة تهب تارة من هنا وأخرى من هناك، علماً أن الطقس الصيفي الهادئ ظل سائداً خلال الأيام الماضية، إلى حد أنه بدا أنه سيستمر على هذا النحو إلى الأبد، وعلى كل حال فلم يكن ثمة داع للقلق الآن أيضاً، إذ أن من شأن هذه القتامة الخفيفة أن تختفي فجأة، كما ظهرت فجأة، ولا داعي لاعتبار ذلك نذير هطول المطر، أو ما هو أسوأ ـ حدوث عاصفة رعدية.

منذ الصباح بدأ العمل يجري على قدم وساق، وكان لابد من تنظيم السفر في «مهمة صيد عملياتية» ـ كما ورد في الوثائق الرسمية لشركة «ميرغين»، وقبيل الإقلاع في سيارة «الهمر» المدرعة، تفحص أرسين سامانتشين الأمتعة، خوفاً من أن يكونوا قد نسوا شيئاً، سلاح القناصة، السلاح الآلي، المناظير المقربة، الميكرافون، مكبرات الصوت، أقنعة التنفس اللازمة في حال أصيب أحد بضيق التنفس في الأماكن العالية، وغير ذلك.

وصلوا إلى موقف الخيول بشكل طبيعي، بعد أن قطعوا على العجلات قرابة ثلاثين كيلو متراً، بسرعة تتراوح بين الأربعين والخمسين كيلو متراً في الساعة. كانت الجياد على أهبة الاستعداد، فقد كانت كلها محدية ومسرجة.

وهنا كان لابد من تحميل الأغراض على الخيول، والشيف بيكتور بنفسه أشرف على سير العمل.

تبين أن العربيين فارسان ليسا بالسيئين. إن الفروسية في الجبال تختلف عما في ميادين السباق، إذ أن على الفارس الجبلي أن لا يكف عن الحفاظ على توازنه فوق صهوة الحصان، وأن يراقب طريق الجواد، فمن على السفوح، تارة من اليسار وأخرى من اليمين، ينهال التراب وتتساقط الأحجار.

كانوا يتحركون في رتل واحد، وكان في طليعتهم راعٍ محلي، بصفة دليل، ومن خلفه الشيف بيكتور، يليه الضيفان، فأرسين سامانتشين. وحتى الآن كان بإمكانهم التحدث مع بعض بشكل مباشر ولكن لدى كل منهم ميكرافون، لكي يظلوا على اتصال، حين يصبحون بعيدين عن بعضهم البعض. أما رجال الحرس والمساعدون فكانوا يسيرون في الخلف.

كانت المسافة بين الجبال تزداد ضيقاً وبدت الصخور البارزة، كأنها معلقة، وكانت السفوح مغطاة بالحصى القابلة للانزلاق، مما زاد في صعوبة المرور، ومع هذا فقد تابعت الخيول سيرها.

في هذا الوقت بدأ عالم الحيوان في الجبال الشاهقة يكشف عن معالمه ــ ففي مرات عدة تراءت على الجانبين قطعان صغيرة من الماعز الجبلية ــ تيكي والكباش ذوات القرون ــ أرخاري، وهي تقفز مذعورة. كانت هذه الحيوانات الظلفية، الوجبة الدائمة للوحوش، تسير في حال سبيلها، وكان حسن يراقبها بالمنظار، وهو معجب بقفزاتها الرشيقة الماهرة، ثم أوقف جواده، وقال، وهو يلهث قليلاً:

ــ لقد خطر لي الآن يا أصدقائي أنه لو انتقلت هذه الحيوانات الرائعة كلها إلى مناطق أخرى، إذن لالتهمت النمور الرقط بعضها البعض من شدة الجوع، أليس كذلك؟

ـ إن عقلها لا يكفي، وإلا لكانت لاذت بالفرار ـ قاطعه ميسر ساخراً.

ـ ربما يكون الأمر على العكس، وأن تكون الطبيعة بمثل هذا التنظيم الذكي؟ ـ قال أرسين سامانتشين. وهنا ابتسم الصيادان، كلاهما.

ـ صحيح! لابد من الانحناء أمام حكمة الطبيعة.

ـ إن نجاح النمور يعني نجاحنا. أليس كذلك؟

كان تبادل التعليقات الفكاهية هذا قد خلق عن غير قصد جواً من الإعجاب المتبادل، وهذا ما كان في محله تماماً.

كان أرسين سامانتشين يتطلع إلى أن يكون الضيفان مرتاحين قدر الإمكان. لأنهما لم يأتيا إلى هنا من أجل الصيد وحده، فالعلاقات الإنسانية في هذه الحالات ليست أقل أهمية.

ـ والآن أيها الضيفان المحترمان ـ قال أرسين ـ لقد طلب الشيف بيكتور خان «رئيس شركتنا» أن أخبركما أننا سنرتاح هناك، خلف تلك الصخرة، حيث يقع المخيم، وهناك سنترك الخيول ونتابع الطريق سيراً على الأقدام.

ـ نحن جاهزان..

ـ الصيد هو الصيد..

كان الوقت ظهراً شكراً للشيف بيكتور، الذي نظم هذه الاستراحة القصيرة، فقد جلسوا في الخيام، وشربوا الكوميس الجبلي، وكان تأثير

الارتفاع قد بدأ ــ إذ راحوا يشعرون بضيق التنفس. وبدؤوا يجربون الحقائق الظهرية، ويعلقون السلاح على أجسامهم، بالإضافة إلى الميكرافونات وغيرها من أنواع العدة.

حين استقر الضيفان في الخيمة لأخذ قسط من الراحة، في أعقاب الطريق الصعب، وجد أرسين الفرصة سانحة لأن يصبح بمفرده، أما الشيف بيكتور فقد ترجل عن صهوة حصانه، وأسنده اثنان من مساعديه. فكان يلهث بصعوبة، وهو يمسك بلحيته، وقد رأى أنه ينبغي إبلاغ الضيفين ومرافقيهما ضرورة الانتظار، وأنهم قد لا يخرجون قريباً في طلب الطرائد، لأن أية أخبار لم ترد بعد من المطاردين. ولقد نظر الضيفان إلى هذا الخبر بتفهم.

وكما يؤكد المتسلقون والجيولوجيون، فعلى هذه الارتفاعات الجبلية الشاهقة، يجري عادة ما يسمى بــ «التبديل الدوري للروح»، وهو نوع من إعادة شحن وتجديد المزاج والإدراك للعالم المحيط، ففي الجبال يكون التفكير أفضل والدليل على هذا إقامة المعابد والأديرة، التابعة للمذاهب المختلفة والتي تستخدم الممارسة التأملية في الجبال. يقال إن التفكير في الجبال، أكثر حرية وعاطفية منه في السهول المنخفضة. إن لدى الجبال الشاهقة إلهامها الفريد فها هي ذي السماء تكاد تلامس رأسك، وبوسعك أن تطال الغيوم بيديك، وها هي ذي الصخور الأبدية قد التحمت بشكل راسخ في القشرة الأرضية، وها هي ذي الثلوج والجليديات بنقائها الكريستالي التام، يمكن أن تطالها يداك أيضاً، والمياه الشفافة تخرخر في النهر زرقة ساطعة، والهواء الذي لا تشبع من تنفسه، يدخل صدرك، ويخرج بشكل محسوس، كما لو أنك للتو رفعت الأثقال الكبيرة.

ربما يكمن هذا في طبيعة الأشياء، وربما تظهر فعلاً في الأماكن الشاهقة تلك الحالة الخاصة للروح البشرية، حين تصبح الأفكار والمشاعر والخيال نداً للقمم الثلجية وزمهرير الجو الجبلي اللدن والقارس، هذا بالذات ما كان يشعر به أرسين سامانتشين في تلك اللحظة. فما أن انصرف إلى دخيلته، وتخلص من كل الاهتمامات الملحة، حتى بدا وكأنه دخل عالماً آخر. ففي تلك اللحظة لم يكن بأفكاره، هنا، في المحطة، بل هناك في السهب البعيد، وقد سمع كما في اليقظة صفير القاطرة القوي الطويل، والقرقعة المنتظمة لقطار الركاب. أما هو فكان يركض والقطار، ويطل من النافذة، ويصيح: «إليس، هيه، إليس هذا أنا، إنني أحبك هيه يا حسنائي إنك في طريقك إلى ساراتوف، أما أنا ففي الجبال لكنني معك ولست بقادر على البقاء بدونك، كل حياته كطالب، وهو يسافر عبر هذا الطريق إلى ساراتوف، ومنها إلى موسكو. كان يحب ساراتوف على نهر الفولغا ساري ــ تاو ــ بالكازاخية. والآن فإن إليس في طريقها إلى هناك. أما هو فقد راح بفكره يرجوها أن تسامحه لأنه لم يتركها تسافر بهدوء، ولا يكف عن مضايقتها. لكنه بالفعل لم يعد قادراً على البقاء بدونها، ولذا فقد كاد يفقد عقله وهو يعيد ملحمته ويعيدها، ويغرق في أعماق الأحداث المتخيلة إلى حد أن الأوهام والأحلام أصبحت معادلة للواقع».

لم يكن أحد من المحيطين بأرسين يعرف ما الذي يجري له، وماذا يدور في نفسه، وحدها إليس كانت تسمعه وتراه، فها هي تقف في التامبور[1] تطل بجسدها، من باب العربة المفتوح، تتشبث بقبضته بإحدى يديها، وتمد الأخرى للقاء أرسين سامانتشين:

---

[1] تامبور: Tambour وهي فرنسية وتعني المكان الواصل بين كل عربتين من عربات القطار.

ـ أرسين، أرسين، إنني أسمعك، إنني أراك، أنني أحبك، إلحق بي، اقفز، لسوف أمسك بك. أي شيء لا يتراءى في الخيال، ولقد بذل أرسين قصارى جهده من أجل اللحاق بالقطار الآخذ بالابتعاد. ولحق به. لأن هذا ما كان يتوق إليه العاشقان، فالحب يتمتع بقوة جبارة. يخضع لها الخلود والأبدية، لأن الحب هو النداء الداعي إلى استمرار الجنس.

تلكم كانت مشيئة القدر، أن يلحق بالعربة، ومدت إليس بيدها له فقفز إلى السلم، وتعانقا..

ـ هيا بنا نجلس، ونتحدث ـ قال أرسين سامانتشين، بعد أن التقط أنفاسه أخيراً ـ إن لدي حديثاً جدياً.

ـ لماذا أنت مستعجل؟ إنك تعب. فخذ قسطاً من الراحة..

ـ لا وقت لدي. إننا نستعد للصيد في الجبال، ولا يجوز أن أتأخر، هاك هذا المصنف، وفيه مخطوطتي..

ـ مخطوطة؟ ماذا تقول يا أرسين؟ أمن أجل مخطوطة جريت في أعقاب القطار؟

ـ بودي أن أحدثك، تعالي.

جلسا في القمرة، لدى النافذة، أحدهما قبالة الآخر، وها كم ما قاله أرسين سامانتشين:

ـ بالمناسبة يا إليس في هذه المخطوطة قصتي الساراتوفية، إقرأيها في الطريق ـ قصة من أيام الحرب العالمية الثانية، حين لم نكن

وإياك قد رأينا النور بعد، بينما كان أبواي وأبواك قبل أن يصبحا آباءً لا يزالون يجرون حفاة، وهم في سن المراهقة. وهكذا، وبعد كل هذه السنوات ـ إذ أن قرنا رحل وحلّ آخر، عادت هذه القصة بصورة حنين إلى السنوات الخوالي، تُذكِّر بما لا يجوز أن يطويه النسيان أبداً: كل الحروب ـ هي بالدرجة الأولى سلسلة لا نهاية لها من القتل المتبادل وكل قتيل، بغض النظر عن رتبته ـ جنرالاً كان أو جندياً ـ يشعر بالندم على الأرجح، وهو ينتقل إلى عالم السكون الأبدي، لقد كتبت عن تلك الفترة قصة محزنة، تحت عنوان «**تقتل أو لا تقتل**» ففي الأزمنة الحالية يعتبر القتل ورمي عقب السيجارة سيان، يطلقون النار من اليسار واليمين، حتى أنني أنا كدت أجد نفسي على أعتاب ذلك. لكن هذه القصة ليست مكيدة رخيصة، ولافينيتكا[1] (لوحة) لموضوع جنائي، وينتابني شعور بأني انتشلت هذه القصة من أعماق المحيط، وذهبت إلى المقبرة، حيث دفن ملايين القتلى والقتلة، لكي أقرأها بهدوء لي ولهم. اعذريني يا إليس أنني انصرف إلى أدغالي ومجاهلي، لكنك أمينة مكتبة محترفة، وبالتالي فأنت تفهمين، وتعرفين جلية الأمر، وأنا مسرور جداً أنك تقرأين أفكاري المبلبلة كما يجب، شكراً يا إليس، إنك تهزين رأسك. ففي الشتاء الماضي سافرت في القطار إلى **بايكانور**، إلى المركز الفضائي، ومن الفضاء اتصل بي مباشرة رائد الفضاء ـ المخضرم **ساليجان**، فنحن صديقان، كنت أنوي كتابة مقالة عن الإنسان الذي يهفو لأن يعثر كل فرد من بني البشر على مكان للوجود في الفضاء، صحيح أن هذا لا يزال خيالاً، لكنه آت في وقت ما. ها قد عدت إلى اليوتوبيا، عفواً. وهكذا ففي الشتاء الماضي بدأت حتبة الحنين ـ فمنذ زمن بعيد لم أسافر عبر سكة الحديد، وفي الطريق غمرتني ذكريات سنوات الدراسة.

---

(1) Vignette- فرنسية تعني الرسم التزييني في الكتاب.

ومن **بايكانور** سافرت بالقطار إلى **موسكو**، مروراً **بساراتوف**. وفجأة، وبينما كنت أقف في النافذة، وأنا أتفرج على المشاهد المحيطة ــ علماً أنني أحب كثيراً السفر، والتفرج على المناظر، هكذا أنا عاطفي، فما العمل ــ تدحرج الماضي مداً بحرياً على شاطئ قلبي، ولقد تبين أن كل ما غمر روحي الآن كان يعيش فيَّ كل هذا الوقت، وينتظر ساعته، ما الذي كان، وما الذي يجري على سكة الحديد هذه، في القطارات إياها، التي تمر في الأماكن نفسها، عبر السهوب إلى موسكو مروراً بكازاخستان وسارا توف؟ ــ هذا ما خطر لي من شدة الشوق، الطريق هي نفسها، والقطارات الذاهبة والآيبة هي نفسها، والوجهة ما تزال على حالها: الغرب ــ الشرق. لكن ما الذي حدث للناس هنا، وأية تحولات طرأت على المصائر البشرية؟ وتراءت أمامي أحداث السنوات المنصرمة، كأنها فلم، تم تصويره من الفضاء الكوني: لقد تم القضاء على بحر آرال، القلب ينفطر لذلك ــ لكنهم بالمقابل جهزوا مركز بايكانور الفضائي.. وبين هذين الحدثين كم هناك من أحداث، وحينها قطعت على نفسي عهداً أن أكتب ما قدر لي أن أسمعه في تلك السنوات، التي أصبحت بعيدة وأنا في الطريق، على لسان **سيرجي نيقولايفيتش**، أحد مشوهي كتيبة العقاب السابقة، والذي يطلق عليه وأمثاله اليوم اسم «مشوهو الحرب الوطنية العظمى». وهو في القصة يحمل اسم سيرجي، أما أنا فقد كنت آنذاك طالباً، رفيقه في السفر. وحسب العادات لدينا فقد كنت أحترمه لكبر سنه إذ كان بعمر جدي، ها أنا عدت إلى الاستطراد، والوقت لدينا ضيق. يقطع القطار المسافة بين ساراتوف، حيث ركب سيرجي نيقولايفيتش قطارنا، وموسكو في يومين، ولذا فقد جاءت القصة طويلة، وفيما بعد في موسكو، ساعدته في الوصول إلى المستشفى، لكنني لم أفكر بكتابة قصة «تقتل أو لا تقتل» إلا بعد عشر سنوات. لم يعد سيرجي نيقولايفيتش أقصد سيرجي، على قيد الحياة، لقد قمت بالاستعلام عن ذلك. إنه لأمر مؤسف جداً، وحين ألفت، والأصح،

حين أعدت صياغة ما أراد سيرجي نيقولايفيتش أن يطلعني عليه، أدركت أن هذا الشيء يجب أن يتلى في المقابر الجبهوية، ثم إن لك علاقة ما بهذه القصة، هل يدهشك ذلك؟ والواقع أنني أنا وأنت وهذه القصة ــ كل هذا يجري على طريق واحدة، تربط بين الشرق والغرب، على الطريق إلى موسكو، عبر ساراتوف، فسيرجي سافر إلى الجبهة على هذه الطريق، وأنا كنت أسافر عليها إلى المدينتين الروسيتين الأكبر ــ موسكو ولينينغراد للدراسة، وأنت الآن تروحين وتجيئين عليها، في رحلاتك ذهاباً وإياباً، على متن القطار نفسه. وثمة شيء ما يربط بيننا: أُوْيْ، أوقفيني، أوقفيني يا إليس. الوقت، لكن الشيء المهم الذي أريد أن أوضحه لك، والذي من أجله اندفعت في أعقابك ــ قد يبدو أنه كان بالإمكان تأجيله، واطلاعك عليه بهدوء في المرة القادمة، لكنني لا أستطيع الانتظار ــ يتعلق بك يا إليس، بلقائنا، أقول لك فوراً: إنك أنقذتني، إنك، وأنت تجهلين ما يجري لي، قد أنقذت روحي، ففي ربيع هذا العام كنت أنوي نشر «تقتل أو لا تقتل»، كان بودي أن أقول رأيي بالطبيعة الأبدية للحرب، وبالطبيعة الأبدية للإنسان. إن أية حرب هي من صنع بني البشر، وأية حرب مأساة لكل شخص يتعرف فيها على هذه الحقيقة البسيطة.. حول هذا أردت الحديث في قصتي، لكن ثمة شيئاً ما حدث في حياتي، جعلني أنا نفسي، حتى في أيامنا هذه، أهم بارتكاب جريمة قتل فظيعة، وكان من شأنها أن تكون ليس مجرد واحدة من الجرائم التي لا يحصى لها عدد، بل وكفراً، لا مثيل له من جانب مؤلف هذه القصة، وزندقة: في مؤلفاتك تكتب شيئاً، لكنك تتصرف في الواقع على نحو مختلف تماماً.. ولهذا فقد أجلت، خبأت «تقتل أو لا تقتل»، لكي لا يعذبني ضميري، وأنا الآن أشعر بالخجل، فبجريمة القتل كنت سأغتال فكرتي الشخصية، ولكن القدر رأف بي ــ وأنت يا إليس من خلصني من العزم على اقتراف جريمة القتل، لأن حبنا شكل بالنسبة لي إلهاماً. إنني من جديد حر وبريء أمام نفسي، وأنت من جلب هذا

التحرر، لن أرتكب اليوم أبداً ما كنت أعتبره حتى البارحة بهوس، انتقاماً عادلاً لا رجعة عنه.

عن هذا أردت أن أحدثك، بقدر ما يسعفني الوقت، وشيء آخر: لقد حدث لي انقلاب بعد لقائنا، وهنا خطر لي: كم نحن بحاجة إلى التلاقي الروحي، إلى التعبير الحميمي عن كل ما تراكم في دخيلتنا. من نوع أردت قوله في «تقتل أو لا تقتل»، يجب أن يُقْرأ اعتراف سيرجي هذا في جو من الهدوء والطمأنينة، بعيداً عن مشاغل الحياة، بحيث تسمع أرواح الموتى وتقتنع بما لا تتسع الحياة دائماً لمعرفته، والأكثر من هذا يجب أن تكون لدى كل إنسان صلاته المكنونة الخاصة به، إن صلاتي هي في نص هذه القصة، وإذا ما تبين أنها قريبة إليك، فتعالي نلتقي، ونتقاسم الأحاسيس المشتركة. وهذا هو الأهم في الحب.. لقد سجلت في مفكرتي ــ بودي أن تتم القراءات الأولى في مقبرة فولوكلام[1] الشهيرة في ضواحي موسكو، وفي حصن بريست[2]، ومن ثم في العديد من الأماكن الأخرى، بما في أوروبا.

اعذريني يا إليس فأنا كثير الكلام. لكن لحظة السعادة هي القصيرة، أما الحب فهو الاكتشاف الاستثنائي لاثنين قبل نداء الأبدية. إنني الآن في الجبال، ومع هذا كله فأنا أتحدث إليك، وكأننا جالسان معاً في قمرة واحدة. إنه وهم طبعاً، وهاك ما يؤكد ذلك ــ ها هو ذا فارس قادم نحو محطتنا، لابد أنه من مطاردي تاشتان أفغان.. حسن، لقد آن أوان العمل، إلى اللقاء يا إليس، إلى اللقاء.

---

[1] نسبة إلى المعركة التي دارت رحاها في ضواحي موسكو في نهاية عام ١٩٤١ والتي انتهت باندحار الألمان، وفشل هجومهم على موسكو.

[2] حصن بريست: على حدود الاتحاد السوفيتي الغربية، قاومت حاميته الهجوم النازي، واستبسلت في المقاومة.

كان الفارس هو الأشعث، من مجموعة المطاردين، وبعد أن أومأ برأسه الكث الشعر، محيياً الضيفين، قال مخاطباً الشيف بيكتور: لقد أرسله تاشتان أفغان، وطلب منه إبلاغهم أنه تم رصد قطيعين من أسر النمور الرقط، وأن بالإمكان رؤيتهما بالمناظير، كما أن النمر الضخم «أبو الرأس الكبير والذيل الطويل» تحت السيطرة، ويمكن إرغامه على السير في الاتجاه المطلوب، لكن تاشتان أفغان يطلب الى الرئيس أن يأتي المترجم أرسين إليه أولاً، فهو يريد أن يشرح له ما يجب عمله لكي يتم اختيار المكان المناسب لإطلاق النار على النمر الكبير، الموجود في الخمائل.

إن من الصعب شرح ذلك بالكلام. ومن الأفضل أن يقترب من المكان، ويراه بنفسه. ومن ثم يوجه الضيفين الصيادين. وقد وافق الشيف بيكتور على ذلك.

ـ اسمع يا أرسين، أوْضِح للضيفين أنك ستلتقي المطاردين الآن، قبيل بداية الصيد، الوحش ماكر، وحيد، يمكن أن ينقض، ويهرب عبر الأجمات، دعهم يدلونك ميدانياً على الطريقة والمكان الأنسب للاقتراب منه.

وبكل طيبة خاطر، وافق الضيفان على الانتظار.

انطلق الأشعث في المقدمة، ومن ورائه أرسين سامانتشين على فرسه أيضاً، وقد تبين أن الطريق بين الكتل الصخرية والأجمات في غاية الوعورة، وبعد لأي وصلا إلى الشق، وفي الأعالي كان يحوم سرب من الطيور، والصمت المطبق يضرب أطنابه في كل مكان. وأخذ الأشعث الميكرافون بيديه وصاح:

ـ نحن في المكان المطلوب يا تاشتان أفغان، هل تسمعني؟ لقد أصبحنا هنا.

ورد ذاك الميغرافون أيضاً.

ـ وأنا هنا أيضاً، لحظة. هم أرسين أن يترجل، لكي يأخذ قسطاً من الراحة، لكن الأشعث أوقفه:

ـ ابقَ جالساً، ما الداعي للترجل؟ ها هو ذا تاشتان أفغان، قد وصل.

ومن خلف الأجمة الجانبية ظهر تاشتان أفغان، على صهوة جواده، ومكبر الصوت المتدلي من عنقه يتأرجح على صدره، والبندقية الرشاشة على كتفه وـ يا للهول ـ في السيدارة العسكرية، الضيقة جداً على رأسه وانعقد لسان أرسين، أما تاشتان أفغان فقال بعد أن سوى السيدارة.

ـ لا تحملق! نحن جميعاً على أتم الاستعداد، نحن الخمسة، ومزودون بالرشاشات، فإما أن يسلمونا الفدية، عشرين مليوناً، وإما لقي الجميع حتفهم، جميع الموجودين هنا، ولن تكتب الحياة لأحد، فلن نرحم أحداً. ما لك ساكت؟

ـ وماذا يمكن أن أقول؟ ـ رد أرسين سامانتشين بصعوبة ـ لكنك وعدت بقولك: لا تقلق، فكل شيء سيكون على ما يرام.

ـ هذا هو النظام عندنا، والآن هيا إلى التنفيذ، التفت إلى هناك، انظر، ها هي مغارة مولوتاش، تلك التي حدثتك عنها، إنها ملغومة، وإلى هنا سوف نسوق الثريين، أما أنت فسوف تترجم لهما إلى الإنكليزية كل ما أقول، كل كلمة. إن العولمة تسري على الجميع، فلا

يخطرن لهما ببال أنها قصر عليهما. لسوف نأخذ حصتنا، هاك انظر، إنه مدخل المغارة، ترجل عن الجواد، وادخل، المكان رحب ولسوف تمكث الرهينتان يوماً واحداً بالضبط، وإن لم تدفع الفدية، فلن تكون هناك ذرة رحمة. لما أنت ساكت؟ هل أنت مشدوه؟ لكنني سبق وحذرتك، وهل كنت تريد أن أذوب كما السكرة؟ لا تنتظر ذلك، أراك ساكتاً. إنني أسألك هل ستنفذ أمري على جناح السرعة، أم لا؟

همَّ أرسين سامانتشين، الذي كان قد ترجل، أن يضع رجله في الركاب من جديد، لكن تاشتان أفغان انتهره:

ـ قف، اسمعني أولاً، سوف تأتي بهما إلى هنا، فنجردهما من السلاح، ونُزْرِبهما في المغارة. سوف يكون الحديث صارماً. والرشاش ملتصق بالقذال، وبأمر مني توعز لهما أن يتصلا عبر أقمارهما الاصطناعية بالمصارف الكويتية، الإماراتية.. أو غيرها، لكي يرسلوا فديتنا بالطائرة إلى هنا، على جناح السرعة، يجب أن تنطبع كل كلمة من الأولتيماتوم في رأسيهما، وسوف تترجم لي كل ما يقولان، كل كلمة، واضح؟ وإن رفضت أصبحت أسيرنا، وكانت نهايتك ونهايتهما.

ـ لا تستعجل ـ أخيراً نطق أرسين سامانتشين وهو يدرك أن لا جدوى من محاولة إقناع هذا الإنسان الذي أصبح وحشاً ـ إذا كان هذا ما قررته فيجب أن تعرف أنه إذا ما أريقت قطرة دم واحدة، فإنني لن أتورع عن القيام بأي شيء.

ـ لا تهددني، فأنا نفسي لا أريد إراقة الدماء، عشرون مليوناً، ويذهبان سالميْن. هذا وعد مني، نفذ، أعطيك عشرين دقيقة كحد أقصى، لا تزيد ثانية واحدة، إجلبهما إلى هنا، بحجة لقاء المطاردين،

وفي حال حدوث أي شيء سوف نطلق النار عليهما، فليس لدينا ما نخسره، وتذكر: ستأتي بهما وحدهما فقط، بالضيفين، بحجة صيد النمر الأرقط، أخبرهما أنه هنا، في الكمين، وأننا رصدنا نموراً أخرى، لكن تلك فيما بعد، أما الآخرون فليبقوا جميعهم بالانتظار هناك، واضح؟ نفذ.

ـ حاضر ـ تمتم أرسين سامانتشين، وألقى نظرة خاطفة على سيدارة تاشتان أفغان، لو لم تكن موجودة على رأس ابن صفه السابق، إذن لاتخذ كل شيء مجرى آخر، ثم أطلق زفرة عميقة، وامتطى صهوة حصانه بصمت، وبعدها قفل عائداً إلى المكان، الذي جاء منه للتو.

حلت فترة صمت مطبق، ودون أن يلتفت، ابتعد أرسين سامانتشين صامتاً، مطرقاً، منقبض النفس على صهوة جواده، لكي يعود بالضيفين ـ الصيادين إلى المغارة، فيسلمهما، ويسلم نفسه. لم يكن يسمع سوى خرير الجداول المندفعة نحو الأسفل، ومرت بعض الطيور فوق رأسه بصمت، وكان الجواد يسير عبر الحواجز، التي تعترضه بحذر. باتجاه المخيم، لم يكن قد بقي إلا مسافة قصيرة جداً حين أوقف أرسين الجواد بعنف في الأجمة الواقعة وراء الصخرة. ثم رفع جسمه في الركاب، وراح يتلفت من حوله. بعد ذلك انتزع الميكرفون، المعلق على كتفه اليمنى، ووضع الرشاش «كالاش»[1] على قربوس السرج، واستعد لشيء ما على ما يبدو. وإن هي إلاّ ثوانٍ معدودات حتى تردد فوق الجبال صوت أرسين سامانتشين اليائس، عبر الميغرفون كان يصرخ بعنف مهدداً متوعداً، تارة بالإنكليزية وأخرى بالروسية والقرغيزية:

---

[1] كالاش: أي كلاشينكوف.

أصغوا لأوامري وعوا أيها الصيادون الأجانب الدخلاء! ألا فلتنزل عليكم اللعنات ــ كان مكبر الصوت يردد كلماته عبر الجبال بصدى متعدد ــ ارفعوا أيديكم عن نمورنا الرقط الثلجية! اخرجوا من هنا فوراً وعودوا من حيث أتيتم، لن أسمح لكم بتدمير وحوشنا. عودوا إلى بلدكم، ابتعدوا عن جبالنا المقدسة وحذار أن تطأ أقدامكم هذا المكان بعد الآن. اغربوا من هنا فوراً، وإلا كانت نهايتكم على يدي، سوف أرميكم بالرصاص جميعاً ــ وهنا دعم كلامه برشقة من الرشاش في الهواء، فتردد هزيم الرعد في الجبال، ومن على أحد السفوح تدحرجت الأحجار، وللحال لعلع الرصاص من جهات مختلفة. وكانت لعلعة الرصاص قد أربكت جواد أرسين، الذي اندفع، ثم لم يلبث أن سقط، وقد أصيب بجرح قاتل، بصعوبة استطاع أرسين الزحف من تحت كفل الفرس، وقد تأذت ساقاه. كان تبادل إطلاق النار يزداد قوة، فقد راح الجميع يطلقون النار كالمجانين. جماعة تاشتان أفغان وحراس الضيفين، وجماعة بيكتور، ولم يعرف أرسين أبداً أن الضيفين انتهزا هذا الهرج والمرج، فقفزا إلى صهوتي جواديهما، ووليا الأدبار.

أدرك أرسين، وهو يرقد إلى جانب الجواد القتيل، أنه أصيب بجروح عدة دفعة واحدة. فكان يشعر بألم لا يطاق في كتفه وصدره وأسفل ظهره، فبذل قصارى جهده كي لا يتدحرج نحو الأسفل عبر السفح، ويبتعد قليلاً عن الحافة، وفي هذه اللحظة تراءى أمامه على حين غرة نمر أرقط ضخم، مضرج بالدم، إنه جابارس. زأر الوحش وانطلق مبتعداً وهو منحن على الأرض، جاراً ساقه المصابة.

تراقصت الشمس فوق رأس أرسين، وتمايلت الجبال، وبدأت الرياح الخانقة تضغط على حنجرته، وهنا قذف بالميكرافون والبندقية الآلية بعيداً، وراح يحاول الزحف في الاتجاه الذي اختفى فيه الوحش. لم

يكن يرَ ولا يعرف ما الذي يجري من حوله ولا كيف أوسعه تاشتان أفغان الهائج سباً وشتماً: «حقير، خائن، ليتك تنفق، ليتك تختنق بجسدك» ولا كيف سقط العجوز بيكتور على الأرض، وراح ينتف لحيته، وهو يصرخ بأعلى صوته: «يا للعار، يا للعار، الذي حط على رؤوسنا، ألا لتلعنك الآلهة والأسلاف»، أما ما كان يصرخ به الضيفان الصيادان الهاربان بالعربية، فهذا ما لم يفهمه أحد في هذه الأنحاء.

بالتدريج راح إطلاق الرصاص الطائش يخف. ولم تلبث الصيحات أن توقفت هي الأخرى.

لو عرف أرسين سامانتشين ما الذي صنعه في لحظة واحدة للناس وللوحوش.. لكن ليس هذا ما كان يشغل باله الآن، كانت الجروح جدية كما تبين، وكان يشعر بذلك، وكان يشعر بألم لا يطاق خاصة في صدره، وكانت كل ثيابه ملطخة بالدم. إنه يدرك أنه لن يستطيع الصمود طويلاً، وأراد أن يختبئ في مكان ما. سار متمايلاً وسقط أكثر من مرة ونهض، وهو على آخر رمق. ولحسن الحظ أنه لم ينسَ الجهة، التي تقع فيها مغارة مولوتاش، وإلى هناك وصل أرسين سامانتشين أخيراً، وزحف على ركبتيه إلى الداخل. وهنا رأى عيني النمر الثلجي الضخم، وهما تخبوان ببطء إنه جابارس. لم يحرك الوحش ساكناً، حتى أنه لم يحاول أن يرفع رأسه عن يديه الممدودتين إلى الأمام. لقد ظل راقداً، وقد أسند رأسه عليهما، وهو يتنفس بصعوبة وبصوت أبح.

ـ وأنت هنا ايضاً؟ ـ قال أرسين للوحش لسبب ما، كأنهما صاحبان.

كان الجابارس ينزف دماً. والمصير نفسه أحاق بالإنسان أيضاً.

بمشيئة القدر وجدا نفسيهما، الإنسان والوحش، في ساعتهما الأخيرة، في الجبال التي تلامس السماء، في مغارة، جنباً إلى جنب. وهنا تردد هزيم الرعد فوق الجبال، وتردد صدىً، كأنه يسأل بدهشة: ما هذا الذي يحدث؟ وبالدهشة نفسها راحت البروق تومض وسط الغيوم..

حين انتقل الضيفان ـ الصيادان من على متن جواديهما إلى السيارة.. واندفعا إلى الآيل على عجل، ثم غادرا بلا وداع أحد، في سيارتهما الـ «همر» برفقة موكبهما إلى مطار أولياتي، حيث تقف طائرتهما الجاهزة، حينها اتضح كل شيء.

ففي لحظة واحدة هوت شركة «ميرغين» الدولية لـ (بيزنس) الصيد من عليائها إلى الحضيض، ولم يكن بوسع أحد أن يصدق أن الذي سبب فشل هذا المشروع، (البيزنس) إن هو إلا ابن أخ بيكتور ـ آغا بالذات.

اجتمع سكان تويوك جار، الذين تقاطروا من بيوتهم، في جمهرة صاخبة وهم يصيحون:

ـ يا للعار، لعنة حطت على رؤوسنا.

ـ إن شنق أرسين قليل، يجب أن يحرق.

ـ قضى على مثل هذا الشغل، لم يدعنا نكسب ولو قليلاً.

ـ إن الوحوش أغلى عنده من الناس ـ إذن فلتفترسه النمور الرقط نفسها.

وراحت الهستيريا العفوية تزداد تفاقماً، وحينها اندفعت غوغاء العامة الهائجة نحو بيت شقيقة أرسين سامانتشين، وراحت وهي في ذروة الغضب والحقد، تصب جام غضبها على كل ما صادفته في ساحة البيت. فكسرت زجاج وأضواء سيارة أرسين «النيفا»، ومزقت قمصانه وسترته المعلقة على حبال الغسيل. أما أخته التي حاولت أن تخبئ كمبيوتره المحمول فقد أُوْسِعَت ضرباً، والمصير نفسه أحاق بزوجها الحداد، الذي جاء من عمله على عجل للدفاع عنها.

وحده المطر الذي هطل بغزارة فجأة والعاصفة الرعدية القوية أوقفا الفوضى، وأرغما الغوغاء على التفرق.

أما الرعد فقد راح يزلزل المنطقة، وراحت البروق تومض في السماء واحداً إثر آخر، وامتلأت الشقوق والمغاور الجبلية بالأمطار التي استمرت في الهطول.

وكما لو أن قلبها حدثها بوقوع مكروه، فقد اتصلت إليس قبيل المساء من المحطة بأختها في تويوك ـ جار، وكانت قد تركت هاتفها الخليوي لديها، قائلة: فليبق عندك، أما أنا فسأتصل من هواتف زميلاتي عند الضرورة. لم يسبق لها أن فعلت ذلك من قبل، أما في هذه المرة فلسبب ما أرادت أن تبقى على اتصال دائم وهكذا، وقبيل نصف ساعة من موعد السفر، قررت أن تعرف كيف الأحوال لديهم، وفي الوقت نفسه أن تعرف عما إذا كانت ثمة أنباء من الجبال. لكنها لم تكد تنطق بكلمة واحدة، حتى جاءها صياح أختها الهستيري:

الآيل كله على قدم وساق. لو تعرفين ما الذي فعله أرسينك، فقد راح يصيح هناك في الجبال عبر مكبر الصوت: «ارفعوا أيديكم عن نمورنا الرقط، ارحلوا عنا، وقد طرد القادمين، لا بل وأطلق النار

عليهما، وراح الجميع من حوله يطلق النار، رداً على ذلك، أما بيكتور آغا فراح يضرب رأسه بالأحجار والآيل كله الآن مشغول بتدمير بيت أخت أرسين. أما أرسين نفسه فقد اختفى في مكان ما، ويقال إنه أصيب برصاصهم، أو أنه هو من أطلق النار على نفسه. هل تسمعينني يا إليس؟ ما لك ساكتة؟ ماذا بك؟ ألو، ردي عليَّ!»
وهنا أعولت أختها:

ـ يا لها من مصيبة! ما الذي سيحدث الآن؟ لقد أحببت هذا الأرسين
ـ فما العمل الآن؟

وراح زوجها يهدئها:

ـ هلا توقفت؟! فكري قليلاً، ما الفائدة من هذا الصراخ؟ حين تصل إليس سوف أرافقها إلى الجبال، إلى مولوتاش. وسنذهب معاً، إذا كنت تريدين. دعيها ترَ بأم عينيها، وتفهم ما الذي حصل، ولا داعي لأن تعذبي نفسك.

ـ أوْيْ ماذا أفعل؟ ما الذي ينتظرها؟.. وماذا عن الأولاد، إذا ما ذهبنا إلى مولوتاش.

ـ لا بأس، فهم في سن المراهقة، يمكن أن يبقوا لوحدهم يومين، يرعون القطيع، ثم إن الجيران سيهتمون بهم..

أصيبت زميلات إليس بالذهول حين اختطفت حقيبتها، وألقت بها على كتفها، ثم قالت: وهي تسبك كل كلمة:

ـ سافرن بدوني، ها كن وثائقي اللازمة في ساراتوف، أما أنا فسأعود إلى الآيل فوراً.

ـ وهل مات أحد؟

ـ بالكيم (ربما).

ـ وهل سنلتقي عندما نعود؟

ـ بالكيم (ربما).

ـ وماذا علينا أن نقول؟ هل ستأتين لأخذ أغراضك؟

ـ بالكيم (ربما).

ـ ماذا أصابك؟ أليس لديك شيء آخر تقولينه؟

ـ دعنني.. قلت لَكُنَّ سافرن بدوني، وكفى.

بعد هذه الكلمات انطلقت إليس تجري، لا تلوي على شيء، وهي تدفع الناس من أمامها، فكان المارة يبتعدون من طريقها..

* * *

آه لو عرفوا.. من كان بوسعه أن يعرف، من كان بوسعه أن يتصور أن مصيبتها، قد قطعت المسافات الشاسعة، وراحت تهطل في تلك اللحظة مع مطر العاصفة الرعدية الغزير على جبال أوزينغليش ستريمياني، حيث اختفى حبيبها، وأنها تجري الآن عبر الجبال.. مع العروس الخالدة.. «ساعديني يا عزيزتي، أرشديني، قولي لي إن كنت قد رأيته»:

في تلك الجبال النائية لم تهدأ العاصفة الرعدية حتى المساء. وظل صداها يُدَوي، ويتردد في كل مكان، واستمر وميض بروقها يضيء الشعاب والوديان بشكل يخطف البصر، وراح غبش المساء، الذي زاد المطر ثقلاً، يشتد بالتدريج. منذ عهد بعيد لم يسقط في ذلك الصيف مثل هذا المطر المتواصل، وبسببه كان الوضع في مغارة مولوتاش يزداد ظلمة وبرودة.

لكن هذا لم يعد يعني شيئاً بالنسبة لذينك الكائنين اللذين وجدا نفسيهما في تلك المغارة، سواء بالمصادفة، أو بمشيئة القدر. كانا اثنين في ملجئهما الأخير هذا: كائنان محتضران، واحد من بني البشر، وإلى وجواره واحد من وحوش البر. كلاهما أنهى درب حياته الأرضية بشكل مماثل ــ وأصيبا برصاصات طائشة، أو مصوبة ــ من كان يهتم الآن بمعرفة من أطلق النار على من، ولماذا؟ كل هذا لم يعد مهماً أبداً الآن، قبيل دقائق معدودة من انتقالهما إلى الأبدية.

كان الجابارس يختنق، وهو ينزف الدم، المتدفق من جروحه ببطء، وبلا توقف. كان لا يزال يرقد في الوضعية العاجزة نفسها. ملقياً رأسه الضخم على أماميتيه المبللتين. بينما كان ذيله الشهير ملقى على الأرض كشيء لا لزوم له، كسقط المتاع..

وكان أرسين سامانتشين يرقد إلى جواره، وقد أسند خاصرته إلى جذع النمر المحتضر. على هذا النحو كان الوضع مريحاً أكثر «ها قد التقيا، قبيل الفراق..».

كان البلل يزداد تحت خاصرة أرسين سامانتشين، فقد كانت التربة الصخرية تمتص دمه النازف. أما هو نفسه فكان لا يزال في وعيه، ويحاول قدر المستطاع. أن يحتفظ بالتفكير ــ نعمة الحياة الأخيرة.

فراح يفكر في مدى ذنبه في كل ما حدث. لكنه قبل كل شيء راح يودعها هي، إليس، إن كل ما قدر لهما من السعادة والحب قد زال بالقدر نفسه.

ـ وداعاً يا إليس. سامحيني على الأحلام، التي لم تتحقق.. إليس، سلاماً، سَلاماً لك.. وداعاً.. وداعاً.. لم أستطع.. إنني أدفع.. مذنب أنا..

كان ضميره يعذبه، وهو يتذكر الضيفين العربيين، اللذين أهانهما:

ـ مذنب أنا، اشتماني بأقذع الكلام، والعناني، لكن لم يكن لدي من مخرج آخر، على هذا النحو فقط كان بوسعي أن أحميكما من الخطر الداهم. سامحاني إن استطعتما..

وبعذاب أفظع وندم صادق راح يخاطب شقيق والده:

ـ وأنت يا بيكتور ـ آغا بيكي، إلعنّي، إلعنّي بلا شفقة، فلقد جلبت العار على العائلة، ودمرت شغلك. كيف يمكنني الآن أن أوضح، لم يكن أمامي من مخرج آخر؟ إنني أدرك أي أذىً جررت على رأسك. وكم سببت لك من ألم. لكن سامحني، لم أفعل ذلك بدافع الشر، ولا من باب الحماقة والحسد.. العمر المديد لك يا عماه، أما أخوك المرحوم أبي، فلسوف أشرح له الأمر في العالم الآخر..

تذكر: الأهل، شقيقته، كاديشا وزوجها الحداد. أية مصيبة جررت عليكما، مذنب أنا، فسامحاني.. لا تذكراني بالسوء..

وتذكر في النهاية أخاه أرداك:

ـ إنني أحتضر يا أرداك.. لا تتعذب من أجلي، فلديك من المشاغل الأخرى ما فيه الكفاية، رَبِّ أولادك، أما أنا فراحل، عقيماً، وهذا بدوره عقاب إلهي..

واعتذر أرسين سامانتشين من آيدانا أيضاً:

ـ اعذريني يا آيدانا لأنني آذيتك واحتقرتك بسبب نجوميتك المبتذلة. إنه أمر يخصك. كم كان بودي لو أنك ظهرت على خشبة المسرح الأوبرالي في دور العروس الخالدة. والآن ها هو القدر يريحك من لجاجتي وإلحاحي، أما هذا الإيرتاش كورتتشال، فلا تقولي له كلمة واحدة، سأقول له كل شيء بنفسي، قبيل الرحيل. إيرتاش، لقد كنت مذنباً بحقك حتى الأيام الأخيرة، وكنت أفكر بقتلك، إلى هذه الدرجة وصل كرهي وحقدي، ولم يكن ذلك بلا سبب، لكنني ندمت. لا تذكرني بسوء، وسامحني إن استطعت..

لكن الصعوبة الأكبر والمعاناة الأشد كانتا بانتظار أرسين سامانتشين المحتضر لدى التوجه إلى ابن صفه تاشتان أفغان. ماذا كان بوسعه أن يقول له؟ أن يدينه، ويُلعنه؟

ـ فلأكن الضحية التي قدمتها أنت، ولن يعرف أحدٌ بما كُنْتَ مستعداً للقيام به في توحشك الإجرامي. أنا المذنب، أمام نفسي، وليس أمامك، إذن فلأصبح ضحيتك وكفارتك، الله معك.

وأنتم يا أبناء جلدتي، سامحوني، فلقد حرمتكم من الكسب، وإن كان زهيداً. هذا ما جرى.. لا تسيئوا إلى ذكراي تغاضوا عما فعلت، لم يكن أمامي من خيار، كنت مرغماً على القيام بذلك.. لكن أحداً لن يعرف بذلك.. وداعاً.

كان النمر الأرقط الثلجي قد أصبح جثة هامدة، حين لفظ الإنسان أنفاسه الأخيرة في أعقابه.. لكنه، وهو يحتضر، وفي اللحظات الأخيرة من حياته، تناهى إليه صوت العروس الخالدة البعيد:

«أين أنت، أين أنت يا صيادي»؟ فهمس متلجلجاً: «وداعاً، فلن نلتقي وإياك بعد الآن..»

كان القمر يتعثر في دربه عبر غيوم الليل، والريح تعول وتولول بين الصخور. ولم يكن يسمع أي شيء آخر.

* * *

وفي الصباح في وقت أقرب إلى الظهيرة، ظهر في المكان نفسه، قرب مغارة مولوتاش، حيث جرت البارحة المأساة الفظيعة، ثلاثة على ظهور خيولهم ــ رجل، في الطليعة، ومن خلفه امرأتان. إنهما إليس وأختها مع زوجها. لقد جاءا بها إلى هنا كي ترى بأم عينها، وتقتنع: إن مصيبتها لا راد لها، وأن عليها حتماً أن ترضخ للأمر الواقع.

كان جورو زوج أخت إليس، يعرف هذه الأماكن جيداً. فحين كان يعمل مديراً لمزرعة تربية الأغنام، التابعة للكلخوز، عرج على هذا المكان أكثر من مرة، في طريقه إلى المراعي، ويعرف مغارة مولوتاش، ولذا فقد وصل مع إليس وأختها إلى هنا بسرعة. وكان أول ما رأياه على الرابية الجواد الأشهب الميت، والذي أمضى هنا قرابة يوم كامل، تحت المطر، وهذا ما جعله ينتفخ إلى حد أن حوافره انتصبت نحو الجهات الأربع، أما حزام السرج فقد تمزق من

فرط الضغط، فارتمى جانباً. وهنا أيضاً كان ميكرافون أرسين وبندقيته الآلية ملقيين على الأرض. قفز جورو من على صهوة حصانه، ثم رفع هذا وتلك عن الأرض بصمت. كان السلاح المتروك، والجواد القتيل يدلان على أن أرسين لا يمكن أن يكون في عداد الأحياء.

دخلوا المغارة تحت ثقل هاجس كئيب. كانت إليس ترتجف وتبكي، وأختها تسندها من ذراعها. صُعِقوا لما وقعت عليه عيونهم، وعُقلت ألسنتهم: ففي بركة الدم المتخثر كانت ترقد جثتان، إنسان ووحش بري ــ نمر أرقط ثلجي ضخم. كان رأس أرسين سامانتشين يستقر على بطن الجابارس. ركعت إليس على ركبتيها، وأجهشت بالبكاء، وهي تمسد يد أرسين الميتة:

بكت المرأة طويلاً أما الأخت فقد ألقت على رأس إليس منديل حداد أسود. وكان جورو لا يكف يخرج من المغارة، ويدخل إليها بانتظار أن تهدأ المرأتان.

وقالت إليس، وهي لا تكف عن النشيج، لأختها، الجالسة بجوارها:

ــ إنك يا كُمار بمثابة أمي، ولن أخفي عنك أنني قلت لأرسين من باب الطيش، إن بودي الخروج حاملة يافطة «ارفعوا أيديكم عن نمورنا الرقط»، على الرغم من أنني كنت أعرف أن هذا مستحيل في آيلنا. لم يقل حينذاك أرسين أي شيء، لكنه بالطبع تبنى كلماتي بروحه، وهاك النتيجة.. ما الذي جعلني أقول ذلك؟

ــ اهدئي يا إليس، فالأحباب يتحدثون عن أمور كثيرة فيما بينهم. هكذا أراد القدر. الأفضل أن نفكر كيف سندفنه.. فأهله لا يريدون

حتى أن يسمعوا عن دفنه، بعدما جرى، وليس من المعقول تركه هنا إلى الأبد، إلى جوار الوحش المقتول.

ــ أنت محقة، لكن كيف سأعيش بدون أرسين؟ كأننا عشنا كل حياتنا معاً. يقال إن، ثمة في روسيا أديرة نسائية، هذا ما سمعته في أثناء أسفاري، سوف أستفسر عن الأمر، وأدخل الدير، حيث سأصلي إلى الله من أجله ليلاً ونهاراً، وإن كنت لست بالمؤمنة، ولن يحول بيني وبين ذلك حائل، إلا في حالة واحدة ــ إذا ما أغدق عليّ القدر السعادة، إذا ما أنجبت ولداً..

ــ أرجو الله، وهل أنت على ثقة؟

ــ هذا ما أنتظره لسبب ما. لقد رأيت ذلك في الحلم.. وإن لم يكن فسوف أدفن نفسي في الدير إلى الأبد.

في هذا الوقت تردد فوق الجبال هدير قوي، وراح يزداد قوة، عندها خرجوا من المغارة، ووقفوا يراقبون حوامة، كانت تطير على امتداد الوادي، بين الذرى الشاهقة. وهنا بدأت الخيول المربوطة تضطرب، مما اضطر جورو إلى الإمساك بأعنتها كي تهدأ. دارت الحوامة دورة ودورة، ثم رحلت، وحين ابتعد الهدير قال جورو، مفكراً:

ــ أعتقد أن الحوامة لم تأت إلى هنا من باب المصادفة، فالطيران في الجبال محفوف بالخطر، لابد أن الأخبار كما حدث هنا وصلت إلى مركز المنطقة. أما زوجته فأضافت:

ــ هذا شأنهم، أما نحن فلدينا همومنا. للتو كنا نفكر أنا وإليس كيف ندفن أرسين، فماذا تقول أنت يا جورو؟

ـ ماذا أقول؟ لا داعي حتى للتفكير. لابد من دفنه وبأسرع وقت: إنما حتى الآن لم ينطق أي من ذويه، أو جيرانه بكلمة واحدة عن الدفن، وبدلاً من ذلك لا يكفون عن الشتم. والصراخ وصب اللعنات. لكن إلى متى يمكن أن يستمر هذا؟ إن نقل الجثمان إلى مقبرة الآيل الكبرى عبر الدروب الجبلية، ليس بالأمر السهل، ففي بعض الأماكن لابد من حمل الجثمان على نقالة، وهذا يتطلب وجود أشخاص عدّة.

وهنا توصل جورو إلى استنتاج مفاده أنه لابد بهذا الشكل أو ذاك من حل المسألة مع أهله وأقاربه. صحيح أنهم جميعاً في غاية السخط والاستياء مما حدث بسبب أرسين سامانتشين، لكن حتى المجرمين العتاة يوارون الثرى. وأضاف جورو:

ـ لابد من التفكير، ولنذهب الآن إلى الداخل، فبودي أن أؤدي الصلاة على روح المرحوم أرسين. صحيح أنني لست مُلاًّ، لكن لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

ومن جديد دخلوا، ثلاثتهم، إلى المغارة، وجلسوا قرب الميت، وهم صامتون. أما جورو فقد بسط كفيه، وراح يصلي، وهو يتمتم بشيء ما باللغة العربية، على الرغم من أنه، مثله مثل الجميع هنا، لا يفقه كلمة واحدة في لغة الشعائر هذه، لكن العادة تبقى عادة.

وفي أثناء هذه الصلاة المرتجلة قالت إليس بينها وبين نفسها: لحسن الحظ أن أختها وزوج أختها أبديا مثل هذا التفاهم والتعاطف، وإلا لما كان إلى جانبها أحد، ولبقي الميت راقداً في وحدة تامة ونسيان مطبق وكما لو أن الأمر بدا وكأنه جواب على تأملاتها المريرة، فقد تناهى من الخارج وقع حوافر وأصوات بشرية.

دخل المغارة خمسة أشخاص، تاشتان أفغان وزملاؤه. لم يجلسوا، كما يقتضي الأمر، بل وقفوا صامتين، متجهمين، بانتظار أن تنتهي الصلاة، ولم تكد الصلاة تنته، حتى قال تاشتان أفغان بصرامة: علينا أن نقول لكم أن مغارة مولوتاش ملغومة، وعليكم أن تغادروها الآن حالاً، لأننا سنفجرها، فعجلوا.

لكن جورو اعترض:

ـ ما الداعي لتفجيرها؟ فهنا يوجد أرسين سامانتشين، المقتول ولابد من دفنه.

ـ هذا ليس من شأننا. إن علينا أن نفجر المغارة، وسوف تبقى الجثة تحت الأنقاض. هذا يعني أنها ستدفن. وهنا اعترضت كُمار باستياء:

ـ هذا ليس دفناً، إنني كامرأة أقول لكم: فكروا بالدفن أولاً، وبعدها بالتفجير. نحن جميعاً زائلون، ومن المفروض أن يدفن جميع بني البشر، بمن فيهم أنتم، حين يحل أجلهم، وفق العادات البشرية.

ـ لست من يعلمنا. إن مهمتنا هي تفجير مغارة مولوتاش، ولهذا السبب جئنا إلى هنا. نمهلكم نصف ساعة.

وهنا أزاحت إليس المنديل الأسود عن وجهها، وقالت:

ـ «إياكم أن تفعلوا هذا، إياكم أن تسخروا من موت الإنسان، ولسوف تدفعون غالياً ثمن مثل هذا التجديف. لن أسمح لكم، لا يحق لكم أن تدمروا جسد إنسان قتيل، وتحرقوه. من حقه الطبيعي في أن يوارى الثرى».

ومن تكونين أنت؟ ــ صرخ تاشتان أفغان بحنق، وهو بالكاد يسيطر على نفسه.

لكن من أين لإليس أن تعرف بالهزيمة الماحقة، التي أحاقت به هنا البارحة، وأنه الآن مفعم بالرغبة السادية في الانتقام الوحشي من جثمان ابن صفه.

ــ من أكون أنا؟ ليس الوقت الآن مناسباً للرد عليك. ها هو ذا الإنسان القتيل يرقد أمامكم، أما أنا فإنني تلك المستعدة للموت، والآن. اقتلوني، وحينها فجروا. إنني مستعدة، هيا، فجروا الآن مباشرة كي أبقى وإياه تحت الأنقاض إلى الأبد.

من الصعب التكهن بما كان يمكن أن ينتهي إليه هذا المشهد الوحشي، لو لم يُعثَر على المخرج، بفضل فطنة جورو.

ــ إسمع يا تاشتان أفغان، لا يجوز الحديث على هذا النحو مع النساء، وهي في مثل هذا الوضع العصيب، كذلك لا يجوز الجدل على هذا النحو أمام شخص ميت، دعونا نخرج، ونتحدث ونتشاور حول ما يجب القيام به، أما تفجير المغارة، فيمكن أن يتم في أي وقت.

وهكذا فقد خرجوا، ولفترة طويلة راحوا يتجادلون ويصخبون في الخارج.

وحين بقيت المرأتان لدى الجثمان وحيدتين من جديد، قالت كمار، وهي تسوي المنديل الأسود على رأس أختها: لا تبكي يا أختاه فروح الميت تسمع كل شيء. لقد قلتِ ما في قلبك، ولسوف ترتاح روح

أرسين، أما ما الذي سيحدث لاحقاً فاتركي البت فيه للرجال. أُوْيْ يا لها من مصيبة، يا لها من مصيبة..

وردت إليس:

ـ شكراً لك يا كُمار، يا شقيقتي العزيزة، إنك فعلاً بمثابة الأم بالنسبة لي، وها أنا الآن أفكر: ترى ما السبب وراء هذا التحول الحاد في مصير أرسين، فلقد كان إنساناً بالغ الذكاء، وفي منتهى الإنصاف. مذ كنت فتاة مراهقة، وأنا أقرأ كل ما يكتب في الصحف، وأستمع إلى برامجه التلفزيونية، وأي حب ذاك الذي كان بيننا، إنه يكفي لحياتين، وهاك النهاية: قضى بجوار نمر أرقط جبار. في مغارة، والأفظع من ذلك أن الناس الوحوش يريدون أن يمحوا حتى ذكراه عن وجه البسيطة بدفنه في المغارة تحت الأنقاض. فماذا يعني هذا؟ هل هذا يرفع من شأنه، أم يحط منه؟.. لكني الآن أراه قديساً.. همي ورجائي أن نرزق بولد، صبياً كان أم بنتاً، يحيي ذكره، ويخلد اسمه.

عاد جورو إلى داخل المغارة، وهو في منتهى القلق، وأوضح أنه لم يتمكن من إقناع تاشتان أفغان، الذي أمهلهم حتى الصباح، قائلاً إنه سيتشاور مع الشيف بيكتور غان بهذا الخصوص، وإنه لابد من الانتظار حتى الصباح، حيث سيعود بالقرار النهائي..

أمضت إليس الليل جالسة قرب النار، وهي لا تزال تفكر بالأمر نفسه: هل سيقدر لها أن تذهب في المناسبات إلى المقبرة، لتزور قبر أرسين، وهي تقود ولدهما من يده؟

وحين تناهت إلى سمعها صيحات العروس الخالدة، الآتية من الجبال النائية: «أين أنتَ، أين أنتَ: رُدَّ عليَّ يا صيادي»، ردت عليها همساً «إنني أسمعك أيتها العروس الخالدة، ها أنا ذي صرت مثلك تماماً».

في الصباح تبدلت الأمور. يبدو أن الندم لا يأتي فوراً، وأن طريقه صعب، عبر التغلب الأبدي على الشر، الكامن في النفس البشرية، وليس بالأمر السهل أن يسمع الإنسان غير الكامل نداء البشرية على مر العصور والأجيال إلى الخير.

جاء تاشتان أفغان، وجلب معه النقالة والأقمطة اللازمة لجثمان الميت. كان لابد من نقله إلى نهاية الوادي، حيث بيكتور بالانتظار مع السيارات، وهذا يعني أن تفجير مغارة مولوتاش قد تأجل، أو أُلغي. أما بخصوص جثة النمر الأرقط فقد أوعز الشيف بيكتور بأن تطمر في المكان نفسه، في الجبال.

سارت إليس، الأرملة غير الشرعية، في منديل أسود، خلف النقالة، ومن ورائها أختها كُمار مع زوجها جورو، وهو يمسك بأعنة الجياد الثلاثة.

ولم يكن بوسع أحد أن يعرف ما الذي كان يجري في دخيلة تاشتان أفغان، الذي سار في أعقابهم، وهو يرتدي الحداد أيضاً. يُقال أنه كان يذرف الدموع في سيره. وأنه رفع عن رأسه سيدارته العسكرية، العزيزة عليه جداً، وقذف بها بعيداً عبر المنحدر.

أما إليس، فظلت تكرر في سيرها: «أسمعك، أسمعكِ أيتها العروس الخالدة سوف أعود فيما بعد، وأعثر عليك، ونبكي معاً، انتظريني قريباً سأعود..».

في تلك الأيام راجت إشاعة، يصعب تصديقها. أشيع أن اثنين من رجال تاشتان أفغان عادا إلى مغارة مولوتاش، لكي يجرا جثة «ذو الرأس الكبير والذيل الطويل»، ليطمراها في مكان قريب في الجوار، لكنهما لم يعثرا للجابارس على أثر في المغارة. لقد اختفى الجابارس،

اختفى بلا أثر.. وفيما بعد، كثيراً ما قيل أنه صار شبحاً، وراح يضرب في الجبال، صحيح أن أحداً لم يره أبداً، لكن كثيرين رأوا آثاره على الثلج، وهي آثار ضخمة، كما كانت في السابق. ولا يزال الجابارس يحب الخوض في الكثبان الثلجية فعلى هذا فطر..

بدلاً من الخاتمــة

«تقتل أو لا تقتل»..

/قصة قصيرة/

(الشمس وحدها تبقى غير مضرجة بالدم

ويفر الحصان بدون فارسه)

ــ نبوءة غجرية ــ

أرسين سامانتشين

/الناشر: إليس جابارسوفا/

ألقى الطيار، وهو يحاول إخراج طائرته من منطقة نيران المضادات الكثيفة، نظرة نحو الأسفل لكي يتأكد من مدى نجاحه في الابتعاد عن المرمى. وفي الأسفل امتدت الغابة الخضراء ـ الرمادية الكثيفة التي بدت، وكأنها قد مالت على جانبها، مع ميل طائرته، بدا وكأن الغابة تنقلب بالتدريج وراحت توشك على السقوط في هاوية لا قرار لها، وفي اللحظة التالية استوت المقاتلة في طيرانها، وللحال عادت الغابة إلى مكانها الثابت، وتماهت مع الأفق الدخاني النائي. واكتسب العالم ملامحه العادية. ولم يكد الطيار يلتقط أنفاسه حتى ظهر أمام الطائرة في اللحظة التالية شيء ما مفاجئ، ظهر بشكل مباغت، إلى حد أن الطيار لم يجد الوقت الكافي ليتصور بماذا اصطدم في الجو، إنها كتلة لا شكل لها، لكنها جسم حي، اصطدمت بالطائرة بقوة. تمايلت الطائرة من شدة الصدمة، وفقد الطيار الرؤية تماماً خلال جزء من الثانية.

إنه سرب ضخم من الطيور، يبدو كأنه أصيب بالعمى في أثناء طيرانه..

تفصد جسم الطيار عرقاً بارداً. بعد أن استطاع في اللحظة الأخيرة أن يتمسك بالمقود بقوة، كي لا يهوي في الدوامة، راح يقطب تقززاً من الكتلة الدامية، التي لطخت زجاج قمرته.

كانت الطيور أول من غادر هذه المناطق، دون أن تنتظر قدوم الخريف. لقد رحلت في عز الصيف زرافات ووحداناً، ليلاً ونهاراً، رحلت تاركة الأعشاش والبيوض، التي لم تفقس، رحلت مخلفة فراخها التي ما زالت تمد أعناقها عاجزة، والتي لا تزال تأكل من مناقير أهلها، وكانت طيور البوم المستنقعية آخر من اختفى. وتوقف نعيقها الليلي..

والوحوش هربت..

وفي كل مكان راحت النيران تلتهم الغابات الكثيفة في مساحات شاسعة، وينتشر الدخان برائحته الحادة وشرعت الغابة المعمرة تتداعى، وبدأت أشجار الصنوبر العملاقة تتساقط مفرقعة، كما لو أن عاصفة هوجاء مرت بها ومادت الأرض، تحت قوة وهي الانفجارات المتلاحقة من رمي المدفعية الكثيف، من انفجارات القنابل، المتساقطة من السماء، من هدير المدرعات المهاجمة وما تنفثه من النيران التي تطلق عليها.. والجداول، التي أنهكتها الانفجارات، غيرت مجاريها، خرجت من ضفافها، فغمرت المنخفضات والوديان. وسقطت إحدى الدبابات إلى الأبد في خندق عميق؛ ولم يبقَ منها بارزاً فوق سطح الماء سوى سبطانة مدفعها..

كل هذا كان يجري يوماً بعد يوم، ولم يكن بالإمكان إيقافه لأن حرب الجبهات، حسب التعبير العسكري، كانت تدور هنا. جبهة ضد جبهة. كل جانب بحاجة إلى كسر مقاومة العدو، وشن هجوم حاسم، وكسر شوكة الخصم على الجناحين وفي المؤخرة، وتدمير قواته الحية. وكل من الجانبين يرى أن مهمته تكمن في أن يكون المبادر في القيام بالخرق، وأن يكون أول من يهاجم.

لكن حتى الآن لم يتمكن أي من الطرفين من تحقيق هذه المهمة، ولذا فقد طالت أمد حرب الخنادق، يوماً بعد يوم..

وكانت عجلة الزمن تدور. وحتى الخريف تقريباً لم تتوقف المدافع عن القصف في هذا الفضاء، المعروف باسم مسرح العمليات الحربية، ليلاً أو نهاراً، في المطر والصحو.. وفي ذلك العام لم تعد الطيور إلى أعشاشها، ولم تستطع الأعشاب المهروسة أن تزهر وتنجب البذار.

وفي هذا الوقت كانت قيادتا الجبهتين الموجهتان لإلحاق الهزيمة بالعدو، تضعان على عجل الخطط العملياتية الجديدة، وتنقلان المعلومات السرية عن الخسائر، عن عدد القتلى والجرحى ـــ وكانت هذه القيادة وتلك تؤكدان بصوت واحد على ضرورة زيادة حجم القوة الضاربة، ولذا فقد كانت كل منهما تطلبا إلى قيادتها العامة إمدادات جديدة في القوة البشرية والعتاد الحربي والذخيرة: هذه من أجل الاستيلاء على مواقع هامة جديدة، وتلك من أجل حماية تلك المواقع، ولكن، وفي كل الأحوال فإن الاحتياطي في هذه الحالة وتلك كان يتقدم، ثم لا يلبث أن يتناقص عديده في المعارك، ليدعم باحتياطي آخر..

كان الصيف، الذي مزقته الحرب، يميل نحو الأفول، وحان لكل من الطرفين المتحاربين الموعد الأخير للاستعداد، الحد الأخير، الذي يسبق بداية الخرق، حين تميد الأرض تحت ثقل القوة الجامحة ـــ الهجوم الكاسح.

وإلى هذا الحدث العظيم، حين تبقى الشمس وحدها من بين كل ما هو قائم، غير ملطخة بالدماء إلى هذه المناطق التي هجرتها الطيور،

ساق القدر في تلك الآونة كثيراً من الناس، الذين ربما ولدوا في هذه الدنيا من أجل هذا الحدث المشؤوم بالذات.

وكان أحدهم قد وصل إلى هنا في القطار العسكري من مدينة ساراتوف، قادماً من آسيا الفولغية الحارة. الجميع في القطار كانوا يعرفون أنهم ذاهبون إلى الحرب. لكن إلى أين بالتحديد ــ إلى أية جبهة، إلى أي قطاع ــ هذا ما لم يكن بمقدور أحد أن يعرفه، وحدها القيادة العليا كانت تعرف، أما الجندي فما عليه إلا أن يذهب إلى حيث يرسل. لكن البعض قال إنهم في طريقهم إلى موسكو، ومن هناك، الأمر واضح ــ إلى الجبهة.. وهذا ما حدث بالفعل. ولم يكن التنبؤ بمثل هذه الوجهة بالأمر الصعب أبداً. غادروا ساراتوف، والنهار يميل إلى نهايته، وبعد ليلة من الطريق الخانق، وبعد سهوب الفولغا، التي أحرقها قيظ الصيف، بدأت تطل على الجانبين، تارة قرب السكة الحديد، وأخرى بعيداً عنها، الأجمات الخضراء، والغابات الصنوبرية، فتبدو متعة للنظر ــ وكأنها مرسومة على اللوحات العريقة، حتى أن البرودة بدأت تتسرب عبر الأبواب المفتوحة للعربات، المحشوة بالجنود والأسلحة الخفيفة. ولم تلبث الغابات أن أصبحت قريبة جداً منهم ــ انظر ــ يا لها من غابات على مد البصر، إنها روسيا ــ رُوسيا الأم ــ قال الجنود لبعضهم، كأنهم لم يكونوا من روسيا، بل من مناطق أخرى.

وكان بينهم واحد فتي جداً، طويل ونحيف كانت البذلة العسكرية فضفاضة على جسمه، بدا وكأنه يرتدي ثياب أبيه، سيرجي فورونتسوف. أو كما ينادونه في الفصيلة ــ سيرجي إينوك، لا بل والأب سيرجي. وقد صدف أن الشاب أشار في حديثه إلى أن الله، ليس إيقونة، وإنما تجلّ لكن أي تجل لم يفهم أحد ما قاله بهذا الشأن. لكن هذا كان كافياً لأن يطلق عليه سليطو اللسان لقباً كنسياً ــ

سيرجي إينوك. وكانوا مرتاحين لذلك ــ فسيرجي لم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة، فما المانع من السخرية منه. وهو لم يكن مستاء. فلقد كان هذا السيرجي يمضي الساعات واقفاً لدى عارضة أبواب العربة، وكان أكثر الجميع تعلقاً بالوقوف لدى الباب. البعض كان يلعب الورق، وآخرون كان قد بقي لديهم بعض الشراب، بعد وداع البارحة، لدى ركوب القطار. وكما هي العادة في السفر فإن الأحاديث لم تتوقف، على الرغم من الضجة وقرقعة القطار. وكان البعض يردد الأغاني، محاولاً أن يطرب نفسه في وقت الفراغ هذا، أما سيرجي فكان شيء ما ينشده نحو الباب ــ لرؤية الأماكن الجديدة، التي يمر بها القطار على عجل، كان أكثر الجميع رغبة في التفرج والاطلاع، كما الصبي الصغير.

فهذه هي المرة الأولى، التي يسافر فيها سيرجي عبر هذه الأصقاع الروسية الأصيلة، وإن كان يحلم بمتابعة دراسته في موسكو، بعد حصوله على الثانوية، لكن كل هذا ألغي الآن، وها هو القطار يندفع به إلى الحرب، وفي هذا الوقت استمرت الحياة: في العربة، في الحركة، في الخروج من القطار في المحطات، لجلب المياه الساخنة في أباريق الشاي الصفيحية، في تناول الحصص العسكرية، وفي تناوب الانطباعات عن الطريق، بعد ثلاثة أشهر من التدريب القاسي في أحد المعسكرات على الفولغا. وكان سيرجي حين يرى شيئاً ما غير مألوف، غير عادي بالنسبة للآخرين، وإن لم يكن مسلياً، يبادر فوراً إلى أحد الواقفين بجواره من كمه، وكأنه يدعوه إلى أن يشاركه اكتشافه الذي قد يكون قرية صغيرة، تكاد تلامس سكة الحديد، أو بحيرة شبه مغطاة بالقصب، أو غريب أطوار يمتطي ظهر بقرة. يا سلام عليك، يا لك من فارس خيال. وقد يكون مدخنة عالية وسط السهل الأجرد، بالقرب من مصنع والمشعل النفطي يتوهج في أعلاها. وراح سيرجي يشرح ذلك كله، ويقول: إن المشعل يتوهج في

السماء من أجل التخلص من الغاز الزائد. فحيث كان يعمل أبوه في الحقول النفطية، توجد أيضاً مدخنة تشتعل في أعلاها. وفي الليل الشتوي المظلم يكون سقوط الثلج في منتهى الروعة. فندف الثلج تتراقص، وفي السماء تتوهج نار حية. وكان يصدف أن يذهب مع أمه وأختيه إلى هناك، في عيد رأس السنة، للاستمتاع بمشهد المشعل. كانوا يسيرون عبر الثلج، وقد أمسك كل منهم بيد الآخر. ولدى عودتهم إلى البيت الذي كان يبدو دافئاً، ومضاءً فيقرأون الأشعار، وتقدم الأم الفطائر، حتى الأب ــ وهو محاسب صارم ــ كان يمرح بدوره. يا له من غريب الأطوار هذا الأينوك، حتى أن البعض كان يضحك منه، فهو يتذكر الأشعار والفطائر.. في الوقت الذي يندفع فيه نحو الجبهة.

وفي إحدى المحطات المركزية ــ وكان القطار يسير ببطء، والوقت غسق المساء ــ لفت سيرجي الانتباه العام إلى قطار أحرقه القصف، فوُضع على الطريق الاحتياطي، وكانت القاطرة مشوهة، والعربات محطمة هي الأخرى. لم ينبس أحد ببنت شفة، لكن لابد أنه خطر ببال كل منهم: كيف احترق هذا القطار تحت القصف، كيف أغارت الطائرات الفاشية، وما الذي جرى في هذه العربات؟ كم عدد من أصيب، كم عدد الذين تمكنوا من القفز، كم عدد من احترق؟ كانت تلك العلامة الأولى للحرب، التي رأوها بأم أعينهم، وهكذا فقد جرى اللقاء بصمت، كما في المقبرة، وافترقوا بهدوء في غسق المساء. لاذ كثيرون بالصمت، وراحوا ينفثون دخان سجائر الماخوركا وهم غارقون في لجة أفكارهم.

لكن حدثاً آخر مسلياً جرى في الطريق، فقد ضحكوا من الشاب، حين شد أحدهم من كمه، وهو يقول:

ـــ انظر إلى الآبار هنا كم هي جميلة، هناك ألا ترى؟ البئر المزخرفة، ومدخل الدار مزدان بالرسوم والنقوش، يا للجمال..!

لكن جاره قال له بلهجة لاذعة:

ـــ دعك من النظر إلى البئر المزخرفة، وإلى المدخل المرسوم المنقوش، وانظر إلى الصَّبيَّة، تلك التي تنشل الماء من البئر. انظر كم هي بشرتها سمراء، وعجيزتها، أما أنت فلم ترَ إلا البئر. آه منك يا إينوك، لو أقفز الآن من القطار، بدلاً منك وليسجلوني «فراري«. وكم ضحكوا حينها.

ويجب القول: أن الناس قد أدركوا بسرعة أنه فعلاً مغفل، إينوك شاب غر، ينظر إلى الجهة الخطأ، على الرغم من أن الله وهبه طول قامة، وعرض أكتاف، وقدرة على النقاش. لكن سيرجي كان لا يزال مراهقاً، خجولاً، لا وبل حتى غريب الأطوار. كان سيرجي يفكر بهذا بمرارة وهو ينظر إلى أترابه، وهم بالإضافة إلى الكثير من الأمور الأخرى، يخاطبون النساء بكل بساطة، بينما هو... بالمناسبة لقد حدثت له قصة، لا تخلو من التلميح إلى الحب، لكنها انتهت بشكل محرج.

فالبارحة جرى له في المحطة، في أثناء صعودهم إلى القطار، حادث غريب، وربما يكون مضحكاً، وربما لا يكون.. لكنه لم يكف عن التفكير به طيلة الطريق. وكل ذلك لأن الناس سيعرفون منذ النظرة الأولى من يكون ـــ إينوك ساذج، ولا شيء آخر.

وفحوى الحادث أن الإعلان عن ترحيل وحدتهم العسكرية جاء مفاجئاً، كما في الحالات الطارئة، في الصباح الباكر. من الصعب معرفة سبب هذه العجلة، لكن هكذا صدر الأمر. الحرب دائرة وهذا

يوضح كل شيء، والأمر العسكري لا يقبل الأخذ والرد. وهكذا فقد جرى الاستعداد على عجل. ولم يلبثوا أن غادروا معسكر الضواحي، سرية في أعقاب أخرى، وتحركوا عبر شوارع ساراتوف باتجاه المحطة.. وكان الكثيرون في الطوابير من أبناء ساراتوف المعبأين. وهكذا فلدى عبورهم الشوارع كان البعض منهم يمر بجوار نوافذ بيوتهم في المساكن العمالية، بالقرب من بوابات المصانع، التي كانوا يعملون فيها حتى الأمس القريب. فكيف يمكن للمرء أن يمر بهذا صامتاً؟ وهنا جرت له تلك الحادثة. بالطبع لم يكن ثمة من يفكر بمغادرة الطابور، فمثل هذا لا يمكن أن يسكت عنه القادة. لكن كان هناك من راح يصيح باتجاه النوافذ المفتوحة صيفاً، لكي يودع ذويه، أو ينادي المارة، ويطلب نقل تحياته لذويه. وتقاطر الأولاد من كل حدب، وصوب، وهم يصرخون: «الجنود قادمون، جنود الجيش الأحمر ذاهبون إلى الحرب« وظهرت النساء ـ الزوجات الأخوات والجارات، والتفّ عقد الجميع، كأنهنّ كن بانتظار هذه اللحظة، ثم خرجن على عجل، بعضهن في خف منزلي، والبعض الآخر حافيات، وهنّ يقفزن، حتى أن إحداهنّ خرجت بشعر مبلل، وقد غطت رأسها بالمنشفة، إذ فاجأتها الضجة، وهي تغسل رأسها، وكان بعضهنّ في ثياب ممزقة. كن يجرين بجوار الجنود، السائرين في الطابور، يودعنهم، هم الذاهبين إلى الحرب، ويسلمنهم جميعاً إلى الله وحده، فالجميع كانوا بالنسبة لهم في تلك الساعة أعزاء، أقارب، الجميع بلا استثناء، كنّ يجرين وهنّ يوصين الجنود بالعودة المظفرة والسريعة إلى البيت، إلى ساراتوف، إلى الفولغا، إلى القرية الأم. وكانت إحداهنّ لا تكف تزعق وهي تبكي: «عاش ستالين، عاش ستالين»، وفيما بعد، وحين اقترب الطابور من المحطة استدركت النسوة، ورحن ينحن قبيل الفراق، ويندبن مصيرهن المرير، وحظهنّ العاثر. كنّ يتألمنّ، وهنّ يودعنّ هؤلاء الذاهبين إلى الجبهة، فمنذ

الآن أصبحت حياتهنّ نوعاً من القربان على مذبح الحرب، مع كل ما سيتمخض عن ذلك من منغصات حياة الترمل حتى آخر العمر..

ــ لا تزعقنّ يا نسوان. لا تعرقلن مسير الطابور، هيا تفرقنَّ.

لكن صيحات القادة ووعيدهم لم تؤثر على النساء، وهكذا استمر المسير ــ الجنود في الطابور وإلى جانبهم النسوة والأولاد، عبر شوارع ساراتوف، تارة صعوداً، وأخرى نزولاً عبر المنحدر، أبعد فأبعد عن الفولغا..

لم يكن سيرجي يتوقع أنه سيعاني إلى هذا الحد من ألم الفراق، إنها المرة الأولى، التي يعرف فيها الوداع، كانت روحه تتعذب. وإن كان يحاول على غرار زملائه السائرين بجواره، التظاهر بالحبور، ولا يكف يبتسم لجميع من تلتقي عيناه بعيونهم، ويلوح بيده ــ وكأنه يقول: إن كل شيء سيكون على ما يرام. وكيف لا؟ لكنه يشعر بغصة خانقة لأنه لم يتمكن من وداع الجميع ــ فقد كان والداه عجوزين هرمين، وكان هو آخر العنقود. كانت إحدى شقيقاته، وهي الكبرى، تعيش في كازاخستان، في مكان على الحدود مع الصين، في أحد المخافر الحدودية. أما الثانية فيرونيكا، فكانت تعيش هنا، في ساراتوف، وكان زوجها في الجبهة، ولا يُعرف أحي هو، أم لا. ولديها طفل صغير، ولما كانت تعمل، فقد تركت الصغير لرعاية الأم، التي طرقت الشيخوخة بابها على عجل، أما الأب ــ فورنتسوب نيقولاي إيفانوفيتش، الذي أمضى جل حياته يعمل محاسباً في الحقول النفطية الفولغية، فكان في تلك الآونة يرقد في المستشفى، وهو مريض منذ عهد بعيد. هذا ما كتبته له فيرونيكا إلى المعسكر التدريبي، على العنوان البريدي للوحدة العسكرية، حيث كانوا يدربونهم ليلاً ونهاراً على الأمور الحربية. لم يكن يُسمَح بزيارة

الأهل، وفي هذه الرسائل كانت فيرونيكا تصف كل معاناتهم، وكم تجد من صعوبة في حياتها الموزعة بين الذهاب إلى العمل، إلى البيت، إلى المستشفى لعيادة الأب المريض. إنها معروفة بقلبها الطيب، ومشاطرة الجميع معاناتهم. كان يحب أختَه لأنها كانت صريحة، تكتب له كل شيء في الرسائل، ولا تخفي عنه شيئاً. لكن سيرجي لم يرد على رسالة أختِه الأخيرة، ولم يكن يعرف إن كان سيرد، فقد تركت في قلبه شعوراً غريباً محرجاً. لقد كتبت فيرونيكا ــ لكن من أين عرفت بذلك كله ــ عن ناتاشكا، ابنة صفه سابقاً، والتي كانوا يطلقون عليها في المدرسة لقب «الكومينتيرنا»[1]، لأن ناتاشكا نظمت القصائد، وهي ما تزال في الصف السابع، عن الكومينترن، وكيف ناضلت كتائب الكومينتيرن في إسبانيا من أجل سعادة العمال والفلاحين في بلدان العالم بأسره. وأرسلت هذه القصائد إلى موسكو، ومن هناك بعثوا لها برسالة شكر وتقدير، ولقد شكلت تلك الرسالة حدثاً هاماً في المدرسة، وكانت ناتاشكا تقدمها للجميع لكي يقرأوها. وفيما بعد أصبحت ناتاشكا ــ كومينتيركا المرحة الحركة من النشطاء البارزين، تتحدث في الاجتماعات كلها، يعرفها الجميع، وتعرف الجميع. ولقد حدث في الربيع، قبل اندلاع الحرب، أن رقص معها مرة في حفل مدرسي، وكانت هي من جره إلى الرقص، فبينما كان يقف لدى النافذة، يراقب أزواج راقصي الفالس، اقتربت منه فجأة، بعد أن تركت مراقصها، وتأبطت ذراعه بكل ثقة، وهي تقول: ــ «تعال يا سيريوجا، إن بودي أن أرقص معك أكثر من أي كان». وأطاعها، كما يطيع الطليعي المشرف عليه، على الرغم من أنها كانت أقصر منه بكثير، فمن أين لها كل هذا التصميم؟ وكأن هذا ما كان ينتظره، فقد اندفعا إلى حلبة الرقص، وتلك كانت نقطة البداية. تملكت سيرجي مشاعر لا عهد له بها ــ كان الرأس

---

(١) نسبة إلى الأممية الشيوعية/ كومنتيرنا من كلمة كومنتيرن.

يدور بين هذا العدد الكبير من الراقصين، وكأن ناراً لا ترى تخرج من هذا الحشد الراقص، فيستعر الجسم والتنفس، وتشعر بالرغبة في الاستسلام للغريزة الجامحة، ويود الهروب من بين هذا الجمهور، والتحليق مع ناتاشكا في الجو، بحيث لا يراهما أحد، والطيران أعلى فأعلى، وهو يضمها إليه. أما هي، ناتاشكا ــ كومنتيركا فكانت كما المطاط ــ مرنة وطيعة، ومما أثار دهشته أيضاً أن الحرج، الذي كبله في البداية، لم يلبث أن أُطْلِقَ سراحه، وحل محله الشعور بالتقارب الخاص، والمطرد بينهما ــ وراح قلبه يدق بقوة متزايدة، ولم يعد بوسعه كبح جماحه. وكان هذا الانجذاب يزداد سيطرة عليه، لكنه لم يتمكن من تمييز وجهها، القريب جداً منه، بحيث كان يشعر بنفسها الساخن، ومن شدة التأثر لم يفهم ما الذي يجري له. وحين قالت له فجأة: «إنني أعرف يا سيريوجا أنك تحبني، وأنك تحلم بي« حينها فقط رأى عينيها الضاحكتين بجرأة، ووجهها الذي يدنو منه عن قصد، وفيه تعبير إيحائي.

شعر سيرجي بارتباك قوي، فهو لم ينتظر شيئاً كهذا ولم يكن مستعداً له، ولحسن الحظ أنه لم يفقد الإيقاع، وتابع الرقص. هم أن يرد عليها بشيء، شيء حاذق، رخيص، على غرار أترابه الماهرين في ذلك، لكن الأمر لديه كان جدياً. كان يود أن يقول لها: إنه لم يفكر إن كان يحبها، أم لا، وإن كانت تعجبه على ما يبدو، لا بل تعجبه كثيراً. لكن ناتاشكا، وكما لو أنها خمنت ما يدور في خلده، سبقته قائلة، وهي لا تكف تدور، وتهز رأسها على إيقاع الموسيقى: «لا تجاوب يا سيريوجا لا تجاوب، لا داعي لبذل الجهد فأنا قلت ذلك مازحةً، لكن الواقع أنني أعرف ما يدور في دخيلتك، وبوسعي أن أقول بدلاً منك ــ توقفت ناتاشكا قليلاً في طرف القاعة، كي تسمع كلماتها بشكل أفضل ــ إنني أعرف دخيلة الجميع، وأعرف بماذا يفكر كل واحد. يقولون عني في اللجنة المنطقية إنني كمسومولية ماهرة في الدعاية.

وأنا أراك تماماً، أنت تحبني ولن تلبث أن تقول لي ذلك، فأنت لست كالآخرين هنا، إنك بطيء التفكير، وإلى أن تحزم أمرك.. إنني أعرف كل شيء فلم يسبق لك أن أقمت أية علاقة مع البنات. أليس كذلك؟ أجل، الأمر واضح، لا داعي لأن تخفي ذلك، فأنا أراه في عينيك. لكن لن يمر من الوقت إلا القليل حتى يتعلقن بك جميعهنّ، فإياك ثم إياك. إنني الأولى، وأنت ستبقى معي ــ ومن جديد تابعا الرقص، ولم تتوقف ناتاشكا عن الكلام، ــ سوف نذهب معاً إلى كل مكان، وبينما ألقي الخطب في الاجتماعات، تقوم أنت بتسجيلها للصحيفة، ستكون صحفياً، إنك ماهر في الكتابة، فأنا أعرف هذا، الواقع أنني مقدامة، شاطرة في إلقاء الخطب، وأنت بالمقابل ذكي، وهذا ما أحتاج إليه بالذات. واضح؟».

هذا ما دار بينهما من حديث، ربما يكون نوعاً من المزاح، أو الجد، فهل كان يجدر به أن يفكر بذلك، لا بل وينساه، لكن ما حدث أن سيرجي لم يعرف للنوم سبيلاً في تلك الليلة، وظل يتقلب حتى الصباح، كأنه أصيب بصدمة كهربائية، وقرر بعد ذلك أن يكتب لها رسالة، لكنه لم يلبث أن مزقها. لقد بدت له الكتابة بشكل جدي غير مناسبة، أما أن يكتب لها هكذا، من باب التسلية، وكأنه يتودد إليها، فهذا ما لم يكن يعجبه، وهدأ بمرور الوقت. وفيما بعد ــ وكان ذلك في أعقاب التخرج، وبينما كان يسعى للانتساب إلى معهد التربية ــ كانت الحرب قد اندلعت في ذلك الصيف ــ التقيا مرتين على عجل، لكنهما لم يتحدثا عن الحب. وفي كلتا المرتين كان سيرجي ينتظر أن يعودا إلى الحديث، لكنه هو نفسه لم يفاتحها بهذا الأمر، كما لم يسمع من جانبها شيئاً بهذا الخصوص، كان الأجدر به أن ينسى هذه القصة، لكنه في أثر تلقيه التبليغ بالالتحاق بالجيش، حصل العكس تماماً. فلم يستطع سيرجي كبت مشاعره، وتوجه إلى ذلك البيت، متعدد الطوابق، حيث تقطن، وراح يتسكع بجواره، وصار نهباً للقلق

والعذاب، وكأنه بين نارين: فهو من ناحية يود العودة على أعقابه، ومن ناحية أخرى، يود البقاء في مكانه، بانتظار عودتها، وقد رجحت كفة الانتظار، فها هي قادمة. لكن كل شيء جرى بشكل عادي، كما يحدث حين توشك النار على الخمود، ولابد من العثور على أغصان جافة لإحيائها، وأخبرها سيرجي أنه ذاهب إلى الجيش، وأنه جاء لوداعها. ولقد تلقت هذا النبأ بكل هدوء، وأشارت إلى أن الجميع الآن يرسلون إلى الجبهة، فالوقت وقت التعبئة العامة، وأضافت أنها الآن في عجلة من أمرها، وهي مشغولة، ووعدت بالكتابة، المهم أن يرسل لها بسرعة عنوان بريده الميداني. وهذا ما أفرح سيرجي جداً وكأنه إنما أتى لهذا الغرض بالذات ــ لكي يتفقا على المراسلة، ففي الرسالة يمكن أن يقول لها أكثر بكثير من الحديث المباشر، وفي الرسالة يمكن أن يقول لها ما لا يجرؤ على قوله وجهاً لوجه. لكنه لم يتلق أي رد على رسائله، علماً أنه أرسل لها ثلاث رسائل متتالية، على الرغم من أنه انتظر ذلك بفارغ الصبر، وهو يستعرض في ذهنه الجمل المختلفة والردود المحتملة. وحين خبا بصيص الأمل في لجة التدريبات المكثفة، جاءت رسالة أخته تشير إلى أن ناتاشكا كومينتيركا سوف تتزوج، كما يعرف المطلعون ــ من رجل أعمر منها بكثير، توفيت زوجته منذ عام ولديه إعفاء من الاستدعاء إلى الجبهة. وأضافت فيرونيكا في رسالتها: (سيريوجا إياك يا أخي الحبيب أن تنزعج لهذا. إنني أعرفك، فلقد طالعت الكثير من الروايات، وتنظر إلى الأمور، وكأنها تجري على صفحات الكتب، وستتعذب لهذا السبب، لكن لا تفعل ذلك. فأنت إنسان آخر تماماً، إن لديكما طبيعتين مختلفتين. ولا تلمها في قلبك، فهذا شأنها إن كانت قد قررت الزواج. إنكما لا تليقان ببعض. صدقني. المهم فقط أن تعود إلى البيت حياً سليماً، المهم فقط أن تنتهي هذه الحرب بسرعة، وليس لدي شك في أنك سوف تكون سعيداً، وأنك ستعثر على الفتاة التي ستعيش معها في سعادة تامة. المهم أن لا تعذب نفسك يا أخي الغالي،

وأن تعود إلينا، على جناح السرعة.. وأن تنتهي هذه الحرب بسرعة، ليتها تنتهي بسرعة..) هذا ما جاء في رسالة أخته. لكن، والحق يقال، لم يكن بينه وبين ناتاشكا كومينتيركا أي شيء يدعو إلى العذاب. ومع هذا فقد قررت أخته أن تطمئنه.

والآن أصبحت هذه القصة الفاشلة مع ناتاشكا من الماضي، كحلم شبه منسي، كدرس سابق في المقطع السابق من حياته، وهو ابن التاسعة عشرة.

على هذا النحو كان راحلاً إلى الجبهة، كان يرتحل دون أن يفهم ما يجري له، وهو نهب لشعور معقد بالأسى والتخلص مما كانت روحه الساذجة على استعداد لأن تؤمن به، عن غير قصد. كان يرتحل عن مدينة طفولته إلى الحرب مباشرة، في طابور تودعه النسوة والأولاد، الراكضون عبر الشارع، وكان أشد ما يأسف له أن أخته فيرونكا لم تكن بينهن، أخته، التي لو عرفت برحيلهم، لجاءت مهما كلف الأمر لوداعه.

لكن، وكما يقال عبر العصور، فإن العالم لا يخلو من المعجزات. وربما أن ما حدث كان واحدة منها، حيث كانت مشيئة القدر أن يعوض غياب أخته بشكل مفاجئ تماماً، وهذا ما فكر به في الطريق، بعد أن اطمأن قليلاً، في أعقاب صعودهم إلى العربات.

فبينما هم في الطريق إلى المحطة، بدت وسط جمهور النسوة فجأة إحدى الغجريات. من أين جاءت، الله وحده يعلم، وذلك على الرغم من أن الغجر يتواجدون بأعداد كبيرة في ساراتوف، فترة الصيف. كانت الغجرية تلفت النظر بوجهها الأسمر والجذاب، وقرطيها النحاسيين، وهما يتراقصان أثناء سيرها السريع، ومنديلها الممزق

الفاقع اللون، الملقى على كتفها، وتنورتها الطويلة، التي تلامس الأرض. لكن الغجرية غجرية فقد كانت تمشي هي الأخرى على عجل، بجوار الطابور، في جملة السائرين، وهي تصرخ وتؤشر، وكأنها تبحث عن أحدهم في الطابور، وكان الجنود يتغامزون، وهم يلكزون خواصر بعضهم، وكأن كلاً منهم يقول لصاحبه: انظر، ترى ألست أنت من تبحث عنه الغجرية؟ حتى أن أحدهم صاح بأعلى صوته:

ـ هيه أيتها الغجرية، هيه أيتها الجسورة، أنا هنا هل تسمعين؟ هذا أنا، هل تبحثين عني لتقرأين لي بختي؟

ـ وكم كانت دهشته كبيرة حين سمعها ترد عليه أنها ستقرأ بخته هو أيضاً، لكن في وقت آخر، أما الآن فسوف تعثر بنفسها على ذاك الذي تحتاج إليه. وهذا ما حدث بالفعل. فلم تلبث أن تعرفت وهي تجري، ربما بحدسها، الذي وهبته من علٍ، وربما بنزوة عابرة، على ضالتها المنشودة. ومما أثار دهشة الجنود أن اختيارها إنما وقع على سيرجي. لكن لماذا عليه بالذات؟ لماذا وجهت الغجرية كلامها إليه بالذات؟ وهي تغذ السير بجواره:

ـ اسمع أيها الشاب، اسمع يا فتى. هيه أنت يا أبا الحواجب السوداء. اخرج إلى جانب الصف، وأعطني يدك. لأكشف لك بختك قبيل السفر، وأودعك بالتوفيق.

كان سيرجي يسير الثالث في الرتل عن الطرف، لكن المشكلة ليست في هذا بل في أنه لم يكن يعرف ماذا يفعل في مثل هذا الوضع، غير المألوف لديه، فلم يسبق أن كشف له أحد بخته قبل الآن، ولا كشف حظه، فقد كان جميع من في البيت بعيدين عن كل أنواع السحر ـ لم

يكن أبوه يثق بورق اللعب، كما لم تكن أمه تولي الفأل أي اهتمام، وفجأة يجد نفسه في هذا الموقف المحرج.

ـ لا داعي، لا أريد ـ قال لها بصوت عال، وهو يبتسم ويهز كتفيه، مرتبكاً من رفضه، مدركاً أن عليه أن يعتذر، لكن كيف، وعن أي شيء؟

وهنا توالت تعليقات رفاقه: لقد أحسنت الغجرية الاختيار، لقد أعجبت بفتانا: وبمن يمكن أن تعجب، إن لم يكن به؟ إنه على ما يبدو من المؤمنين، وهذا مناسب تماماً.

لكن الغجرية لم تتركه وشأنه.

ـ اسمع أيها الشاب، لا ترفض ـ إنه القدر.

وقال أحدهم:

ـ اسمه سيرجي.

ـ سيرجي؟ هيه، سيرجي، هيه يا عزيزي، يا أبا الحواجب السوداء. أقول لك إنه القدر، فلا ترفض يا سيرجي، إنك ما زلت شاباً، دعني أحدثك عن قدرك. سوف أكشف بختك بقلب صاف، ولن أكتمك سراً.

وهنا صاح بها بعض الحمقى:

ـ كفى إزعاجاً أيتها الغجرية، ألا ترين أننا نسير.

ـ لن أضايقكم، فقط ألقي نظرة على يده، دون توقف.

ـ هيا ابتعدي، لقد سئمنا منك، كفى إزعاجاً، أقول لك.

لم تكن الغجرية بالفتية، ولا بالعجوز. وكان وجهها، كما بدا لسيرجي خالياً من الدجل، لا بل إنه كان صريحاً، متعاطفاً كوجه أخته أختهُ فيرونيكا، إن فيرونيكا تود دائماً أن تقدم خدمة لأحد ما، فلا تعرف الهدوء والطمأنينة. أجل إنها لشبيهة بفيرونيكا إلى حد كبير، أو أن هذا ما بدا له، حين نادته قائلة: «سأخبرك كما تخبر الأخت أخاها«. وحين اختفت الغجرية عن ناظريه بين الجمع الغفير، شعر بالأسف، وراح يلوم نفسه. كان عليه أن يلبي طلبها، ولماذا هو خجول إلى هذا الحد؟ لقد أخطأ في رفضه.

وفي هذا الوقت كانوا قد اقتربوا من المحطة، وقد وصلوا بطابورهم الكامل، سرية وراء سرية، فصيلة في أعقاب فصيلة، وازداد الصخب والتدافع بين الغوغاء، الذين تدفقوا إلى المحطة في أعقاب الجنود.

كان القطار يقف على السكة، وأبواب عربات البضائع مشرعة لاستقبال القادمين، كان القطار طويلاً جداً، ولم يكن بالإمكان رؤية نهايته.

بدأ الهرج والمرج، الذي يسبق السفر، فقد وزعت الفصائل على العربات، واندفع الجنود يتحركون على طول القطار بصخب، ومما زاد في الطين بلة أن النساء والأولاد كانوا ينتشرون في كل مكان، ولم يكن بمقدور أي كان أن يطردهم.

استمر التوزع على العربات طويلاً. وعلى رصيف المحطة كان الجو حاراً ومزدحماً. وبانتظار دوره في الصعود إلى العربة، نسي سيرجي أمر الغجرية تماماً، لكن ها هي ذي تظهر في الحشد، على حين غرة. لقد عثرت عليه أخيراً، يا لها من عنيدة.

ـ هيه. سيرجي. لقد جئت في طلبك، فلا تردني خائبة، أيها الشاب، هلا أصغيت لي أنا الغجرية، إن القدر يأمرك بكشف طالعك، قبيل السفر، فلا ترفض، فأنت ذاهب إلى الحرب، ولسوف تعرف قدرك. قال سيرجي بسرور:

ـ حسنٌ، إقرئي بختي، ما دام ذلك ضرورياً ـ وبعد أن وضع كيس أمتعته عند قدميه، وعلق البندقية الآلية في عنقه، مدّ لها يده، بكل طيبة خاطر.على هذا النحو جرت قراءة البخت بجوار العربة، قبيل الصعود إليها، وبحضور رفاقه في الفصيلة. تفحصت الغجرية خطوط اليد بكل اهتمام، وراحت تهمس بشيء ما، وهي تحرك شفتيها، وتهز رأسها.

ـ وَيْ سوف تكون هناك معركة هائلة، لم يسبق لها مثيل، أُوْيْ أيها القدر! أيها القدر!. وحدها الشمس ستبقى غير ملطخة بالدم، ويفر الحصان، بدون فارسه. ـ قالت الغجرية، وهي لا توجه كلامها إلى شخص محدد، ثم أضافت، بعد أن نظرت إلى سيرجي: كانت لديك قصة حب غير مفهومة. ولقد جرَّت عليك الحزن، لكن عبثاً. إنك نظيف كورقة الكتابة الخالية. وهنا ترددت تعليقات الجنود الساخرة:

ـ الأمر واضح، لقد حاول صاحبنا النظيف، لكنه فشل. ـ فشل ـ تصدى آخر متظاهراً بالدفاع عنه، لا هم لكم إلا التكشير عن أنيابكم. هذا يعني أن فتانا إينوك قد تعذب، لكن عبثاً، فقد تركته وولت الأدبار، أما هو فقد ظل نظيفاً كما كان.

ـ لا تصغ إليهم أيها الشاب، بل اصغ إليَّ ـ قالت الغجرية، وهي تلوح بيدها، والآن هات يدك الأخرى، ولا تصغي إلا إليَّ.

تفحصت الغجرية كف سيرجي اليسرى، ثم استجمعت قواها، وصمتت للحظة، ثم قالت بلهجة مظفرة ــ إنك خالد، لقد حدثني قلبي، والآن هل رأيت ــ إنك خالد، إن لديك نجمة كهذه، كما لو أنني كنت أعرف، ولهذا فقد سرت في أعقابك.

ودبت الحركة في المتحلقين. أما سيرجي فقد ابتسم بغباء، وهو لا يعرف ماذا يفعل ــ هل يفرح، أم يضحك وينحني لها بامتنان، بقصد التسلية. وهم أن يسحب يده، لكن أحد الجنود تدخل فجأة، إنه كوزما. موجيك مشاكس، يتحرش بكل من يقول، أو يتصرف على نحو لا يعجبه، كان يحب المواعظ كثيراً:

ــ مهلاً، مَهلاً يا غجرية، ما هذا الذين تقولين يا عزيزتي؟ قال وهو يهز رأسه بحزم ــ يبدو أنك أخطأت المرمى، ماذا تقصدين بقولك: خالد؟ فهل يعقل أن يكون الإنسان خالداً؟ أين سمعتم بشيء كهذا؟ الجميع في الدنيا فانون، وهو وحده خالد؟ علماً أننا ذاهبون ليس إلى مكان مجهول، بل إلى الحرب ذاهبون، ومن يعرف ماذا ينتظره ــ البعض رصاصة، والبعض ــ لا؟ إن الموت في الجبهة الآن لا يفرق بين هذا وذاك، وماذا كتب لهذا وذاك، بل يحصد الجميع، بلا استثناء. فما الداعي إلى استغبائنا؟

ــ لست أستغبيكم، فأنا أكشف قدره، إن لديه نجمة خالدة. هذا ما كتب على جبينه ــ لم تستسلم الغجرية، وأضافت ما أرضى الكثيرين، وإن لم يكن مفهوماً تماماً ــ: والقدر أعلى من الموت، فالقدر يقود إلى القدر، لكن الموت لا يقود إلى شيء. إن نجمة هذا الشاب خالدة، وهذا قدره.. لفترة طويلة ظل كوزما يهمهم بشيء ما، ويهز بيديه كما في الاجتماع، محاولاً البرهان على سخافة أقوال الغجرية. وعلى الرغم من أنه كان مصيباً، فقد صدَّق الجنود الغجرية، لسبب ما.

وعندما حان موعد صعود العربات، ودعها الكثيرون مصافحةً بالأيدي، أما هي فلم تغادر رصيف المحطة حتى لحظة السفر، وحين انطلق القطار جرت مع بقية النساء والأولاد في أثر العربات وهي تلوح لسيرجي بيدها..

كان الجو حاراً، ولم يستطع سيرجي إلى النوم سبيلاً في تلك الليلة. كانت العجلات تقرقع في الظلمة الدامسة، والقاطرة تطلق صفرات طويلة، والقلب ينقبض حسرة وتوجساً. أي شيء لم يخطر ببال سيرجي، وموجة التاريخ تسوقه إلى أتون الحرب العالمية، وبين هذا وذاك لم يكن يكف يتذكر تلك الغجرية، ولم يفارق ذاكرته قولها: «وحدها الشمس ستبقى غير ملطخة بالدم.. وسيفر الحصان بدون فارسه..» ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟ شيء غامض وغير مفهوم. فما الذي يمكن أن يحدث لكي تبقى الشمس وحدها غير ملطخة بالدم؟ ولكي يفر الحصان بدون فارسه؟ والنجمة الخالدة أي نجمة هي؟ وأين هي؟ على الأرجح أن كل هذا كلام فارغ. لكن ما علاقة النجمة بالإنسان؟ أين النجوم ـ وأين الإنسان؟ لكن القدر موجود. وقدر هذا مرتبط بقدر ذاك، لكن ما هو القدر؟ وكيف يمكن للقدر أن يتفرع عن قدر آخر.

كانت العجلات تقرقع على السكة. وكان الجنود يغطون في نوم عميق، وهم يشخرون. والقمر تارة يظهر في فتحة الباب، ويختفي تارة أخرى، والنجوم تتلألأ فوق القطار الجامح..

لكن الشيء الغريب هو كيف استطاعت الغجرية أن تكتشف قصته مع ناتاشكا كومينتيركا، وأنه كتب لها الرسائل، وأن كل ذلك لم يتمخض عن شيء؟ كيف وصفت الغجرية ذلك؟ عبثاً تحزن؟ هذا يعني أن الحزن بدوره يمكن أن يكون عبثاً، لكن ما الذي ينتظره هناك؟ كيف

ستكون الأمور في الجبهة؟ إن الأمر مخيف بالطبع، فالجرحى، الذين وصلوا إلى ساراتوف من الجبهة، تحدثوا عن الحرب، وعليه الآن أن يرى بأم عينيه كيف هي.. لم يأته النوم أبداً. ومن جديد راح يفكر بوجود قوة فوق الجميع، وفوق كل شخص، إنها القدر، وليس بمقدور أحد أن يوقف هذه القوة، أو يوضحها. على الأرجح أن الحرب هي من القدر، وفي يد القدر قرار الحياة أو الموت، النصر أو الهزيمة، فهاهم أولاء في طريقهم إلى الجبهة، إنها إرادة القدر: ولهذا فهم الآن يرقدون على الأسرة في القطار، الذي يحملهم على عجل إلى هناك، حيث تدور رحى الحرب ضد الفاشيين. وماذا سيحدث هناك؟ إنه قرار القدر من جديد! تقتل أو لا تقتل؟ وعلى هذا يتوقف رجحان كفة النصر. أجل إنه يتوقف على من يقتل من. الجميع يود أن تنتهي الحرب بسرعة، وأن يتراجع الجوع. هذا ما كانت النسوة يصرخن به، وحتى الأطفال، في أثناء السير في الشوارع. وهذا يتطلب القتال، يتطلب القتل، ويتطلب تحقيق النصر. هذا ما يبدو، وفي البيت يتجادل أبوه مع أمه بسبب هذا. فحين تلقى مذكرة التبليغ، وبدآ يناقشان الأمر، ويجهزان أغراضه، قالت له أمه بتوسل، وهي تجلس على طرف الكرسي وقد ضغطت بيدها على صدرها: «سيريوجيكا أرجوك ياعزيزي أن لا تقتل أحداً، لا تُرِق الدماء» لكن ما الذي دعاها إلى هذا؟ أمن باب المصادفة، أم أنها فكرت بالأمر طويلاً؟ ولن ينسى أبداً مدى حياته، كيف نطقت أمه بهذه الكلمات، وهي تنظر في وجهه وكأنها للتو عادت من مكان بعيد، للتو اجتازت العتبة، وقالت له ما كانت تفكر به طوال السفر. وكذلك هو نفسه، كأنه للمرة الأولى في حياته يرى أمه. رأى عينيها، اللتين فقدتا أَلَقَهُما الذهبي القديم، ووجهها المزروع بالتجاعيد، وكم هي هرمة في قفطانها العتيق، وعلى كتفيها منديل من الزغب. وهنا اكتشف أمراً عجباً: هذا يعني أنها طيلة هذه السنوات من حياة الترحل عبر حقول النفط في حوض الفولغا، حين كان يجري صبياً حافياً، بينما كانت هي، أمه،

امرأة ضخمة، مديدة القامة، بجدائل شقراء مضفورة فوق رأسها، على شكل إكليل، وهي تحمل هموم البيت الدائمة والأولاد والمدرسة وحمية الزوج، هذا يعني أنها على امتداد هذه السنوات كانت تستعد لتقول له ما قالت، وهي تودعه في طريقه إلى الجيش. إن مناشدة الأم له أن لا يقتل في الحرب أحداً، أن لا يريق الدماء، قد أربكته تماماً فتمتم بغموض:

ــ ماذا بك يا أماه! ما الداعي لهذا الآن؟ فأنا سأكون في الجيش ــ ولكي يتنصل من الخوض في هذا الحديث، راح ينتقي الكتب الدراسية وكتب المطالعة في الخزانة، ثم قال لها: إن لدي هنا يا أماه بعض الكتب المستعارة من المكتبة، سوف أضعها على حدة، دعي فيرونيكا تحملها وتسلمها. لكن كان مقدراً لذلك الحديث أن يستمر، لأن أباه سارع إلى التدخل. فقد عُرِفَ عن نيقولاي إيفانوفيتش أنه صريح حاد، ونزق، فهو يجادل إلى درجة الغضب، وربما لهذا لم يكن على وفاق مع رئاسته، وكان يتألم بحزن.

ــ ماذا تقصدين بقولك لا تقتل؟ ــ صاح بما يشبه الاستياء، كيف هذا ــ لا تقتل، لا تُرِق الدم؟ شيء جميل، إلى أين هو ذاهب إذن؟ إنه ذاهب إلى الحرب. يا سلام عليك يا أم، يا سلام على هذا الكلام ــ وراح يذرع الغرفة بحثاً عن السجائر. كانت الأم تخفي عنه السجائر، فهو يشعر بالرغبة في التدخين، حين يضطرب. وكانت الأم لا تكف تؤكد أن التدخين هو السبب في نحوله وحساسيته المفرطة، قالت له متوسلة:

ــ أرجوك أن لا تدخن يا كوليا، أشفق على نفسك.

ـ لكن كيف يمكن أن لا أدخن بعد ما قلته لسيرجي، إنه ذاهب إلى الجبهة غداً، فما الذي سيفعله هناك؟

ـ ولهذا السبب أقول له، لندع الحكم لله. إن الجميع لا يكفون يؤكدون: اقتل اقتل، فالأعداء يحملون إلينا الموت، ونحن نحمل إليهم الموت. لكن كيف بالإمكان أن يعيش المرء بعدها، ألن يبقى على الأرض إلا القتلة؟ هل تعتقد أنني لا أفهم: إن لم تقتل قتلوك أنت، لكنك إن تقتل تصبح قاتلاً. وماذا بشأن صهرنا أناتولي؟ ربما هو حي وربما لا، ربما قتلوه، وربما أصبح قاتلاً؟ إنني أخاف أن أقول ذلك لفيرونيكا، لكنني سأقول لابني ما يدور في خلدي. ـ وراحت تبكي بصمت، وتكبت نشيجها، حيث لم تعثر على جواب، وهي عاجزة عن تغيير قناعتها.

ـ يا سلام! ـ تابع الأب لائماً ـ على مثل هذه الدعاية. يمكن أن تتهمي بأنك من أعداء الشعب، وينفونك إلى سيبيريا، إنها حرب عالمية تدور، والمسألة لمن ستكون الغلبة، لنا أم لهم، أما أنت ـ لا تقتل هل تظنين أنني لا أشفق على ولدي، فلذة كبدي؟ أو على صهرنا أنا تولي؟ لكن ما العمل؟ إن الجندي يدافع عن أرضه، لديه أمر. وإذا ما دمر الجندي العدو، أي قتله، فإنه إنما يقوم بذلك تنفيذاً للأمر، للواجب، وها هنا تكمن بطولته.

كانت أمه ساكتة، وهي مشغولة بتسوية كيس أمتعته، أما أبوه فقد استسلم إلى ذكريات الشباب، حين شارك في الحرب العالمية الأولى، وهو في التاسعة عشرة من عمره أيضاً، كان بحاراً، على متن غواصة. وكان فحوى كلامه أن تدمير قوة العدو الحية هو العمل الأهم في الحرب، فها هي غواصته مثلاً تغرق سفينة نقل حربية معادية، بمن عليها من القوات في بحر البلطيق، في البداية تعقبوها

لفترة طويلة تحت الماء، بعد ذلك أطلقوا عليها الطوربيد. ولقد أصابت كلتا الطلقتين الهدف ـ جانب السفينة على خط الماء. واندلعت النار في السفينة، وبدأت تغرق، أما غواصتهم فقد اتجهت نحو الأعماق. وبعد انتظار ما يقرب من الساعة، ارتفعت من جديد، وبدأوا يراقبون ما يجري على السطح من خلال البيريسكوب. كان أكثر من نصف السفينة العملاقة قد اختفى في الماء، بينما ارتفعت مقدمتها نحو السماء، ومن حولها الكثير من الناس، الذين لا يزالون يحاولون النجاة. بالطبع كان القائد وكبار الضباط هم من راح ينظر عبر البيريسكوب. وكان عناصر الإشارة يبثون تقاريرهم إلى القيادة، في كرانتشتات[1]، من خلال نظام مورس التلغرافي، حول تنفيذ العملية القتالية بنجاح، والمهمة هي أمر، الأمر بتدمير العدو.

في البداية كانوا يراقبون من خلال البيريسكوب فقط الناس وهم يغرقون. ومن ثم، وبعد أن ابتلعت المياه سفينة العدو، وتأكدوا من عدم وجود أي خطر في الجوار على الغواصة، طفوا على السطح تماماً، وصدر الأمر: الجميع إلى فوق. فصعد الطاقم كله إلى السطح، ثم انتظموا أمام القائد، وهو يشكرهم. أما الأعداء فكانوا في الجوار يغرقون، ولم يكن قد بقي منهم إلا القليل. ولقد حاول بعضهم الوصول سباحة إلى الغواصة، لكنهم لم يتمكنوا، والبعض الآخر تمكن من الوصول، لكن نيران البنادق حصدتهم عن كثب.

تلكم هي الحرب. إن النصر في الحرب لمن يقتل، والمنتصر على حق هذا ما حدث تماماً، وهذا ما سيبقى.

لم تحاول أمه النقاش ولا الاعتراض، بل اكتفت بأن هزت رأسها. بعد ذلك جاء لوداعه الجيران، كما جاءت عمته مع أبنائها، وجاءت

---

[1] جزيرة صغيرة قريبة من مدينة لينغراد.

فيرونيكا من العمل على عجل، وراحت تساعد أمها في أمور البيت، واستمر الحديث، لكن حول مواضيع أخرى، حتى منتصف الليل.

إنه يشفق الآن على والديه ــ على أمه وأبيه. فبينما كانت الأم ترغب في أن لا يقتل أحداً، كان الأب يطالبه بقتل العدو، وكل ما كان يبدو في الماضي ينبثق ويبقى في الخلف. وتذكر الفولغا تحت جبل ساراتوف، الأماكن الصيفية المحببة، الجزر الخضراء، ومياه النهر الرقراقة الخلابة، ومن فوقها القوارب الشراعية. لكن أكثر ما كان سيرجي يحبه في طفولته هو الذهاب إلى جسر سكة الحديد فوق النهر. كان الجسر عالياً جداً، وكان عليه أن يرفع رأسه كثيراً لكي يتفرج، وهو في الأسفل، على الضفة، ساعات بكاملها، على القطارات، التي تعبره، ويصغي إلى قرقعة العجلات. كانت عوارض الجسر المعدنية تصر وترتجف، وفي تلك الدقائق كان يشعر بالحسد إزاء أولئك المسافرين على هذا الجسر، عبر الفولغا، إلى البلدان الرائعة، التي قرأ عنها في الكتب..

كما تذكر من طفولته أيضاً كيف كانوا يذهبون ليلة رأس السنة، الأسرة بكاملها، وهم في الجزمات اللبادية، يشقون طريقهم عبر الحقل الثلجي نحو المدخنة الشاهقة، ذات المشعل المتأجج، إنها النار الحية والثلج الحي، الذي لا يكف يتساقط، في وهج النار، التي تلتهم ندف الثلج بصمت، بينما الثلج يتساقط ويتساقط، وهو عاجز عن الابتعاد عن النار، فيتساقط بكثافة ــ النار لا تنطفئ والثلج لا ينضب.

مع مرور الأعوام تغير الكثير، والآن جاءت الحرب، حاملة معها ضرورة أن تَقتُل أو تُقتَل. وليس ثمة من طريق ثالث. على هذا النحو فقط. بكى سيرجي في الظلمة، حال تذكره أمه وأباه وأخته فيرونيكا،

بكى خلسة وسط الجنود النائمين، كم كان بوده أن يشق طريقه معهم من جديد عبر حقل الثلج نحو النار التي تشق سجف الليل.

كانت العجلات لا تكف عن القرقعة على السكة، والعربة تتراقص، وهي تغذ السير. ومرت على عجل محطات صغيرة، فتراءت أضواؤها الخاطفة في ظلمة الليل. كان القطار، المعبأ بالجنود والسلاح، يشق طريقه على عجل إلى هناك، إلى حيث كان عليك إما أن تَقتل أو تُقتل. أن تُقتل لم يكن هذا يتوقف عليك، فلا أحد يتوق لأن يُقتل، ولا أحد يعرف إن كان هو بالذات من سيقتل. أما أن تَقتل أنت أحدهم فهذا يتوقف عليك، وهذا في الحرب أمر إلزامي مفروغ منه. ومع هذا فكيف تقول لنفسك: تقتل أو لا تقتل؟.

وتقرقع العجلات على الوصلات: تقتل أو لا تقتل، تقتل أو لا تقتل، تقتل أو لا تقتل،.. راح سيرجي، وهو يغفو بالتدريج، والدموع تغطي رموشه، يحاول أن يتصور الحرب، المعارك، وأولئك الذين عليه أن يقتلهم وكيف بإطلاق النار عليهم، أم بالسلاح الأبيض، كما حاول أن يصور ذاك الذي سيفعل الشيء نفسه، لكي يقتله. وكم بذل من جهد لكي يتصور ذلك العدو، الألماني الفاشي.. لكن بلا جدوى، كان من الصعب تصوره، كما كان من الصعب تصور أولئك، الذين غرقوا بجوار الغواصة. حسب قصة أبيه، كانت الأمواج تغمر الوجوه، مما يجعل من الصعب تمييزها، أما من كان يقترب، فكانوا يطلقون النار عليه في الماء. فيختفي في اللجة، بصمت ودون أثر.

«تقتل أو لا تقتل» ــ كانت العجلات تقرقع. وحاول سيرجي أن يتذكر الكلمات الألمانية، التي تعلمها في المدرسة، لكنه لم يكن واثقاً من ترجمة تقتل أو لا تقتل، تقتل أو لا تقتل، تقتل أو لا تقتل، إلى الألمانية.

وتابع القطار سيره شاقاً سجف الظلام..

لقد تمكنت من العثور على نص قصة «تقتل أو لا تقتل» بين أوراق أرسين سامانتشين. وكم يؤسفني أن الكاتب لم يتمكن من رؤية قصته المنشورة.

لكن القرّاء يبقون، سواء في حياة الكاتب، وبعد موته أيضاً، وإن بأعداد أكثر. وكما أوصاني أرسين سامانتشين، فلسوف أقرأ «تقتل أو لا تقتل» قراءة جهرية في مقابر الشهداء.

وإنني لأسمع نداء العروس الخالدة، التي روى عنها الراحل أرسين سامانتشين الكثير! وأنا معها..

شباط ٢٠٠٦ / بروكسل

إليـــس

الفهرس

الفصل الاول	١١
الفصل الثاني	٢٥
الفصل الثالث	٣٩
الفصل الرابع	٤٩
الفصل الخامس	١٠٣
الفصل السادس	١٣١
الفصل السابع	١٦١
الفصل الثامن	١٩٩
الفصل التاسع	٢٤٥
بدلاً من الخاتمة	٢٨٣
الفهرس	٣١٢

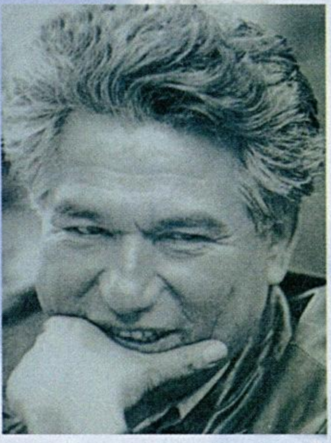

عندما تتداعى الجبال

العروس الخالدة

جنكيز آيتماتوف

أي جبال هي تلك التي تتداعى؟ أهي الجبال الرواسي، أعمدة الأرض؟ أم جبال الروح؟ أم جبال القيم والنواميس التي صاغت روح الانسان على مر العصور والأزمان؟

كلها تتداعى وتنهار، فعالم (البزنس) الكريه أتى على كل شيء غزانا جميعاً، صار في داخلنا يقضمنا قطعة قطعة.

حتى العروس الخالدة التي كانت تواسي نفسها في تطوافها الأبدي برؤية عاشقين يشع من حولهما الحب، قلما ترى شيئاً من هذا اليوم فراح حزنها يزداد.

وإذا كانت وحدها الشمس ستبقى غير ملطخة بالدم ويفر الحصان بدون فارسه كما تقول النبوءة الغجرية، فان جنكيز آيتماتوف في رائعته الجديدة (عندما تتداعى الجبال، العروس الخالدة) التي ظهرت العام الماضي، يرصد هذا الانخلاع الرهيب لسكان كوكبنا ويقدم نفسه ضحية لانقاذ مايمكن انقاذه عسى وعلَّ يستيقظ الاحساس ويزهر الحب وتزال (طراطيش الدم) ومن ثم يعود الحصان الى فارسه.

دار الحصاد
سورية - دمشق - ص.ب: ٤٤٩٠
هـ: ٢١٣٤٦٩٢ / فا: ٢١٢٦٣٢٦

الكلمة
سورية - دمشق - ص.ب: ٢٢٢٩
هـ: ٢١٣٤٦٩٢ / فا: ٢١٢٦٣٢٦
E-mail: jameh@mail.sy